ثلاثةُ أعلام في الثَّقافةِ البصريَّة
في القرنِ العشرين

٩٢٨,١
ظ. ٢٨٨ الظـالمـي، حامـد ناصـر
ثـلاثـة أعـلام فـي الثقافـة البصريـة
حامد ناصر الظـالمـي، البصـرة، ديوان محافظة البصرة، ٢٠٢١.
٢٣٨ص. ، ٢٤ سم
١. الأدباء العرب- تراجم، أ. العنوان.
م.و.
٤٠٠٦/ ٢٠٢١

المكتبـة الوطنيـة / الفهرسـة أثنـاء النشـر

رقـم الايـداع فـي دار الكتـب والوثـائـق ببغداد (٤٠٠٦) لسنـة ٢٠٢١

برعـايـة
محافظة البصرة

◇ جميع الحقوق محفوظة باستثناء اقتباس فقرات قصيرة لغرض النقد أو المراجعة، فإنه لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام الاسترجاع أو نقله بأي طريقة من دون الحصول على إذن مسبق من الناشر.

◇ All rights reserved. Except for the quotation of short passages for purposes of criticism or review, no part of this publication may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
2021

ثلاثةُ أعلامٍ
في الثَّقافةِ البصريَّةِ في القرنِ العشرين

حياتهم، وجَمْعُ ما تَبقَّى من نَتاجِهم المنشور في الدّوريات العراقيّة

الأستاذ محمد جواد جلال
والسّيّد عباس شُبَّر
والأستاذ رجب بركات

تأليف
د. حامد ناصر الظالمي
زينب راضي جواد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

أعلامُ الثقافةِ البصريّة في القرن العشرين كثيرون، وقد أثّروا في الساحةِ الثقافيةِ البصرية والعراقية والعربية، ومنهم مَنْ تجاوز الساحة العربية الى العالمية، كبدر شاكر السياب ومحمد خضير وسعدي يوسف و... ومنهم مَنْ عَرفهُ العربُ والعراقيون، ولكن مجموعة منهم على الرغم من نشاطه العلمي أو الثقافي بقيت شهرتُه محدودة، لأسبابٍ عديدة، منها، عدم جمع تُراثه ونشره، ومنه محدودية نشره، ومنها عدم وجود مؤسسات تَعمل على اظهار المثقف البصري وابراز دوره، ولو تَمَّ جمع تُراث هؤلاء لأصبحت صورة البصرة الثقافية أكثر وضوحاً وامتداداً،

فهؤلاء الكُتَّاب والشعراء والأدباء في القرن العشرين يتجاوز عددهم المئات ويصل حتى الألف، وقد تركوا الكثير من النتاجات، ولكنه إما أن يكون منشوراً بنطاقٍ محدود أو ضاعَ في بطون المَجلّات والصُحف، وبهذا ضاع تراثٌ كبيرٌ وكثير.

ومن هؤلاء الكُتَّاب والشعراء البصريين الذين أُهمِلَ تُراثُهم ثلاثة أعلام هم:

الأستاذ محمد جواد جلال، والسيد عباس شُبَّر، والأستاذ رجب بركات، لذلك عَملنا هنا على جمع ما تبقّى من تُراثهم القرآني والفكري (لمحمد جواد جلال)، والتراث الشعري (للسيد عباس شُبَّر)، والتأريخي والصحفي (للسيد رجب بركات)، ولَعلَّنا نُوفَق يوماً ما لجمع تُراث أكبر عدد ممكن من الكُتّاب والشعراء والمثقفين والمفكرين، لإعطاء صورة واضحة ودقيقة عن تراث مدينة مَنسية، ولهذا جاء الكتاب بثلاثة فصول، وقد أتعبنا البحث عن تُراثِهم ونَتاجِهم في بطون الصُحف والمجلَات القديمة والنادرة، ولكن مَنْ تَوكَّل على الله فاز.

الفصل الأول

المُربي البصريّ الأستاذ محمّد جواد جلال

(1901م – 1983م) (1319هـ – 1404هـ)

محاضراته القرآنية ومقالاته

الفصل الأول

حياته وآثاره:

ولِدَ الأستاذ محمد جواد بن يعقوب جواد آل جلال في محلَّة السِيمر في البصرة سنة 1901م، وَنَشَأَ بها وتَتلمَذ على أبيه في القراءة والكتابة ، ولم يدخل مدرسةً قط. ونظراً لصِلة والده بعلماء الدّين فقد أَخَذَ يرجوهم الإهتمام بتعليمه[1] ، وكان من الذين تَعلَّم عليهم العلاَّمة ناصر الإحسائي ، كما وَدَرَسَ الفلسفة والفقه وعلوم القرآن والخطابة على الأستاذ عبد السّلام عِزة فَمكَّنه ذلك من الإرتجال في الخطابة [2].

تَنقَّل الأستاذ محمد جواد جلال في مدارس البصرة والناصرية والعمارة ، ففي سنة 1921 تم تعيينه مُعلِّماً في مدرسة السّيف الإبتدائية، ثم رُقِّيَ مدرساً في المرحلة المتوسطة، ثم مدرساً في ثانوية البصرة (الإعدادية المركزية حالياً) في العشار حتى سنة 1928 [3] ، إذ تَمَّ نقله الى الناصرية ثم ((استقرَّ به المقام في أواخر الثلاثينيات في مدينة العمارة حتى الأربعينيات من القرن العشرين ، إذ عَمِلَ مدرِّساً للأدب العربي في ثانوية العمارة فصار منزله منتدىً أدبياً يحضر إليه الأدباء والمثقفون وفي أوقاتٍ معينة من الأسبوع إذ كان الرعيل المُتقدِّم من أدباء العمارة يحرصون على الإستماع الى محاضراته القيّمة ، وكان يُدرِّس النحو والأدب وتفسير القرآن في بيته))[4] .

---

(1) يُنظر : مقال من أعلام البصرة ، الأستاذ محمد جواد جلال للشيخ علاء لازم العيسى ، صحيفة الأضواء ، البصرة ، السنة الأولى ، العدد 4 ، الجمعة 27/ 6/ 2003 ، الصفحة الأخيرة .

(2) يُنظر : لوحات من البصرة ، عبير التوابل والموانئ البعيدة ، إحسان السامرائي ، مطبعة البصرة ، سنة 2013 : ص97 .

(3) يُنظر : صحيفة الأضواء .

(4) تأريخ التعليم في العمارة 1917–1958 تأليف جبار الجويبراوي ، طباعة الشركة العامة لإنتاج المستلزمات التربوية ، سنة 2001م : ص49 .

تَتلَمذَ عليه في العمارة مجموعةٌ من أعلامها ، إذ شارك في تأسيس ثانوية العمارة في أواسط الثلاثينيات ، ففي ((عام 1927 فُتح الصف الأول المتوسط في مدرسة السَّنية الابتدائية وأُطلِقَ عليه ملحق أول متوسط ، وفي العام 1928 فُتِحَ الصف الثاني المتوسط، وفي العام 1929 فُتِحَ الصف الثالث المتوسط ، وتم بعد ذلك تدشين البناية الجديدة لمتوسطة السَّنية مطلع عام 1934، ومن المُدرّسين الذين مارسوا التعليم في المتوسطة في فترة الثلاثينيات ، طه مكي ، وموسى الشَمّاع ، وعبدالوهاب الركابي ، ومحمد جواد جلال وعبدالجبار عبدالله (العالم المعروف) وغيرهم ، وفي عام 1937-1938 اكتملت صفوف الثانوية (ثانوية العمارة) وكان مديرها إسماعيل آل ياسين ومعاونه محمد جواد جلال))[1] وكان هؤلاء الأساتذة يُشجِّعون الطلبة سواء في متوسطة العمارة أم في الثانوية على الحضور في قاعة المطالعة في المكتبة المركزية ، فقد كانوا يلقون المحاضرات على الطلبة هناك ، ومن هؤلاء فضلاً عن الذين ذكرناهم سابقاً كُلٍّ من هاشم السعدي ، وعبدالمطلب الهاشمي ، ومحمد حسين الياسين .

وفي العمارة كذلك نَشَرَ الأستاذ محمد جواد جلال مقاله (احتكار العلم) في جريدة الفرزدق الاسبوعية الصادرة في العمارة في 8/ 12/ 1942، ونَشَرَ مقالاً آخر عن (طلب العلم قديماً وحديثاً) في الجريدة نفسها في يوم 1/ 12/ 1942، وتَحدَّث فيه عن سلوك الطلبة غير الأخلاقي مع أساتذتهم وذكرياته ومعاناته من الطلبة الذين دَرَّسهم في الناصرية ، ونَشَرَ مقالاً عن (مذهب التناسخ) بحلقتين في مجلة الجيل الأسبوعية الصادرة في العمارة في العدد الأول للسنة الأولى يوم 19/ 3/ 1946، والعدد الثاني للسنة الأولى يوم 8/ 4/ 1946 ، وهُناك أي في العمارة كَتَبَ مقالاً لم ينشره وهو يشير فيه إلى المأساة التي يعيشها الناس ، وعنوان المقال (طريق البكاء) إذ كان يمر يومياً في أحد الأحياء

(1) المصدر السابق : ص49.

الفقيرة البائسة والمليئة بالنفايات، ويجد أمامه الأطفال العُراة والنساء الباكيات. وهو يسمع ذلك البكاء والنواح الذي يصدر من تلك البيوت الآيلة للسقوط. وهو يراهم على هذا الحال يومياً ولمدةٍ طويلة. فتساءَل هل حَلَّت بهؤلاء مصيبةٌ ورزءٌ متجدد ، وما سبب هذا البكاء والنواح المستمر الذي لا ينقطع؟ فاستنتج أخيراً أن البكاء هو ليس بسبب خطبٍ ما أو حدث وإنما هو عادةٌ يُقصد بها قتل الوقت والترويح عن النفس، ومعالجة السأم ودفع الضجر، وهنا البكاء يكون كالطرب في الغناء كلاهما يحقن ما في النفس من ألمٍ ويُهوِّن من السّأَم ، ويبدو أن ألم الغناء لا يختلف عن ألم البكاء !

في سنة 1943 نُقِلَ مرةً أخرى الى مسقط رأسهِ (البصرة)، بعد أن قضى أكثر من عقدٍ ونصف في الناصرية والعمارة ، وهذه المرة يستقر به المقام في ثانوية البصرة للبنين في بداية الخمسينيات ، إذ ((كان ملاك ثانوية البصرة للبنين في الخمسينيات مكوَّناً من عبدالله محمد ومصطفى عباس وإبراهيم نعوم وعادل يوسف شماني وفرج عبدالأحد ومحمد جواد جلال ومحمد زايد وعزوز العزيز ومحمود عبدالوهاب وغضاب الفضل وكمال عبدالوهاب ورزوق فرج رزوق وأدور سيزر وحبيب هداية وفيصل السامر ومحمد جواد المظفر وكاظم نعمة التميمي))[1] .

وفي هذه المُدة أي منذ انتقاله من العمارة الى البصرة أي منذ أواسط الأربعينيات نجد البصرة تزدهر بوجود الهيئات والجمعيات الثقافية ومنها ((جمعية الرابطة الأدبية بإدارة محيي الدين الرفاعي، وكان مقرّها في المكتبة المركزية التابعة للإدارة المحلية ولم يكن محمد جواد جلال عضواً فيها، وكذلك الجمعية المحمدية التي كان مقرُّها في منطقة نهر الخندق ومن أعضائها كاظم مكي حسن وجمعية أخرى في جامع الفقير بمحلة أبو الحسن في

(1) صفحات من التأريخ التربوي في العراق – ثانوية البصرة للبنين خلال فترة الحكم الملكي 1921 – 1958 ضمن كتاب دراسات وثائقية في تأريخ العراق المعاصر ، د. سامي عبدالحافظ القيسي ، بغداد سنة 2009م : ص38.

البصرة كانت تضم لفيفاً من عمال شركة نفط البصرة ، والهيئة الأدبية ومقرها دار معتمدها عبدالرزاق العايش، وكانت تُحيي الليالي الخمس الثانية من العشرة الأولى من شهر مُحَرَّم حتى الليلة العاشرة منه))[1] .

وفي بستانه في العباسية والقريب من ساحة الخضراوية في منطقة السِيّمر ، أَسَّسَ محمد جواد جلال مع مجموعةٍ من المثقفين البصريين (الرابطة الثقافية) سنة 1952 ، وكان يشارك في نشاطات الرابطة العلاّمة السيد عباس شبر قاضي المحكمة الشرعية، والأستاذ محمود محمد الحبيب وعبدالرزاق العايش والشيخ محمد حسين الحمزة ومحمد هاشم الجواهري وسالم علوان الجلبي وغالب الناهي وصادق الأعرجي والشيخ محمد جواد السهلاني والشيخ محسن الفضلي وشاكر نوح وكاظم مكي حسن ، وكان يحضر معهم كذلك السيد عبدالحكيم الصافي والدكتور عبدالهادي محبوبة والشاعرة نازك الملائكة، وزارها (أي الرابطة) العلاّمة الدكتور مصطفى جواد كذلك. وكانت تجتمع هذه الرابطة كُلّ ليلة جمعه لتُقيم أمسية شعرية وأدبية وثقافية يشارك فيها مجموعة من الأدباء، وكان جُلُّ رواد هذه الرابطة هم رجال السوق والحِرفيين من نَجّارين وعمال بناء وحَدَّادين، وكان بعضهم يحضر ببدلات العمل، ويصل عددهم الى المئات وقد يتجاوز الألف وأكثر، ومما يُميِّز هذه الرابطة هو وجود مدرسة لتعليم القراءة والكتابة للأميّين من الكبار ووجود مكتبة (وهي مكتبة الأستاذ محمد جواد جلال) التي تضم أكثر من ألفي كتاب في اللغة والأدب والفلسفة وغيرها [2] .

(1) المنطلقات الثقافية والفكرية للمربي والمفكر الأديب محمد جواد جلال ، د. جعفر عبدالدائم المنصور ، مجلة دراسات البصرة ، مركز دراسات البصرة والخليج العربي ، السلسلة رقم 1 لسنة 2014م : ص2 .

(2) يُنظر: علاء لازم العيسى، وعبير التوابل، وإحسان السامرائي: ص97؛ المنطلقات الثقافية: ص2-3 .

كان الأستاذ محمد جواد جلال ((يُجيد اللغة الإنكليزية والفارسية وشيئاً من الفرنسية وكان قد نَشَرَ سلسلة مقالات في جريدة المنار للأستاذ عبدالعزيز بركات بعنوان (المرأة في الإسلام)، ولكن لم يُذيّلها باسمه ووصل عددها الى عشرين مقالة))[1].

أما نتاج الرابطة الثقافية فقد تَمَثَّل في محاضرته الأولى وكانت عن (أدب القرآن) والتي طُبعت فيما بعد أي سنة 1955 بكراسٍ في إثنتين وأربعين صفحة ، والمحاضرة الثانية كانت له كذلك وهي عن (علوم القرآن)، وكانت أكثر عمقاً ودقة من الأولى [2] ، ومن منشورات الرابطة كذلك ديوان شعر للأستاذ كاظم مكي حسن (دموع التماسيح)، وكتاب (جزيرة الذهب) للأستاذ عبداللطيف الدليشي .

عند بلوغ الأستاذ محمد جواد جلال سن التقاعد طلب إحالته على التقاعد في عام 1963، ثم كُلِّفَ بإلقاء المحاضرات على طلبة جامعة البصرة – كلية الآداب – قسم اللغة العربية عند تأسيس جامعة البصرة عام 1964، وكانت السيدة نازك الملائكة رئيسةً لقسم اللغة العربية آنذاك، واستمر وجوده في الجامعة سنة واحدة فقط [3] .

أما عن سبب قِلّة نتاجه العلمي ؛ فهو لا يعود الى إمكانياته، بل على العكس من ذلك فهو دائم الكتابة والنشر ، ولكن المشكلة تكمن في أنه كان يرتجل محاضراته العلمية والأدبية، ولم يحتفظ بنسخٍ مكتوبة، مما جَعَلَ مؤلفاته وكتاباته نادرة جداً [4] . وسبب آخر مهم وهو ((تَعرُّض داره للقصف خلال الحرب العراقية الإيرانية في عقد الثمانينيات، فقد تَلَفَ الجزءُ الأكبر من مكتبته ولذلك لم يصل إلينا مما

---

(1) صحيفة الأضواء ، علاء لازم العيسى .

(2) يُنظر : المنطلقات الثقافية والفكرية : ص3 .

(3) يُنظر : المصدر نفسه : ص27 .

(4) يُنظر : مقالة جبار الجويبراوي – محمد جواد جلال وأثره في الحركة الأدبية في العمارة والبصرة ، مجلة طب وثقافة ، العمارة العدد 3 تشرين الثاني سنة 1997 .

كتب))[1] إلاّ القليل منه ، وسببٌ ثالث هو عدم وجود أرشيف وطني في البصرة يمكن الرجوع إليه ، فقد اندثر الكثير من الصُّحُف والمَجلَّات القديمة ولم يُعَد لها وجود حتى يتم الرجوع إليها . وكذلك المكتبات الشخصية والحكومية .

بعد عمرٍ تجاوز الثمانين سنة توفيّ الأستاذ محمد جواد جلال في يوم ((11/ 9/ 1983، ولما كانت البصرة تمر بأحداث الحرب العراقية الإيرانية لم يحضر جنازته إلاّ ثلاثة أشخاص هم ولده نزار وصديقه عبدالرزاق أحمد وإمام جامع الهدى في البصرة المغفور له السّيد حامد السويج الذي أدّى الصلاة على جنازته ولم تجرِ له مراسيم التشييع))[2] . رحمهُ الله تعالى فقد كان طيب القلب عفيفَ اللسان مُحبّاً للناس.

آثاره:

1 – كُتيب أدب القرآن (وهو في الأصل محاضرة ألقاها في الرابطة الثقافية)، طُبعت في مطبعة الأديب في البصرة سنة 1955 .

2 – كُتيب علوم القرآن (وهو في الأصل محاضرة ألقاها في الرابطة الثقافية)، وطُبعت في مطبعة حداد في البصرة .

3 – فلسفة الإمام (كتاب درس فيه فكر الإمام علي (ع) في مسائل ما وراء الطبيعة)، طُبِعَ في النجف في مطبعة الراعي سنة 1952 في (151) صفحة وهو في جزءٍ واحد وليس في جزئين كما ذكر الأستاذ إحسان السامرائي [3] .

4 – مقال (احتكار العلم) نشرته صحيفة الفرزدق الاسبوعية الصادرة في العمارة يوم 8/ 12/ 1942.

---

(1) يُنظر : المنطلقات الثقافية والفكرية : ص27 .

(2) المنطلقات الثقافية : ص27 .

(3) يُنظر : عبير التوابل : ص97 .

5- مقال (طلب العلم قديماً وحديثاً) نشرته جريدة الفرزدق يوم 1/ 12/ 1942 .

6- مقال (المحاكاة وأثرها في الحياة) مجلة الإعتدال النجفية ، العدد 4 السنة 3 أيلول سنة 1935 ص233-235 .

7- مقال (حاجتنا الى منطق مُجَرَّد) مجلة الإعتدال النجفية العدد5 السنة 3 تشرين الأول سنة 1935 ص269-272 .

8- مقال (لغة الدين ولغة العلم) القسم الأول نشرته مجلة الإعتدال النجفية العد 9 سنة 3 شباط سنة 1936 ص525-528 .

9- مقال (لغة الدين ولغة العلم) القسم الثاني نشرته مجلة الإعتدال العدد 10 السنة 3 نيسان سنة 1936 ص581-584 .

10- مقال (الغاية والواسطة) نشرته مجلة الإعتدال النجفية العدد 1 السنة 4 كانون الأول سنة 1936 ص 30/ 34 .

11-مقال (مذهب التناسخ) القسم الأول نشرته مجلة الجيل الأسبوعية في العمارة العدد 1 السنة الأولى يوم 19/ 3/ 1946 .

12- مقال (مذهب التناسخ) القسم الثاني نشرته مجلة الجيل الاسبوعية في العمارة العدد 2 السنة الأولى يوم 8/ 4/ 1946 .

13- مقال (المرأة في الإسلام) مجموعة مقالات نشرها في صحيفة المنار البصرية التي كانت تصدر في أوائل الستينيات، وهي مقالات وليست كتاب كما ذكر الأستاذ إحسان السامرائي[1].

14- مقال (نظرية الأوساط لأرسطو) نشره في جريدة الجامعة (البصرة) العدد 28 يوم 3/ 4/ 1965 .

(1) يُنظر : المصدر السابق : ص97 .

15- (حديث في الفن) مقال نشره في جريدة صوت البصرة الأسبوعية العدد 47 في 6/ 8/ 1965.

16- مقال (أسس السّلوك عند الصوفية) نشره في جريدة صوت البصرة الاسبوعية العدد 57 في 16/ 11/ 1965 .

17- التجارة بنظرةٍ دينية . مجلة التاجر التي تصدر عن غرفة تجارة البصرة ، كانون الأول ، العدد 13 ، السنة الثانية سنة 1968 .

18- ديوان شعر مخطوط .

19- مقال (الصائم الثائر) غير منشور .

20- مقال (طريق البكاء) غير منشور .

21- مقال (العزّة القومية) غير منشور .

22- مقال (معارضات ومعروضات) غير منشور .

(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

أدب القرآن

المقدمة:

هذه محاضرة كانت قد أُلقيت مَرَّتين أحداهما في منتدى النشر ، والثانية في الرابطة الثقافية وكان ألقاؤها أول مرة في أن يطلب مَنْ استمع إليها إلقاءها ثانيةً ، ، ولَعلَّ من استمع إليها مَرةً أو مرتين لم يكتفِ بذلك حتى صار يطلب إليّ ويلح في هذا الطلب أن أبعث بها الى المطبعة ، وأن أنشرها وحدها في كتاب ، ليكون نفعها أتم ، وفائدتها أشمل وأعم ، ورأيت أن أُوكِل أمر نشرها الى الرابطة الثقافية فقبلت ، وأَخذتْ على عاتقها أمر الطبع والنشر: وها هي الآن تُقدِّم الى أعضائها الكرام ، والجمهور الكريم، ثاني منشوراتها بعد أن قدَّمت لهم (دموع التماسيح) وهي إذ تُقدِّم لهم هذه المحاضرة نرجو أن تكون قد وفِقَتْ لأنْ تضع في بناء الثقافة العربية الإسلامية لبنةً واحدة ربما كانت من خير اللبن وأفضلها ، وأكثرها قوة ومتانة لأنها تقوم على (أدب القرآن)، ذلك الأدب الذي جاء للناس جديداً في كل شأن من شؤونه: جديداً في لفظه وأسلوبه ، وجديداً في معناه وتصويره ، وجديداً في مقاصده ومراميه ، وجديداً فيما شَرَّع للناس من دين ، ونَهَجَ لهم من سنن ، وأقام لهم من مُثلٍ عُليا في العقيدة والخلق ونظام الحياة .

وأدب القرآن أدبٌ خِصب كان له في اللغة العربية أثره المحمود ، وجماله الفني الرائع الذي لبست به العربية حُلةً قشيبة لا عَهَدَ لها بمثلها من قبل: وَحَدَّ لهجاتها ، وهَذَّبَ ألفاظها وأساليبها ، وَوَسَّع نطاقها وحفظها من الإنقراض وأحدَثَ كثيراً من العلوم اللغوية والشرعية ، وأصبحت بفضله لغة الملايين من أمم الشرق والغرب ، ولعلَّنا لا نذهب بعيداً إذا قلنا أن هذا الأدب هو المعجزة الإسلامية الخالدة التي ستبقى ما بَقيَ الدهر والحياة .

ولقد كُنتُ قد عقدت النية على أن ألقي عدة محاضرات عن القرآن كل منها يتناول ناحيةً واحدةً من نواحيه الكثيرة المُتشعِّبة، ولكن الفرص لم تكن مواتية، بحيث لم استطع إلّا أن ألقي منها سوى محاضرتين إثنتين إحداهما في (أدب القرآن)، والثانية في (علوم القرآن)، وَلعَلَّ الزمن بعد هذا يتيح فرصة الكلام في نواحٍ أخرى من القرآن نتناول منه ما نرجو أن يكون فيه للثقافة العربية أعظم الآثار. وأحسن الفوائد والله الموفق .

البصرة 9-3-1955 .

محمد جواد جلال

رئيس الرابطة الثقافية في البصرة

أدب القرآن

تمهيد:

أيها السادة المحترمون:

إني بلسان الهيئة الإدارية لفرع منتدى النشر في هذا البلد أشكركم جزيلَ الشكر على تفضلكم بحضور هذا الاجتماع، كما أشكر الهيئة نفسها إذ هيأت لي هذه الفرصة السعيدة فرصة الإجتماع بحضراتكم لاستماع المحاضرة الأولى من المحاضرات التي عَزَمَتْ الهيئة على أن تنفع بها منتسبيها بين حينٍ وآخر . والهيئة الإدارية – سَدَّد اللهُ خطاها – ما فَتِئتْ تبتكر في شتى الوسائل التي تمكّنها من القيام بما يجب أن تقوم به من خدمة الدين ونشر الأدب وبث الثقافة ، وأنها إذ تنتهز فرصة حلول هذا الشهر المبارك، تقوم ببعض الواجب، معتمدةً على الله أولاً، وعلى مؤازرتكم ثانياً، وعسى أن تجد فيكم مَنْ يشد أزرها، ويُمهِّد لها سبيل عملها.

سادتي – (هذا هو شهر رمضان الذي أُنزِل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) . وقد أحببت في هذه الليلة أن أُحدِّثكم عن هذا القرآن المعلوم المجهول ، وليس بخافٍ عليكم أن ليس بيننا كتاب نعرفه مثل القرآن كما ليس بيننا كتاب نجهله مثله، فهو من حيث كونه قريباً من متناول أبصارنا وأسماعنا وأيدينا أعرف المعارف، وهو من حيث كونه بعيداً عن عملنا أنكر النكرات .

إننا نتعلَّم القرآنَ في صبانا ونَدَّخرهُ في بيوتنا ومنازلنا ونصطحبه في أسفارنا ورحلاتنا وننقش بآياته الكريمة قبب مراقدنا ومعابدنا، وقد نتخذ منه رُقىً وتعاويذ نُرقّي بها أطفالنا ومرضانا، ونحن أيضاً نتلوه أو نَستَمع إليه في شتى مناسبات أفراحنا وأحزاننا . نفعل هذا كله وليس بيننا مَنْ عَرَفَ القرآن حَقَّ معرفته وقَدَّره حَقَّ قدره وأصاب منه ما ينبغي أن يصيبه كل ذي دين من كتابه المقدس، وما ذلك إلاّ لأننا قد بعدنا عن القرآن أو لأنه قد بَعُدَ عنا فهو لعمر الحق بحر خضم لا يبلغ مداه ولا يَسبِر غورَه ولا في استطاعة أحد أن يظفر بشيءٍ من نفائس فرائده المكنونة .

والكلام عن القرآن طويلٌ عريض ليس في الإمكان اختصاره وايجازه لأنّ في القرآن جهات عديدة كلها جديرة بالبحث والدرس وكُلُّها خليق بالتأمل والنظر ففي القرآن بيان وقصص وفي القرآن مواعظ وعِبر وفي القرآن مُثُل وحكمة وفي القرآن وعدٌ ووعيد وفي القرآن تعليم وتشريع وفي القرآن أدبٌ جَمٌ رفيع عَجَزَتْ الألسن عن أن تصفه وكَلَّت الأفهام عن أن تقف على سِرِّ جماله .

وليس في استطاعتي في هذه الوقفة القصيرة أن اتَحدَّث إليكم عن كل هذا، ولو أردت ذلك لَعَيَّ اللسانُ وقَصُرَ البيان وطال الزمان، ولكنني سأتحدَّث إليكم عن (أدب القرآن) هذا الأدب الذي هو ملء السَمعِ والقلب ومتعة النفس والعقل هذا الأدب الذي سَمَعَتْه قريش فَظَنَّته شعراً وأصغت إليه كُهانُها فحسبته سحراً وآمن به مَنْ آمن فاتخذ منه تبصرةً وذكرى . وأود أن تعلموا – أيّها السادة المحترمون – أنَّ لنا في دراسة هذا الأدب خير

الوسائل لتغذية العقل وتربية الوجدان وتهذيب النفس، ومَنْ أولى منا – معاشر المسلمين – ؟ بهذا الأدب الرفيع نغترف من معينه، ونأخذ من فيضه لتعمر قلوبنا وتصفو ضمائرنا.

والكلام عن القرآن يتناول ناحيتين: أولاهما تَتَعلَّق بلغته وأسلوبه، وثانيتهما تَتَعلَّق بأغراضه ومقاصده ولَعلِّي أُوفَق للتَحدُّث إليكم عن هاتين الناحيتين كِلتيهما إنْ شاء الله.

لغة القرآن:

ليس هناك مَنْ يشك في أن القرآن كتابٌ عربي مُبين نَزَلَ بلغة العرب وجاء بلسان سكان الجزيرة التي تمتد شمالاً الى جبال طوروس، وجنوباً الى المُحيط. ولكن اللغة العربية لم تكن واحدة في العصور التي سبقت الإسلام بل وفي العصر الذي قارب الإسلام أو قارنه، إذ كان لكل بيئة لغتها ولكل قبيلة لهجتُها، وكانت لغةُ الشمال غيرَ لغة الجنوب، والى ذلك يُشير أبو عمرو بن العلاء بقوله: تالله ما لغة حِمير بلغتنا ولا لسانهم بلساننا . وإذا كان الأمر كذلك فبأي لغة نزل القرآن وبأي لسانٍ جاء؟

لا شك أنه جاء بلغة قريش ولكن هل كان نزول القرآن مقصوراً على خطاب قريش وحدها دون سائر العرب؟

والجواب على هذا أنّ لغة قريش كانت تسود بلاد الجزيرة وتسيطر على لغات أهلها، فكان طبيعياً أن ينزل بها القرآن الكريم . أمّا أسباب هذه السيادة . فمرجعها الى أن بلد قريش (مكة) كان مَحَّجاً لقبائل العرب يفدون إليه في كل عام من كل فّجٍ عميق وواد سحيق يزورون أصنامهم ويقرّبون إليها القرابين والنذور . وكانوا يعقدون لهم قبل الحج وبعده مجالسَ سمرٍ وأنديةَ لهوٍ وأسواق أدب ليتنافسون فيها بما وهبوا من براعة قول وبلاغة حجة وفصاحة منطق، وكانت تلك اللغات تمد أصحابها بخير ما فيها وتواتيهم بأحسن ما تحتوي عليه من لفظٍ جزل وكلمٍ فصيح وتركيبٍ سهل، وكانت قريش ترهف

أسماعها الى تلك اللغات المختلفة واللهجات المتباينة . فاختارت لها منها هي خلاصة ما في هذه اللغات لغة امتازت بالجزالة والسهولة وجمال التعبير ولمكانة قريش بين العرب وسيادتها الدينية والإقتصادية استطاعت أن تفرض لغتها على القبائل العربية كافة . وترغمها على النطق بها وآثرت هذه القبائل اللغة القريشية ليُسرها وعذوبتها وكونها لغة القبيلة التي يَحجّون إليها ويجتمعون في بلدها كل عام . وبهذا تَمَّ لهذه اللغة أن تسود لغات الجزيرة وتسيطر على ألسنة أهلها، ووفِقَتْ لأنْ تهزم بعد هذا اختها الحِميرية في الجنوب، وتهيأت عندئذ لأن ينزل بها القرآن الكريم .

لكن مرونة القرآن أَبتْ إلّا أن لا يكون لبعض لغات القبائل الأخرى نصيبٌ فيه. فقد وجد الباحثون في لغة القرآن أنّ هناك ألفاظاً جاءت فيه من لغاتٍ عربية غير قريشية منها: (أرائك) أي أسرّة و(سامدون) أي ساهون و(معاذير) أي ستور و(زَوَّج) أي (نكح) و(اللهو) بمعنى المرأة و(نَقَّبوا) بمعنى هربوا و(المسطور) أي المكتوب وهذه من اللغة اليمنية . ومنها (بعل) بمعنى ربّ و(شِية) بمعنى وضح و (أمة) بمعنى سنين (وتعضلوهنَّ) أي تَحبسوهنَّ و(الرّس) بمعنى (البئر) و(غِسلين) بمعنى الحار و(لوَّاحة) بمعنى حَرّاقة . وهذه من لغة أزدشنوءة، ومنها (الوِزر) أي ولد الولد و (الرجز) بمعنى العذاب و (شروا) بمعنى باعوا و(آناء الليل) أي ساعاته وفورهم أي وجههم و(مِدرار) بمعنى متتابع و (عِيلة) بمعنى فاقة و(أفروا) أي بمعنى اغزوا و(السّائحون) بمعنى الصائمون و(دلوك الشمس) أي زوالها و(شاكلته) بمعنى ناحيته و(رجم) بمعنى ظَنَّ و(مُلتَحد) بمعنى ملجأ و(الأجداث) بمعنى القبور و (ثاقب) بمعنى مضيء و(دُسُر) بمعنى (مسامير) و (مَسغَبة) بمعنى مجاعة وهذه من لغة هذيل. ومنها ييأس بمعنى يعلم و(يفتنكم) بمعنى يضلكم في لغة هوازن . ومنها: (بور) بمعنى هلكى في لغة عُمان، ومنها (بليت) بمعنى ينقص بلغة عبس . ومنها- السُفهاء - بمعنى الجُهّال و-خاسئين – صاغرين ومُعجزِين بمعنى (سابقين) والموئِل بمعنى (الملجأ)

وُمبلِسون بمعنى (آيسون) والخرّاصون بمعنى (الكذابون) والأسفار بمعنى (الكتب) وأقتت بمعنى (جَمَعَتْ) وكنود بمعنى (كفور) . وهذه في لغة كنانة . ومنها الفشل بمعنى (الجبن) وزَيّلنا بمعنى (مَيزنا) وعتيا بمعنى (نحولاً) والصرح بمعنى (البيت) وأنكر الأصوات أي أقبحها (ويتركم) أي ينقصكم ورابية بمعنى (شديدة) . وهذه في لغة حِميَر ومنها كدأب بمعنى (كأشباه) وتَعولوا بمعنى (تميلوا) وشرِّد بمعنى (نَكِّل) وعصيب بمعنى (شديد) وحدب بمعنى (جانب) والخلال بمعنى (السحاب) والوَدَق بمعنى (المطر) وربع بمعنى (المحل المرتفع) ويَنسِلون بمعنى (يخرجون) وسور بمعنى (الحائط) وهذه في لغة جُرهم . ومنها مقيت بمعنى (مقتدر) والوصيد بمعنى (الفناء) والخرطوم بمعنى (الأنف) والحقب بمعنى (الدهر) وهذه في لغة مِذحَج ومنها: تَسيمون أي ترعون ومريج بمعنى (منتشر) وصفت بمعنى(مالت) وشطط بمعنى (كذب) وهذه في لغة خثعم . ومِنها: نِحلة بمعنى (فريضة) وحرج بمعنى (ضَيِّق) و(صياصيهم) بمعنى حصونهم و (تحبرون) بمعنى تنعمون و (رجيم) بمعنى مَلعُون وهذه في لغة قيس عيلان ومنها (حَفدة) بمعنى اختان و(كل) بمعنى عِيال في لغة سعد العشيرة ومنها (فجاج) بمعنى (طرق) وتبتئس بمعنى (تحزن) في لغة كندة، ومنها (ربيون) بمعنى رجال و(دمرنا) بمعنى أهلكنا و (لغوب) بمعنى إعياء و(منسأته) بمعنى (عصاه) في لغة حَضر مَوت . ومنها (لا تغلوا) أي لا تزيدوا في لغة مزينة . ومنها (إملاق) بمعنى (جوع) في لغة لخم . ومنها (فجاسوا) أي فَتَخلَّلوا في لغةِ جذام ومنها (الجناح) بمعنى (اليد) في لغة حنيفة ومنها (حصرت) بمعنى (ضاقت) في لغة اليمامة، ومنها (تبرنا) أي أهلكنا في لغة سبأ، ومنها (نكص) اي (رجع) في لغة سُليم . ومنها (الصاعقة) أي الموت في لغة عِمارة.

هذا سادتي ما حَضَرَ في ذهني الآن من الألفاظ التي جاءت في القرآن من لغاتٍ عربية ليست بقرشية، وهي في أغلب الظنِّ تنيف على المائة . ويرى الباحثون في لغة القرآن أن فيه ألفاظاً جاءت من أصول أعجميةٍ منها (أباريق) بمعنى أكواز و(إستبرق) بمعنى

(الحرير) و(سجِّيل) بمعنى (الطين) المُتحجِّر و(الكافور) وهو نبت طيب و(كنز) بمعنى المال و (مسك) ونوع من الطِيب وكل هذه جاءت من اللغة الفارسية . ومنها (أواب) أي المُسبِّح و(الجبت) بمعنى الشيطان و (حوب) بمعنى إثم و (قَسوَرة) بمعنى أسد و (كِفلين) بمعنى ضعفين و (المِشكاة) بمعنى الكُوَّة و(المُهل) بمعنى الزيت و (ناشئة الليل) بمعنى (قيام الليل) و(يَصدُّون) بمعنى (يَضجوُّن) . وهذه من اللغة الحبشية . ومنها (الأصر) بمعنى (العهد) و(القَطّ) بمعنى (الكتاب) . وهذا من اللغة النبطية . ومنها (الرقيم) بمعنى اللوح والكتاب و (السراط) بمعنى الطريق و(الفردوس) بمعنى البُستان و (القرطاس) بمعنى الورق و(القسطاس) بمعنى المِيزان . وهذه من اللغة الرُّومية، ومنها (الطّور) بمعنى الجبل و(اليَّم) بمعنى البحر وهذان من اللغة السّريانية .

وكثيراً ما يَردُ هنا اعتراض مَنْ يُريد الطَعن في عروبة القرآن فيقول: إذا كان القرآن: ((قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ)) فما معنى وجود هذه الألفاظ فيه؟ وهل هناك ضرورة مُلحَّة لاستعمالها؟ والجواب على ذلك أن جنسية الألفاظ كجنسية الأفراد مرجعها العرض لا الجوهر، فلو أن إنساناً أعجمياً أُدخِلَ بلاد العرب صغيراً فلم يعرف إلاّ لغتهم وتقاليدهم ولم يدن إلاّ بدينهم وأخلاقهم أصبح واحداً منهم ولم يشك أحدٌ في أنه عربي صميم، أما الدم العنصري فلم يُعد له شأنٌ يذكر فالناس كُلُّهم نُسِلوا من أبٍ واحدٍ وأمٍ واحدة وإنما ميزتهم أجناساً، هذه الأعراض المكانية من لغةٍ ودين وأخلاق وتقاليد . والألفاظ في جميع اللغات إنما تألفت من هذه الحروف الهجائية المحدودة، ولكن خضوع بعضها لقواعد لغةٍ معلومة هو السبب الحقيقي لنسبتها الى تلك اللغة دون سواها، فالألفاظ التي جاءت في القرآن من أصولٍ أعجمية لم تُعَد في الحقيقة أعجمية بعد خضوعها لقواعد لغة العرب ودخولها في شعرهم ونثرهم فهي الآن مَصوغَة في قوالب و أوزانٍ عربية ، وهي تُعرَّف وتُنكَّر وتُثّنَى وتُجمَع وتُؤنَّث وتُعرَّب وتُصغَّر ويُنسَب إليها

وفقاً لقواعد النحو والصرف العربيين. فليس في شك في أنها أصبحت عربية إذ ليس هناك لغة مُستَقِلَّة في وجودها عن اللغات الأخرى، بعد أن ثَبُتَ أنّ اللغات قد تَفرَّع بعضُها عن بعضٍ ونشأت كُلُّها من أصلٍ واحدٍ .

اسلوب القرآن

نَنتَقِل بعد هذا – سادتي – الى التحدّث إليكم عن أسلوب القرآن هذا الاسلوب الذي يسترعي أسماعنا ببلاغتهِ ويستهوي قلوبنا بجماله . هذا الاسلوب الذي يقول فيه الوليد بن المُغيرة وهو كافرٌ به " إنّ فيه لحلاوة وأنّ عليه لطلاوة وأنّ أعلاه لمُورِق وأنّ أسفله لمُغدِق، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه . ولجمال هذا الاسلوب وقع الإختلاف فيه، فقائل إنه من الشعر وقائل إنه من النثر ويرى الدكتور طه حسين بك الكاتب المصري الشهير إنّ قسمة الكلام العربي ثلاثية وليست ثنائية فالكلام العربي عنده شعر ونثر وقرآن، فهو يرى أنّ القرآن قسمٌ قائم بذاته لاهو بالشعر ولا هو بالنثر .

والقرآن منه مكّيٌ ومنه مدني وفي تحديد مَكيّه ومدنيه ثلاثة أقوال:

1- إنّ المكي ما نَزَلَ بمكة والمدني ما نَزَلَ بالمدينة .

2- إنّ المكي ما نَزَلَ قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها

3- إنّ المكي ما خُوطِبَ به أهل مكة والمدني ما خُوطِبَ به أهل المدينة .

ومهما يكن من شي فليس يعنينا ترجح بعض هذه الآراء على سواه وإنما الذي يهمنا هو معرفة أنَّ القرآن منه مكي ومنه مدني، وأنَّ لكل من هذين أسلوبَه الخاص .

كانت مُهمة السور المَكَّية أنْ تلفت الأنظار وتستهوي النفوس الى هذا الدين الجديد، وكان موقف الرسول (ص) منه موقف الداعي المُتحمِّس لمبدأ روحي يرى من الواجب عليه إعلانه والجهاد في سبيله . لذا كانت الصور المَكيَّة أقرب الى الاسلوب الخطابي وأشد انقضاضاً على المقاومين فهي في الغالب أشبه بحملات نارية شديدة يجري فيها الكلام

قوياً عظيم الوقع في النفوس شديد الأثر في القلوب. لذا كانت السور المكية تمتاز بأمورٍ منها:

1- قِصر الجمل والفواصل وغلبة التسجيع كما في سورة العاديات: ((وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً)) وكما في سورة الفجر: ((وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ* هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ)) .

كثرة الأقسام (جمع قَسَم) والقَسَم أداة من أدوات التوكيد يفتقر إليه الاسلوب الخطابي لإقامة الحجة واقناع الخصم المعارض، والأقسام ترد كثيرة في سور القرآن المكية كما في سورة الشمس: ((وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)) وكما في سورة التين: ((وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)) ، وكما في سورة البروج : ((وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)) ، وكما في سورة الليل: ((وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى)) ومثلها سورة الطارق وسورة العاديات وسورة الفجر وسورة المرسلات وسورة النجم، وغيرها كل هذه تستهل بالقسم .

2- تصدير بعض الجمل والآيات بـ(إذا) الشرطية غير الجازمة وهي كما يقول النحاة: ظرف لما يُستَقبَل من الزمان، وترد في صدور بعض الآيات عندما يُراد الإشارة الى ما في يوم القيامة من أهوال وانقلابات كما في سورة الانفطار: ((إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)) وكما في سورة الانشقاق: ((إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)) وكما في سورة التكوير: ((إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا

الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)) وقد يُحذَف هنا جواب الشرط ليكون الكلام أبلغ في التهويل وجعل المخاطَب مُصغياً مُنتظراً النتيجة كما في قوله: ((فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ)).

3- الاستفهام وكثيراً ما يأتي للتقرير والإذكار كما في سورة الواقعة: ((أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ)) وكما في سورة العَلَق: ((أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَّ يَرَى)) .

4- التكرير وهو أحد أدوات التوكيد ويأتي في القرآن حسن الوقع بليغ التأثير وقد يُقرَن بـ(ما) الاستفهامية كما في: ((الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)) وسورة القارعة: ((الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ))، وأظهر مواضع التكرير سورة الرحمن إذ تتكرر فيها آية: ((فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)) وسورة القمر إذ تَتكرَّر فيها آية: ((وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)) وسورة المُرسَلات إذ تَتكرَّر فيها آية: ((وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)).

5- سادتي هذا أهم خصائص الاسلوب المَكّي فلنستمع الى بعضِ آيات من السور المكية لنرى هذه الحقائق واضحة جلية لا غموضَ فيها ولا إبهام . من سورة المعارج: ((كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى * إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)) ومن سورة المرسلات:

((إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ * فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً * أَحْيَاء وَأَمْوَاتاً * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً * وَيْلٌ يوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)) . ومن سورة الحاقّة: ((يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ)).

ولنستمع الآن سادتي الى طرفٍ من الآيات المدنية وأنا على يقينٍ من أنكم ستجدون الفرق واضحاً بين الاسلوبين .

من سورة الحجرات المدنية: ((وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا

خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ)) .

كيف رأيتم سادتي هذا الاسلوب؟ إنه يختلف كثيراً عن سابقه . هذا الاسلوب يجري هادئاً ساكناً تطول فيه الفواصل وترتبط فيه الجمل ارتباطاً وثيقاً وتتسابق فيه العبارات على المعنى الواحد ويقل فيه التسجيع الذي رأيناه شائعاً في السور المكية فهو إذن أشبه بالاسلوب التعليمي لا الخطابي لأنَّ مهمة النبي (ص) في المدينة هي مهمة المُعلِّم المُرشِد الناصح الشارع الذي يُشرِّع للمسلمين ما يفتقرون إليه من نظام تصلح به أُولاهم وأُخراهم وأننا إذا جاز لنا أن نُمثِّل الاسلوب المكي بالسيل المُنحَدِر من قمم الجبال الرواسي يَحطُّ الجوامد ويُفتِّت الصخور ويكتسح ما أمامه من حصى ورمال ونبات وحيوان، فإنه يجوز لنا أن نُمثّل الاسلوب المدني بالينبوع المتدفق يجري ماؤه سهلاً سلسلاً في المراعي الخصيبة المنبسطة .

الآن سادتي ننتقل الى الشطر الثاني من أدب القرآن وهو الأغراض والمقاصد بعد أن عرفتم أنّ مهمة النبي (ص) في المدينة تختلف عن مهمته في مكة فهو في هذه قائم بالدعوة الى الإيمان بالله وتوحيده ونبذ عبادة الأصنام تارةً عن طريق الترغيب، وتارةً عن طريق الترهيب، لذا كانت أغراض السور المكية ومقاصدها لا تعدو في الغالب هذه الأمور:

1 – الدعوة الى التوحيد والتبشير بالدين الجديد ويدخل مع ذلك في هذا نقد عبادة الأصنام وتسخيفها كما في سورة الكافرون: ((قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)) وكما في سورة النجم: ((أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا

أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى)).

2- ضرب الأمثال من قصص الماضين وأخبار الغابرين من أنبياءٍ وملوك وجبابرة ليكون من قصصهم عِبرة للمعتبرين كما في سورة الفيل: ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ)) وكما في سورة الشمس: ((كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)) وكما في سورة الفجر: ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)) .

وللقرآن في القصص أسلوبٌ غريبٌ ، كُنتُ أحِبُّ أن أفرد له محاضرة خاصة فهو يطول تارةً ويقصر تارةً أخرى، وأنّ القصة الواحدة لتأتي في القرآن بأساليب مختلفة كلها جميل وكلها جذّاب فلنستمعْ الى قصة موسى وفرعون كيف يوجزها القرآن بآياتٍ قليلة قِصار دون أن يغادر منها شيئاً قال: ((هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى* إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى* اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى* وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى* فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى* فَكَذَّبَ وَعَصَى* ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى* فَحَشَرَ فَنَادَى* فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى* فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى)) . فهذه يا سادتي كل حكاية موسى وفرعون من مبعث موسى بالنبوة الى هلاك عدوه فرعون .

3- نَقدَ أعمال المشركين والمنافقين وبيان ما يقترفون من جرائم وسيئات كما في سورة الماعون: ((أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ

الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)) وكما في سورة المسد: ((تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ)) وكما في سورة الهُمَزة: ((وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)) وكما في سورة التطفيف: ((وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)) .

4- وصف الآثار الكونية وما في الأرض من أنعام وزروع وأنهار وجبال وغير ذلك ليكون هذا دليلاً على قدرة الصانع الحكيم ووحدانيته ولطفه بعباده كما في سورة الملك: ((مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ)) وكما في سورة الغاشية: ((أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)) وكما في سورة ق: ((أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ *وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)).

5- وَصفْ يوم القيامة وتصوير الجنة والنار تصويراً يجمع بين الرغب والرهب وللقرآن براعة مُمتازة في تصوير هذه الأمور فهو لايذكر الجَنَّةَ إلاّ عقبها بذكر النار، ولا يصف المؤمنين الأبرار إلاّ ذكر الجاحدين الفجار كأنه يريد بذلك لفت الأنظار الى المقابلة بين مصير أؤلئك وهؤلاء يوم القيامة، وهو إذ يصف لنا يوم القيامة يُفزعُنا ويُخيفنا وإذ يصف لنا الجنة يُشوّقنا ويرغِبنا وإذ يصف لنا النار يحزننا ويكره بنا . ولنستمع الآن سادتي

. الى شيءٍ من الوصف الأخّاذ من سورة الواقعة وأولها في وصف القيامة قال: ((إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ))، وأظنكم تعجبون معي بهذا الطباق الجميل: خافضة رافعة أي خافضة للفجار رافعة للأبرار: ((إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً)) وفي استطاعتكم أن تَتَصَّوروا هولَ ذلك اليوم الذي تضطرب فيه الأرض وتَندَّكُ فيه الجبال فتصبح غباراً يَنبثُّ في الفضاء ثم ينتقل القرآن بعد ذلك الى تقسيم أهل المَحشَر الى ثلاثة أصناف فيقول: ((وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ))، وبعد هذا التقسيم يصف لنا منازل السابقين في الجَنّة والمُراد بالسابقين هم المُقرَّبون الذين قال عنهم في مكانٍ آخر أنهم يدخلون الجنة بدون حساب . قال: ((أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً * إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً)) ثم ينتقل بعد هذا الى وصف منازل أصحاب اليمين وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم فيقول: ((وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاء مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ)) ولا يفوت القرآن هنا أن يُعقِّب ذكر الفرش يذكر ما يُزيِّنها ويزيد بهجتها إذ يقول: ((إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ))، وينتقل بعد ذلك الى وصف أصحاب الشمال وهم الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم فيقول: ((وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)) وكان هناك مَنْ يقول: ما الذي اجترم هؤلاء حتى

استوجبوا هذا العذاب الأليم؟ وهلا وسعتهم رحمة الله التي وَسِعتْ كُلَّ شيء وكأن القرآن يُجيبُ على هذا الإعتراض فيقول: ((إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)) وأنكم أيّها السّادة – لتحسون في هذا الوصف قوة التعبير وشدة التأثير وحُسن الإيقاع وانسجام الكَلِم ورصفها رصفاً لا حشوَ فيه ولا تطويل أفلا يحق لقريش أن تقول في هذا: إنْ هو إلاّ سحرٌ مُبين إنه والله سحر البيان الذي أعجز أهل البيان وأخرس لسانَ كُلِّ ذي لسان

.

هذا – سادتي – أهم أغراض السوّر المكية فلننتقل بعد هذا الى أهم أغراض السوّر المَدنيّة بعد أن عَلِمْتم أن مهمة النبي (ص) في المدينة إنما هي مهمة الشارع الذي يضع شريعةً ينتهجونها بعد أن آمنوا برسالته وصدقوا دعوته لهذا كانت أغراض السوّر المدنيّة في الغالب في أمورٍ تعليمية شرعية منها:

1– شرع العبادات: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)) .

2– شرع المعاملات: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً ... إلخ)) .

3- شرع الجنايات: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)) .

4- شرع في الأخلاق: ((وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)) وفي مكانٍ آخر: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) .

والقرآن يُستدل به على أمورٍ عديدة إذ إنَّ:

- القائلون بأنّ القرآن كلام الله – ودليلهم على ذلك قوله: ((وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهّ)) وعلى النقيض منهم:
- القائلون بأنَّ القرآن كلام النبي – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ)) ومنهم:
- القائلون بأن الإسلام والإيمان واحد – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللهُّ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)) وعلى النقيض منهم:
- القائلون بإنّ الإسلام والإيمان متغايران – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)) ومنهم:
- القائلون بأنّ الله يكلف ما يطاق – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا)) وعلى النقيض منهم:
- القائلون بأنّ الله لا يكلف ما يطاق – ودليلهم على ذلك قوله تعالى:((وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ)) والمفروض أنهم كلفوا بالعدل ومنهم:

• القائلون بإمكان الشفاعة – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ)) وعلى النقيض منهم

• القائلون بعدم إمكانها – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ)) ومنهم:

• القائلون بإمكان عذاب القبر – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)) وعلى النقيض منهم:

• القائلون بعدم إمكانه – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً)) ومنهم:

• القائلون بأنّ المعدومَ شيئاً – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)) وعلى النقيض منهم:

• القائلون بأنّ المعدوم ليس شيء – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً)) ومنهم:

• القائلون بأنّ القرآن كُلَّهُ مُحكَم – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)) ومنهم:

• القائلون أنَّ القرآن كُلَّهُ مُتشابه – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً))، وهناك مَنْ يقول بأنّ القرآن منه مُحكَم ومنه متشابه ودليله على ذلك قوله تعالى: ((مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)) ومنهم:

• القائلون بأنَّ كلمات الله تنقضي – ودليلهم على ذلك: ((وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)) ومنهم:

• القائلون بأن كلمات الله لا تنقضي – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ)) .

- القائلون بأنَّ الأَنبياء يَتفاضَلون – ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)) وعلى النقيض منهم:
- القائلون بأنّ الأنبياء لا يتفاضلون– ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ((لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ)) .

ما هذا يا – سادتي –: أليس القرآن بحراً خَضِمّاً يُدلي فيه كل مَنْ يشاء دَلوَه فيعود عليه بما يشتهيه؟ أنني مُعجَبٌ بذلك كما أنكم معجبون ولكن أرجو ألاّ تتوهموا أن القرآن بهذا ينقض بعضه بعضاً . فالقرآن لم ينزل دفعة واحدة وليس هو موضوعاً واحداً مرتبط الأجزاء متصل الحركات، بل كان نزوله مُنجَّماً في أزمنةٍ مختلفة وأمكنة مختلة وأحوال مختلفة وعلى هذا قد يكون الخطاب في حالٍ مخصوصة غيره في حالٍ أخرى. وهذا هو سر وجود المتشابه في القرآن مضافاً الى ذلك أنّ القرآن فيه المُطلَق وفيه المُقيَّد وفيه العام وفيه الخاص وفيه المُجمَل وفيه المُفصَّل وفيه الناسخ وفيه المنسوخ وفيه المُحكَم وفيه المتشابه، كل هذه الأمور يجب درسها ومراعاتها عند التفسير . رجاء الوقوف على الحق . ولَعلَّ هذه الخصائص كانت من أهم العوامل التي مَكَّنَتْ العلماء من وضع علوم القرآن والعناية بدرسه وبحثه ولم يكن الاستدلال بالقرآن مقصوراً على أصحاب المقالات وحدهم بل هناك علماء اللغة والبلاغة والحكمة والطبيعية والفلك والفلسفة صاروا يَستَمدون بعضَ أدلتهم من القرآن فهناك مثلاً مَنْ يستدل بالقرآن على انفصال الأرض مَنْ الشمس من قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا)) وهناك مَنْ يَستدلُ بالقرآن على قِلَّةِ الضغط الجوي في الطبقات العليا من الهواء من قوله تعالى: ((وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء)) وهناك مَنْ يستدل بالقرآن على حركة الأرض من قوله تعالى: ((وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)) والدَحو هو الرمي أو القذف الذي يستلزم الحركة المحورية والقدماء يرون أنّ السماوات السبع في القرآن إشارة الى أفلاك بطليموس التي كانت معروفة في ذلك الوقت وأنّ الأرضين السبع إشارة الى الأقاليم السبعة التي تشير إليها الجغرافية القديمة ، وأنّ العرش إشارة الى فلك الثوابت والكرسي إشارة الى الفلك المحيط المُحدَد للجهات وأنّ

الملائكة إشارة الى العقول التي هي المحركات الشوقية للأفلاك وبعض أصحاب الكيمياء القديمة يستدل على كون حجر الفلاسفة (أو الإكسير) مأخوذاً من شَعر الآدميين من قوله تعالى: ((وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ)).

والخلاصة أنّ معالجةَ القرآن لكثيرٍ من الموضوعات العقلية والدينية والإجتماعية والكونية واتساع أفق التعبير فيه ، واحتواءه على كثيرٍ من المجاز والإستعارة والكناية كل هذا ساعَدَ على أن يجد فيه كل واحد من أولي الرأي ضالته المنشودة .

إعجاز القرآن

آمن المسلمون بأنّ القرآن معجزة النبي (ص) الكبرى الخالدة . فقد تَحدَّى القرآن العرب كافة وطلب إليهم المعارضة ولو بآية فعجزوا عن مباراته وقَصَّروا عن مجاراته . ولا تزال كتب الأدب والتأريخ تحدثنا عن أؤلئك الذين ضاقوا ذرعاً بأمر القرآن ودهشوا ببلاغته منهم الوليد بن المغيرة القائل ((إنّ فيه لحلاوة وأنّ عليه لطلاوة .... إلخ)) وقد مَرَّ ذكره . ومنهم أعرابية سمعت تلاوةَ قوله تعالى: ((وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)) فقالت: ما أفصحه جَمَعَ على إيجازه أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين وكان إيمان المسلمين بإعجازه في أول الأمر ساذجاً بسيطاً مصدره الاعتقاد بصحة دعوى النبي (ص) ولم يكن يفكر أحدهم في سر هذا الإعجاز حتى إذا توفر الناس على علوم الفلسفة والمنطق في صدر الدولة العباسية وظهر علم الكلام الذي حاول المعتزلة فيه تطبيق الشريعة على العقل والبرهنة على صحة العقائد الإسلامية بالأدلة العقلية وشاعت في الأوساط مقالات الزنادقة وأهل الشك والإلحاد ظهر من المسلمين وغيرهم ومَنْ يسأل عن سر إعجاز القرآن فذهب بعضهم الى القول بالصرفة، وهو قول لا يقنع أولئك الباحثين عن العلل العقلية المنطقية التي مرجعها الحس والوجدان وذهب معظم المسلمين الى أنَّ سر إعجاز القرآن هو هذه البلاغة الفائقة ولكن ما سر هذه البلاغة؟

أَليسَ القرآن كلاماً عربياً جاء بلغة العرب التي يتَضمَّنها شعرهم ونثرهم؟ فبماذا يمتاز القرآن إذن على غيره من الكلام العربي؟ هذه الأسئلة يُجيب عنها الباحثون عن أسرار بلاغة القرآن بأجوبةٍ شتى .

فأهل اللغة والمولعون بالبحث عن الألفاظ وأصولها واشتقاقها يرون أنَّ سر بلاغة القرآن منشؤه هذه الألفاظ السهلة الخفيفة التي خَلَتْ مما يخل بالفصاحة من تنافر حروف ومخالفة قياس وغرابة استعمال وكراهة سمع ٱ فألفاظ القرآن كُلُّها مُنتقاة من خير ما في العربية من كلمٍ طيب ولفظ عذب مستملح ويضربون لنا مثلاً على ذلك بإنسان طاف الأرض من أقصاها الى أقصاها وغاص في أعماق بحار العالم جميعها يبحث عن أنفس اللآلئ والجواهر وأغلى الأحجار الكريمة فلم ير نفيساً إلاّ اقتناه ولا فريداً إلاّ اصطفاه فكان له من هذا كله عقد فريد لا نظير له في أنحاء الدنيا وإذا كان القرآن قد انتقى من العربية خيرَ ما فيها فأي مجال يبقى لِمَنْ يحاول مجاراته ومباراته؟ مضافاً الى ذلك أنّ القرآن يستعمل الألفاظ في محالها الخاصة بها فتنتظم انتظاماً جميلاً وتكون بذلك غير قلقة ولا نافية فهو يقول: ((لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا)) ولم يقل صوتها لأنّ الحسيس صوت النار خاصة وهو يقول: ((وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ)) ولم يَقُلْ ولا تعوج لأن التصعير للخد خاصة، وهو يقول: ((اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ)) ولم يقل دنت الساعة كما يقول بعض الشعراء لأنّ الاقتراب خاص بالزمان بعكس الدنو الذي هو خاص بالمكان هذا هو سر بلاغة القرآن عند أهل اللغة .

وأهل المعاني الباحثون عن مقتضيات الأحوال والمقامات التي يرد فيها الكلام العربي مناسباً أو غيرَ مناسب يذهبون الى أنّ سرَّ بلاغة القرآن منشؤه هذه المطابقة بين الكلام والمقام . فالقرآن يُوجِزُ القول حيث يَحسُن الإيجاز ويطنب حيث يَحسُن الإطناب ٱ إنه يقول: ((وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)) فيأتي بهذا الإيجاز الغريب لأنه يخاطب أُولي الألباب وهم ممَنْ يكتفي بالإشارة وهو يقول: ((قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ

وَلِيَ دِينِ)) فيأتي بالكلام على صورة الإطناب لأنَّ الخطاب للكافرين الذين نزلهم منزلة مَنْ لا يفهم ولا يُدرِك الخطاب عن طريق الإيجاز .

ثم أنّ الذكر والحذف والتقديم والتأخير كل هذا يكون في القرآن مُطابقاً تمام المطابقة لمقتضيات الأحوال فمن الذكر والحذف قوله تعالى: ((وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً)) حذف الفاعل وبنى الفعل للمجهول فقال (أشر أُريد) ولم يَقل أراد الله تنزيها لإسم الله تعالى عن مقارنة ذكر الشر ثم ذكر الفاعل وبنى الفعل للمعلوم فقال (أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ) ولم يقل (أُريدَ بهم) تيمناً بذكر إسمه عند إرادة الرشد والخير . ومن التقديم والتأخير قوله تعالى: ((الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ)) وقوله تعالى: ((وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا)) بتقديم المؤنث على المذكر في الآية الأولى وتقديم المُذكّر على المؤنث في الآية الثانية لأنّ الزنى في النساء أشهر والسرقة في الرجال أظهر .

أما أصحاب البيان ، فيرون أنّ سرَّ بلاغة القرآن منشؤه هذه الأساليب المختلفة للمعنى الواحد فالقصة الواحدة: مثلاً تأتي في القرآن بأساليبَ مختلفة تطول تارةً وتقصر تارةً أخرى وكلها طريف جذّاب. ومن الأمثلة على إيراد المعنى الواحد بأساليب مختلفة أنّ القرآن يصف حَيرة الناس وذهولهم يوم المَحشَر فيأتي في كل سورة بأسلوبٍ مغاير لما يأتي به في السورة الأخرى ففي القارعة يقول: ((يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)) وفي عبس يقول: ((يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)) وفي طه يقول: ((وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً)) وفي الحج يقول: ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ)) هذا هو سرُّ بلاغة القرآن عند أصحاب البيان .

وأما أصحاب البديع فيرون أنّ سرَّ بلاغة القرآن ناشىءٌ مما فيه من مُحسِّناتٍ بديعية كالمُشاكلة والمزاوجة والسجع والافتتان والمجانسة والطباق وغيرها وهم يعجبون بهذه

الآية: ((وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)) يقولون أنها تحوي ثلاثة وعشرين نوعاً من البديع مع كونها لا تزيد على سبع عشرة لفظة .

وَذَهَبَ أصحابُ الأسرار والمُولعون بعلوم الغيب الى أنّ سرَّ بلاغة القرآن ناشىءٌ عمّا فيه من أسرار الغيب والمعاني الباطنة وعند هؤلاء أنّ للقرآن ظاهراً وباطناً .

أما الأوصاف فلها جمالُها إذ يقول عن الكلمة الخبيثة: ((وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ)) ومنها فيمن عندهم التوراة لا يفيدون منها شيئاً: ((مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)) ومنها في تصوير الدنيا: ((مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً)) ومنها فيمن يعبدون الأصنام من دون الله: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)) . فانظروا سادتي في هذا المثل كيف وصف الأصنام بالضَعف وبَالغَ في احتقارها ، فهذه الأصنام لضعفها وعجزها لا تستطيع أن تخلق أضعف المخلوقات وأوهنها وهو الذباب بل هي لاتستطيع أنْ تقاوم الذباب فيما إذا اعتدى عليها وسلبها شيئاً من مادتها ولعلكم تعجبون معي بهذا التذييل الجميل ((ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)) كيف أشار الى سخافة مَنْ يعبد هذه الأصناف الضعيفة العاجزة فكأنه بذلك يضرب على وترين هما: العقل الذي يحكم بضعف هذا المعبود وعجزه ، والوجدان الذي يسوق الإنسان الى ضرورة الأخذ بحكم العقل بترك هذه العبادة التي تَحطُّ من قيمة الإنسان العاقل .

لعلّي أيّها السادة – قد أمللتكم وأضجرتكم فقد طال مني الكلام كما طال بكم المقام فأكتفي بهذا القدر من البيان عن أدب هذا الكتاب العظيم والذِّكر الحكيم ولست أقول أني قد أصبت ووفيت ولا أدعي أني قد قلت في القرآن ما ينبغي أن يُقال وكُلُّ ما قلته لم

يكن إلاّ قبسة عجلان ومذقة شارب وحسبي أن أكون قد نَبَّهت على عظيم شأن القرآن وجليل قدره! القرآن الذي جهلنا أمره ونبذنا خيره ولعمري أنّه لعجيب أن يُقال فينا: مُسلِمون ونحن نقرأ القرآن فلا نَتدَّبره أو نَتَدبَّره فلا نعتبر به وليت القرآن قد سَلَمَ من شرورنا وآثامنا ، فلم نتخذه عِرضةً لأيماننا الكاذبة وذريعة لغاياتنا السافلة ، ولَعلَّ القرآن يلعننا إذا قرآناه ويَشَمِئز منا إذا مَسَسناه كيف لا وقد خبث منا النفوس وصدئت منا القلوب وانغمست منا الأبدان في حَمأة الرذيلة وغَطَّتْ على ضمائِرنا سحابةٌ من الشكِّ والرَيب واليأس القاتل فلو كُشِفَ عن أبصارنا لرأينا القرآن ينظر إلينا نظرات حمراء ملتهبة قائلاً اليكم عني ، يا هؤلاء لا تَمسُّوني بأنجاسكم ولا تلوثوني بآثامكم فإنما أنا قرآنٌ كريم في كتابٍ مكنون لا يَمسَّه إلاّ المُطهَّرون .

عفواً يا – سادتي – أني أَوشَكتُ أن انتقل من المحاضرة الى الخطابة على غير اختيار مني وما دفعني الى ذلك إلاّ ما أراه فينا من إمعان في الباطل ومَيل عن الجادَّة المُثلى وانحراف عن سواء السبيل والله أسأل أن يسدّدَ منا الخُطى ويُقيل العَثرات .

وفي الختام أبعث تحيتي الى صاحب الشرع الأقوم والفرقان الأعظم وعلى آله حملة القرآن وأصفياء الرّحمن . والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(2)

علومُ القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقدِّمة:

هذه هي المحاضرة الثانية التي أَلقيتُها في الرابطة الثقافية عن القرآن وكُنتُ قد أَلقيتُ قبلها محاضرةً بعنوان (أدب القرآن) تَكلَّمتُ فيها عن لغة القرآن ، وأسلوبه ، وأغراضه ، وعظمته ، والإحتجاج به ، وآراء المسلمين في سر إعجازه . أما في هذه المحاضرة فقد تناولت (علوم القرآن) فأشرتُ الى أثر القرآن الكريم في الحياة العقلية الإسلامية ؛ إذ كان سبباً قوياً لتدوين كثير من العلوم اللغوية والدينية التي لم يكن للعرب والمسلمين من قبل عهد بها ، وليس غريباً أن يكون القرآن عاملاً أساسياً من عوامل الثقافة العربية ، فقد جاء يرفع من شأن العلم والعلماء ويحضّ على المعرفة الصحيحة ويَحثُّ على التَبصُّر والرجوع الى العقل ، ويدعو الى التَفكُّر في خلق السّماوات والأرض؛ فاتخذه المسلمون من أجل ذلك دستورهم الأعظم ، وسراطهم الأقوم ، يرجعون إليه إذا تشابهت الحقائق ، واختلطت الأمور ؛ لأنهم اعتقدوا أنّ في القرآن تبيان كُلِّ شيء ، وتفصيل كل شيء ، فراحوا يبحثون فيه عن كُلِّ شيء من أمور دينهم ودنياهم ، وشؤون معاشهم ومعادهم ، واحتاجوا في ذلك الى شرحه وتفسيره وتدوين العلوم التي تعينهم على فهم حقائقه ومكنونات أسراره ؛ مثلهم في ذلك مثل الكيمياوي والباحث عن (حجر الفلاسفة) يجمع إليه أصناف المادة من الحيوان والنبات والجماد ، ثم يتناولها بالتقطير والتكليس والإذابة والإمهاء والتصعيد والقهر والصلابة ، وغير ذلك من التجارب الكثيرة ليفوز بالإكسير الذي يرجو من ورائه الخير الأعظم ، والغِنى الأكبر ثم يعود الى نفسه فإذا هو قد علِمَ شيئاً كثيراً من خواص المادة ، وأسرار الطبيعة ؛ والفضل في هذا كله يعود الى ذلك الإكسير المجهول !

كذلك كان شأن المسلمين مع القرآن ؛ فقد راحوا يبحثون عن سرّ إعجازه ؛ أهو في لفظه وأسلوبه ، أم في أغراضه ومقاصده؟ إنْ كان الأول فالرجوع إليه الى العلوم اللسانية ؛ وإن كان الثاني فالرجوع فيه الى العلوم الكونية .

ومهما يكن من شيء فقد وضِعَتْ أصول هذه العلوم بفضل القرآن ؛ وصار القرآن يَمدُّها من مادته التي لا تَفنى ، ويَفيضُ عليها من مَعينه الذي لا ينضب ؛ حتى استوت على سوقها ؛ وبقيت بأغصانها وفروعها ؛ واجتنى المسلمون منها ثمارَ معرفتهم ، وقطوفَ ثقافتهم ، فكان للغة نحوها وصرفها ، وبيانها وبديعها وتجويدها وأدبها ؛ وكان للدّين فقهه وفرائضه ، وكلامه ومناظراته ؛ وكان للطبيعة علومها الكاشفة عن أسرارها ، الناطقة بآثارها ، مما كان له أكبر الأثر في رُقي العقل البشري ، وتُقدّم الحضارة الإسلامية ... فسبحان الذي عَلَّمَ بالقلم ، عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم .

علوم القرآن

سادتي المحترمين:

لقد سبق لي أن ألقيتُ محاضرة بعنوان (أدب القرآن) تَكلَّمتُ فيها عن لغة القرآن وأسلوبه المكي والمدنيّ، وذكرت آراء العلماء والناقدين في سر إعجازه، وأشرت الى مواطن البلاغة فيه، وقد رأيت الليلة أن أحدثكم عن القرآن ولست أريد بهذه العلوم ما يعتقده الإشراقيون والمتصوفة والمُولعون بأسرار الغيب من أن القرآن يشتمل على علومٍ خفيةٍ، فقد زعموا أن في القرآن علمَ ما كان وما يكون، وما هو كائن الى يوم القيامة، وهم يَستدلُّون على ذلك بقول القرآن: (ما فرطنا في الكتاب من شيء ...)، كما يستدلون على ذلك بالسُنّة أيضاً، فقد رووا عن ابن عباس انه سمع رسول الله (ص) يقول: ((لو ضاع لأحدكم عقال بعيرة لوجده في القرآن)) وقد استنتجوا من هذا أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وأنّ ظاهره أنيق، وباطنه عميق، وأنّ هذا الباطن لا يعلمه إلاّ الله والراسخون في العلم .

ومن هؤلاء مَنْ ذهب الى أنّ الاسم الأعظم الذي مَنْ سأل به أُعطي، ومَنْ دعا به أُجيب – هذا الإسم يَتركَّب من الحروف الموجودة في أوائل السور مثل ألم و ألر وحم وطس وكهيعص: وأنّ هذا الاسم [1] كان مكتوباً على خاتم سليمان، وبه سَخَّرَ الجنّ وأُوتي بعرش بلقيس، وعلى عصا موسى وبه فلق البحر، وبهذا الاسم لَانَ الحديد لداوود (ع): وطُويت الأرض للخضر، وبه أحيا عيسى الأموات، وأَبرأَ الأَكمه والأَبرص . وقيل: إنّ رجلاً سأل الأولياء عن معنى كهيعص فأجابه: لو فَسرَّتها لك لمشيت على الماء .

وللرئيس أبي عليّ ابن سينا رسالة عجيبة في تفسير معاني الحروف التي في أوائل سور القرآن، فقد استطاع هذا الفيلسوف العظيم بذكائه وعبقريته أن يحسب هذه الحروف بحساب الجُمل الكبير ويستنتج منها دلالاتها على أقسام الوجود، كالأفلاك والعقول، والنفوس، والعناصر، والمواليد [2] .

والظاهر أنّ الرئيس كان يعتقد ما يعتقده رجال الغيب من أنّ القرآن له ظاهر وباطن، وأنّ في باطنه من كلمات الله ما: ((لوكان الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ)) [3] .

---

(1) أي الإسم الأعظم .

(2) انظر الرسالة النيروزية للشيخ الرئيس .

(3) جاء في الرسالة النيروزيه للشيخ الرئيس ما خلاصته :

أ- إنّ الموجودات خمسة هي واجب الوجود والعقل والنفس والهيولي والمادة .

ب- إنّ لكل من هذه الموجودات وجودين أحدهما باعتبار ذاته والآخر باعتبار غيره ويَنشَأ من الوجود الثاني أربعة أمور:

1- الإبداع من إضافة واجب الوجود الى العقل .

2- الأمر من إضافة واجب الوجود الى النفس .

3- الخلق من إضافة واجب الوجود الى الطبيعة .

4- التكوين من إضافة واجب الوجود الى المادة .

ج- يرمز للوجودات الأولى بالحروف (أ ب ج د) وللوجودات الثانية (هـ و ز ح) على الصورة الآتية :

وفي روايات الصّوفيّة عن ابن عباس أنّه قال: أخذ بيدي الإمام علي (ع) ليلةً فخرج بي الى البقيع، وقال: إقرأ يا ابن عباس، فقرأت بسم الله الرّحمن الرّحيم، فتكلّم الإمام في أسرار الباء الى بزوغ الفجر.

ورووا عن علي (ع) أيضاً أنّه: كان يقول إنَّ كُلَّ ما في القرآن في الفاتحة، وكل ما في الفاتحة في البَسمَلَة، وكُلُّ ما في البَسمَلَة في بائِها، وكل ما في الباء في النقطة التي تحت الباء.[1]

وعندي أنّ هذا الخبر ظاهر الوضع لأنّ الكتابة الخَطّية في عهد الإمام علي (ع) كانت مُهمَلة وليس فيها حرف مُعجَم، والظاهر أنّ إعجام بعض الحروف الهجائية جاء بعد عهد الإمام. ومن رواياتهم عن علي بن أبي طالب (ع) أيضاً أنّه قال ما من شيء إلاّ وعِلمُهُ في القرآن، ولكن عقول الرجال تَعجَز عنه.

ورووا عن علي (ع) أيضاً أنّه كان يقول في بعض خطبه:

الوجود الذاتي	الوجود الإضافي	
1- واجب الوجود	أ	هـ
2- العقل	ب	و
3- النفس	ج	ز
4- الطبيعة	د	ح

وتبقى (ط) رمزاً للهيولى لأنها غير مُضافة.

د- للدلالة على المعاني المذكورة في الفقرة (ب) يُرمَز بحرف يكون عدده مساوياً لحاصل ضرب الحرفين الدالين على الذات المُضافة والذات المضاف إليها وذلك مثل الحرف (ل) فإنّ معناه الإبداع لأنّ عدده يساوي حاصل ضرب (هـ) رمز واجب الوجود بالحرف (و) رمز العقل وكذلك الحرف (م) فإنّ معناه الخلق لأنّ عدده يساوي حاصل ضرب الحرف (هـ) رمز واجب الوجود بالحرف (ح) رمز الطبيعة وعلى هذا يكون معنى (ألم) قسماً واجب الوجود ذي الإبداع والخلق. وعلى هذا النمط يمضي الشيخ الرئيس في تفسير باقي الحروف التي في أوائل السور.

(1) أشار الى هذا المعنى عبدالباقي العمري وهو يصف قُبّة مرقد الإمام علي (ع) في النجف الأشرف فقال هي باءٌ مقلوبة فوق تلك ... النقطة المُستَحيلة التأويل.

ق والقرآن المجيد، كلماتٌ خَفيّات الأسرار، وعبارات جليات الآثار، ينابيع عوارف القلوب، من مشكاة لطائف الغيوب، لمحات العواقب، كالنجوم الثواقب، نهاية الفهوم، بداية العلوم، الحكمة ضالة كل حكيم، سبحان القديم، يفتح الكتاب، ويقرأ الجواب، يا أبا العباس، أَنتَ إمام الناس سبحان من يُحيي الأرضَ بعد موتها، ويرد الولايات الى بيوتها، يا منصور تَقدَّم الى بناء السور، ذلك تقدير العزيز العليم .

وأَكبرُ ظني أنّ هذه الخطبة موضوعة، فإنّ الشريف الرضي لم يذكرها في النهج، كما أني لم أَعثَر عليها في الكتب الموثوق بها ككتب الجاحظ مثلاً، وقد جاءت في كتاب (ينابيع المودة) للشيخ سليمان الحنفي البلخي، نقلها عن كتاب (الدرُّ المنظوم) للشيخ كمال الدين محمد بن طلحة الحلبي الشافعي، وكلاهما من رجال الصّوفيّة المُولَعين بالأسرار . ومَنْ يُنعم النظر في أسلوب الخطبة يجده أشبه بأساليب كلام الصّوفيّة منه بأسلوب كلام الإمام .

ولَعلَّها وضِعَتْ في عصرٍ متأخرٍ فإنّ فيها تبشيراً بقيام الدولة العبّاسّيّة . وتدليلاً بأنّ ولاية المسلمين عادت الى بيتها من بني العباس والظاهر أنّ الواضع لهذه الخطبة كان مِمَنْ يتَشيَّع لبني العباس ويرجو الزُلفى إليهم .

وصفوة القول – أَيُّها السادة – أنّ الاعتقاد بأنَّ في القرآن كثيراً من علوم الغيب كان موجوداً منذ بدأ الجدال في إعجاز القرآن ولا يزال هذا الاعتقاد سائداً في كثيرٍ من الأوساط الدينية .

ولَستُ أُريد في هذه الكلمة أنْ أتحدَّث إليكم عن هذه العلوم، إذ لِستُ من رجالها، ولا أنا من أصحاب الكشف الذين يَفهَمون من الكلامِ غير ما تدل عليه الألفاظ ولكن علوم القرآن التي وَددَتُ أن أُحدِثكم عنها هي العلوم التي أوجدها القرآن في العالم الإسلامي، فقد عَلمتُم أنّ العرب لم تكن لهم في عصور جاهليتهم وإسلامهم الأولى علوم مُدوَّنة، لغلبة الأميّة عليهم وبساطة الحياة عندهم، فلما انساحوا في البلاد يفتحونها ويأخذون جانباً من أسباب حضاراتها أخذوا يُنظِّمونَ حياتهم فَمصَّروا الأمصارَ

واختطوا المدن وبنوا القصور وأنشأوا الحَدائقَ والجنان وتَأنَّقوا في المطاعم والمشارب والملابس واستكثروا من الرياش الفاخر وأقاموا المدارس وترجموا الكتب وألّفوها ودَوَّنوا الدواوين وكان من جملة ما دَوَّنوا (علوم القرآن).

أثر القرآن في اللغة العربية:

سادتي: جاء القرآن فَبَهرَ العربَ بما يمتاز به من بلاغةٍ خارقة وجمالٍ أخّاذ . وبما يحمله للناس من هُدَى ورشاد، وبهذا يكون للقرآن أثران بليغان في الحياة العربية والإسلامية .

الأول: ما يتَعلَّق منه بلغة العرب وبيانهم .

والثاني: ما يتَعلَّق بعقليتهم وسلوكهم .

أما أثر القرآن في اللغة العربية فنجمله في أمورٍ:

الأول- حِفظِها من الانقراض كما انقرض غيرها من اللغات القديمة [1]، وذلك لأنَّ المسلمين كانوا حراصاً على حفظ القرآن وتَفهُّم معانيه والاعتزاز به ، فبقاءه لديهم وانتشاره بينهم وتواصيهم به كل أولئك كان سبباً في خلوده، وخلود معناه ولغته التي هي العربية وأذكر أنّ أحد أعضاء (جمعية الإتحاد والترقيّ) التي كانت تحاول (تتريك) العرب اقترح (على الباب العالي) مُصادَرة المصاحف من جميع البلاد الإسلامية لإضعاف اللغة العربية . وهو بهذا يعتقد أن القرآن ما دام موجوداً عند المسلمين فإنهم لا يمكنهم أن ينسوا لغتهم ويستبدلوها باللغة التركية .

الثاني – توحيد لهجتها في لهجةٍ واحدة هي لهجة قريش، إذ لم تكن اللغةُ العربيةُ لغةً واحدة قبل الإسلام، بل كانت تختلف في لهجتها وتتمايز بقواعد نحوها وصرفها .

فقبيلة مازن تُبدِل الباء مِيماً فتقول في بكر مكر، وفي باسمك مسمك وقبيلة خثم تحذف نون (من) الجارة إذا وليها ساكن فتقول في من البيت ملبيت وفي من إبنك منبك.

(1) كالآرامية والبابلية والآشورية .

وقبيلة قُضاعة تُبدِل الياء جيماً إذا وقعت بعد العين فتقول في الراعي راعج وفي معي معج وهذه هي (العجعجة) عند قُضاعة .

وقبائل اليمن تُبدِل الكاف شيناً فتقول في لبيك لبيش أ وفي كلام شلام أ وهذه هي (الشنشنة) عند قبائل اليمن .

وهم أيضاً يُبدِلون السِينَ تاءً فيقولون في ناس نات أ وفي سلام تلام وهذا هو (الوتم) عند أهل اليمن .

وقبيلة حِمير تُبدِل لامَ التعريف ميماً فنقول في الهواء مهواء أ وهذه هي (الطمطمانية) عند حِمير .

وقبيلة بهراء تكسر حروف المضارعة مُطلقاً فتقول في يَسمع بِسمع وفي تُريد تِريد أ وهذه هي (التلتلة) عند بهراء .

وقبيلة هُذيل تُبدِل الحاء عيناً فتقول في حَسَنْ عَسَنْ أ وفي حرام عرام أ وهذه هي (فحفحة) هُذيل.

وقبيلة تميم تُبدِل الهمزة في ابتداء الكلمة عيناً فتقول في أن عن وفي أمان عمان أ وهذه هي (العنعنة) عند تميم .

وقبيلة أسد تزيد سيناً ساكناً بعد كاف الخِطاب الذي للمؤنثة فتقول في عليك عليكس وفي منك منكس وهذه هي (الكسكسة) عند قبيلة أسد .

وقبيلة كلب تُكِسر هاء الضمير مُطلَقاً إذا وليها ميم الجمع فتقول في منهُم وعنهُم منهِم وعنهِم وهذا هو(الوهم) عند كلب .

وقبيلة ربيعة كلب تكسر كذلك كاف الخِطاب مُطلقاً إذا وليها ميم الجمع فتقول في عليكُم وبكُم عليكِم وبكِم وهذا هو(الوكم) عند ربيعة كلب . وقبيلة الأزد تُبدِل العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء فتقول في إعطى إنطى وهذا هو (الاستنطاء) عند الأزد .

تلكم – سادتي – لهجات العرب المُختَلفة قبل نزول القرآن، فَلَّما جاء القرآن وحدَّها في لغةٍ واحدةٍ هي لغة قريش وقَضى على لهجاتها المختلفة .

الثالث – تهذيب ألفاظها وأساليبها، فقد كان العرب يميلون في بداوتهم الى التَوعُّر والإغراب، وخشونة التعبير، فإمرؤ القيس يصف حبيبته قائلاً:

برهرهة رودة رخصـة كحزعوبة البانة المنفطر

والحارث بن حِلزة يصف ناقته فيقول:

بزفوف كأنها هفلة أم .. رئـال دويـة سـقفاء

وبدوى من أعراب مِديَن يقول:

لا تمنعي صوبك صوب المدمع يجري على الخد كحب الثعثع

من طمحة صبيرها حجلنجع

فهذه الألفاظُ الوَعِرةُ، والأساليبُ الخشنةُ كانت شائعة في عصور العربية الأولى، فلما جاء القرآن مال العرب الى محاكاة إسلوبه، فَتَهذَّبت ألفاظُهم، وَرَقَّتْ أساليبُهم، ونحن إذا ما قارنا بين قصيدةٍ جاهلية، وأخرى إسلامية في موضوعٍ واحد وجدنا بين القصيدتين فرقاً واضحاً في الاسلوب، بل نحن إذا قارنا بين قصيدتين لشاعرٍ واحد مخضرم (لحسان بن ثابت مثلاً) إحدهما جاهلية، والأخرى إسلامية، رأينا أنهما تختلفان اختلافاً بيّناً في لفظهما وأسلوبهما .

الرابع – توسيعه نطاقها إذ استعمل بعض ألفاظها في معانٍ دينية لم تعرف بها من قبل منها لفظ المؤمن والكافر، والمنافق، والفاسق والفاجر، والصلاة، والصوم، والزكاة وغير ذلك .

هذا أيّها السادة بعض آثار القرآن في اللغة العربية .

أثر القرآن في حياة العرب العقلية والسلوكية

فأما أثره في حياة العرب العقلية وسلوكهم، فظاهر في حملهم على التوحيد بعد الشرك، وتنظيم حياتهم الإجتماعية، فقد عَلَّمهم:

1- نظام الأسرة، فَبَيَّن أحكام الزواج، والطلاق، والميراث، والنفقات، وواجبات كل فرد من أفراد الأسرة، بما يضمن للجميع سعادة دائمة.

2- نظام الكسب والمعاش، فَحَرَّم شن الغارات، واغتصاب الأموال: ((إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ... إلخ)) وعَوَّضَهم عن ذلك رِزقاً حلالاً شريفاً معقوداً بنواصي خيلهم، ومقروناً بسعيهم في مناكب الأرض.

3- نظام الجماعة، فحرم الدعوة الى العصبية، واستبدل بها جامعة الدين، وجامعة الطاعة لحاكمٍ واحدٍ، وجمعهم في الحَجِّ والصلوات كصلاة الجمعة وصلاة الجماعة وصلاة العيدين.

أسباب تدوين علوم القرآن

سادتي – ولَمَّا كان للقرآن تلك الآثار البليغة في الحياة الإسلامية، كان المسلمون يَرون في القرآن معجزتهم الخالدة، ودستورهم الكامل، ومثلهم الأعلى فيما يقولون وما يفعلون، وكنزهم الثمين الذي يغارون عليه ويحتفظون به، ويحرسونه من عبث العابثين.

وهنا نستطيع أنْ نَتَصوَّر الدوافع التي دَعَت الى تدوين علوم القرآن التي تنقسم بالضرورة الى قسمين: لغوية ودينية.

العلوم اللغوية:

من العلوم التي دُوِّنَتْ بسبب القرآن:

النحو:

وهو العِلمُ الباحث عن أحوال أواخر الكلم من حيث البناء والإعراب وكان العربُ قبل الفتح الإسلامي فُصحاء بطبيعتهم لا يلحنون، سواء ذلك في عالمهم وجاهلهم، وكبيرهم وصغيرهم، يرفعون في موضع الرفع، وينصبون في موضع النصب، دون أن يعرفوا لذلك سبباً أو قاعدة، فطرة فُطِروا عليها، وسُنَّة ورثوها عن أسلافهم. فَلَّما اختلطوا بالأعاجم واستوطنوا البلاد المفتوحة سمعوا لغاتٍ غير لغتهم ولهجات غير لهجتهم والسمع، - كما يقول ابن خلدون – أبو المَلَكات اللسانية، فأصاب أَلسنتَهم زيغٌ عن الإعراب، وفشا بينهم اللحن، وسرى هذا اللحن الى القرآن، فقرأوه ولحنوا فيه فخشى الغيارى على القرآن أن يفشو فيه الغَلط، فيضل الناس فيه ضلالاً بعيداً، فنشطوا الى تدوين (علم النحو) ليضبطوا فيه أواخر الكلم، ويَصونُوها من الغلط.

وقِيل إنّ أول من دَوَّن النحو (أبو الأسود الدؤلي) أخذه عن الإمام علي (ع) فيذكر ابن الأنباري أنّ علياً دفع الى أبي الأسود رقعةً مكتوباً فيها ((الكلام كُلُه اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ ، فالاسم ما أَنبأَ عن المُسمّى ، والفعل ما أُنبأَ به ، والحرف ما أفاد معنى ، واعلم أنّ الأسماء ثلاثة: ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وإنما يَتفاضَل الناس فيما ليس بظاهر ولا مضمر ..)) .

وقِيل إنّ أبا الأسود وَضَعَ بعد ذلك بابي العطف والنعت ، ثم بابي التعجب والاستفهام ، الى أن وصلا الى باب (إِنَّ وأخواتها ما خلا لكن فلما عرضها على عليّ (ع) أمره بضم لكن إليها ، وكان كُلَّما وضع باباً من أبواب النحو عَرضَه عليه) .

وقال غيرهُ في وضع النحو غير ذلك ، ومهما يكن من شيء فالظاهر أنّ أبا الأسود واضع النحو الأول غير مدافع ، وإليه يرجع الفضل في ذلك [1] .

التصريف

الثاني من علوم القرآن علم التصريف ، وهو العلم الباحث عن أبنية الكَلم التي ليست بإعراب ، ويُنسَب وضعه الى الكوفيين ، وسبب هذا الوضع هو أنّ الغلط الذي فشا في أواخر الكلمات العربية بسبب الاختلاط في الأعاجم ، قد سَرَتْ عدواه الى أبنية الكلم ، فصار الناس يغلطون في صيغ المُشتقات ومصادر الجموع والنَسب والتصغير والإعلال والإبدال ، وعَمَّتْ بلوى هذا الغلط حتى إنتهت الى قراءة القرآن فقرأ بعضهم وفَجَّرنا الأرض عيونا ، وفَجَّرنا بتخفيف الجيم ، وقَرأ آخر ((إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)) إنّ كتاب الفِجْار بكسر الفاء وتخفيف الجيم كما قرأوا قوله تعالى: ((وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللهِّ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا)) بوجوهٍ كثيرة وقد حَفَّزَ هذا الغلط أولئك الغيارى على سلامة لغة القرآن الى وضع هذا العلم ليضبطوا بذلك أبنية الكلم .

اللغة

الثالث من علوم القرآن علم اللغة . ولم تكن اللغة يومئذ عِلماً ، ولم يُدوَّن منها شَيءٌ، في معجمٍ حتى إذا تَمَّتْ عملية المزج بين العرب والأعاجم ، ونَشَأَ من جَرّاء ذلك جيلٌ جديد يتلقّى العربية عن الآباء الفاتحين ، والأعجمية عن الأمهات الأعجميات ، دَخَلَ الى العربية ألفاظٌ ليست منها وأُعطيت الألفاظ العربية معانٍ غير معانيها ، وكان من نتيجة

---

(1) ويُروى أنّ علياً (ع) مَرَّ بمدرسة أبي الأسود في البصرة فَسَمعَ طالباً يلحن فيقرأ قوله تعالى ((إِنَّ اللهّ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)) (بكسر اللام في رسولهِ) فقال الإمام لأبي الأسود : انحُ بطلابك نحواً صحيحاً ، فقال : وما ذلك؟ قال الكلمة : اسم وحدث ورابطة ، وكُلٌّ فاعل مرفوع ، وكُلٌّ مفعول منصوب ، وكل مضاف إليه مجرور ، وما زاد فهو فروع . فوضع أبو الأسود النحو بعد ذلك، وهذا سبب تسميته نحواً .

ذلك أن فُسِّرت بعض ألفاظ القرآن بغير ما تدل عليه ، وكان لهذا التفسير خطره على الفقه الإسلامي الذي يعتمد اعتماداً كبيراً على معاني ألفاظ القرآن والحديث ، فكان ذلك سبباً في تدوين مفردات اللغة وتحديد معانيها .

والكُتب التي دُوِّنَتْ فيها مفردات اللغة تُسمّى المعاجم وهي على ضربين:

أ- معاجم معنوية: وهي التي ينتقل فيها من جانب المعنى الى جانب اللفظ كأن تُعرِّف الشيء ولا تُعرِّف اللفظ الذي يدل عليه .

ب- معاجمٌ لفظية: وهي التي ينتقل فيها من جانب اللفظ الى جانب المعنى كأن تُعرِّف اللفظ ولا تعرف المعنى .

ومن أمثلة المعاجم المعنوية كتاب (الألفاظ الكتابية) لعبدالرحمن بن عيسى الهمذاني وكتاب (فقه اللغة) للثعالبي .

أما المعاجم اللفظية فهي أكثر شيوعاً واستعمالاً ، وقد دُوِّنَتْ فيها الألفاظ العربية على نسق الحروف الهجائية ، وأول واضع لهذه الطريقة هو: ((الخليل بين أحمد الفراهيدي)) في كتابه المُسمّى بكتاب (العين)[1] .

البلاغة

الرابع من علوم القرآن علم البلاغة ، وهو العلم الباحث عن الأمور التي من شأنها أن ترفع من قَدَر الكلام العربي ، وتزيده جمالاً وحُسناً ؛ وقد دُوِّنَتْ بعض قواعد هذا العلم في صدر الدولة العباسية ، حين كَثُرَ أصحاب الشك والزندقة !

---

(1) لم يراعِ الخليل بن أحمد ترتيب الحروف الهجائية المعروف عند الناس بل رَتَّبَ الحروف في كتاب (العين) هكذا : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط هـ ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ا ي .
بدأ بحروف الحلق فحروف اللسان فحروف اللثة فحروف الأسنان فحروف الشفة : وجعل حروف العِلَّة آخراً وسَمّى كتابه (العين) لأنه أول الحروف في الترتيب .

وتفصيل ذلك أنّ الناس كانوا من قبل يؤمنون إيماناً ساذجاً ، لا يساوره شك ، ولا يعتريه ريب ، الله ربهم ، ومحمد نبيهم ، والقرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: وهو المُعجزة الكبرى ، والدستور الأعظم . كانوا يؤمنون بكل ذلك إيماناً خالصاً لا يحتاجون فيه الى دليل عقلي ، ولا برهان منطقي ، حتى وصلت إليهم فلسفة اليونان ، ومنطق أرسطاليس نظريات السوفسطانيين فأرادوا التوفيق بين هذه وبين ما ورثوه من عقيدةٍ ودين ، فأصاب منهم مَنْ أصاب وأخطأ منهم مَنْ أخطأ. وكان نصيب مَنْ أخطأ منهم الشَكّ في الله . والنبوّة ، والمَعاد ، والقرآن ، وكيف يكون القرآن معجزة وهو كلام لا يمتاز بشيءٍ عن كلام البُلغاء؟ وربما كان في كلامهم ما هو أسمى بلاغة وأثمن منه قدراً .

شَكَّ هؤلاء في إعجاز القرآن ، وبلاغته الخارقة ! فَحَفَّز ذلك الغيارى من علماء المسلمين الى أن يبحثوا عن أسرار بلاغة القرآن بالمقارنة بينه وبين كلام البُلغاء من العرب ، فَوفِقوا الى ذلك أحسن توفيق ؛ وقد استمرَّ بحثهم هذا زمناً طويلاً انقسم فيه علم البلاغة الى ثلاثة أقسام:

الأول: علم المعاني – وهو العلم الباحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

سادتي: تقول العرب في أمثالها (إنَّ لكُلِّ مقام مقالاً) ، فما يُخاطَب به العالم غير ما يُخاطَب به الجاهل وما يُخاطَب به الذكي غير ما يُخاطَب به الغبي ، وما يُقال في حالٍ ما قد لا يصلح لأن يُقال في حالٍ أخرى . وفي علم المعاني نَستطيع أن نعرف هذه المطابقة بين الكلام ، وبين الحال التي اقتضته ، فنعرف سِرَّ الإطناب في قوله: ((قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ* وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ))[1] .

(1) لأنَّ الخطاب هنا مُوجَّه للكافرين الذين نزلوا منزلة مَنْ لا يعقل .

ونَعرِف سِرَّ الإيجاز في قوله تعالى: ((وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ))[1] ونعرف سِرَّ تقديم المذكر على المؤنث في قوله: ((وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا))[2] .

ونعرف سِرَّ تقديم المؤنث على المذكر في قوله تعالى: ((الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ))[3] .

ونعرف سِرَّ حذف الفاعل في قوله: ((وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ))[4] كما نعرف سِرَّ ذكره في قوله تعالى: ((أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً))[5] .

ونعرف سر الفَصل في قوله تعالى: ((خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ))[6] . ونعرف سِرَّ الوصل في قوله تعالى: ((الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ*وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ))[7] .

وفي القرآن نجد كثيراً من أمثال هذه المُطابقات بين الكلام والحال التي قِيل فيها ، ومَنْ أرادَ المزيد من هذه الأمثلة فليراجع كتب المعاني .

والثاني من علوم البلاغة علم البيان: وهو العلم الباحث عن كيفيات إيراد المعنى الواحد بأساليبَ مختلفة تتفاوت قوةً وضعفاً ، وبهذا تتفاوت أقدارُ البُلغاء ، كأن يختارُ بعضهم لوصف الكريم أسلوب التشبيه فيقول:

أرى كُلَّ ذي جودٍ إليك مَصيرهُ كأنك بحرٌ والملوك جداول

---

(1) هذا عكس سابقه والمخاطبون هو أولوا الألباب أي أصحاب العقول .

(2) لأنّ السرقة في الرجال أكثر .

(3) لأنّ الزِنا في النساء أكثر .

(4) الفاعل هو الله وحذف اسمه تعالى في مقام إرادة الشر أولى من ذكره تنزيهاً له عن هذه الصفة .

(5) هذا عكس ساقه لأنه مقام إرادة الرُشد والخير للناس فيحسن ذكر الفاعل .

(6) يرى بعض علماء البيان أنّ بين الجملتين تمام الاتصال لأن خلق الإنسان وتعليمه البيان شيء واحد ولا يكون الإنسان إنساناً إلاّ بالبيان الذي هو فصله المنطقي وحقيقته الذاتية .

(7) لأنّ بين الجملتين اتحاداً في الصورة وتناسباً في المعنى .

ويختارُ آخر الوصف الكريم أيضاً أسلوب الاستعارة فيقول:

تعرض لي السحاب وقد قفلنا فقلت إليك أنّ معي السحابا [1]

ويختار آخر لوصف الكريم أيضاً بأسلوب الكناية فيقول:

فما جازه جـود ولا حـل دونه ولكن يَصيرُ الجودُ حيث يصيرُ [2]

ويختار آخر لوصف الكريم أيضاً بأسلوب المجاز المُرسَل فيقول:

كم يدٍ أسْدَيتُ والنّاسُ يَظنّون بوعدِ [3]

كل هؤلاء أرادوا معنىً واحداً ولكنهم عبّروا عنه بأساليبَ مختلفة ، وهذا ما يبحث فيه علم البيان .

وفي القرآن تبدو روعة هذا البيان جلية واضحة ، فهو يذكر المعنى الواحد في أماكن مُتعدِّدة ، ولكنه يغاير بين الأساليب ، فالقصة الواحدة كقصة موسى مثلاً تَردُ في القرآن في مواضعَ مختلفة ، ولكنك تراها جديدة في كل هذه المواضع لأنّ أسلوبها جيداً .

ولا يتسعُ الوقت لي لايراد أمثلةً ذلك من القرآن ، فالذين يقرأون القرآن يعرفون ذلك جيداً .

والثالث من علوم البلاغة: علمُ البديع وهو العلمُ الباحث عن وجوه تحسين الكلام بعد مطابقته لمقتضى الحال ، لأنَّ البديع في الكلام يزيده جمالاً وحُسناً ، وهو له كالأصابيغ والنقوش للأجسام ، وقد جاء البديع كثيراً في القرآن الكريم حتى أنّ علماء البديع وجدوا في قوله تعالى: ((وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)) ثلاثة وعشرين نوعاً من البديع مع أنّ كلمات الآية لا تزيد على عشرين كلمة [4] .

---

(1) السحاب استعارة تصريحية إذ شَبَّه الممدوح بالسحاب بجامع الجود في كل وحذف المُشبّه واستُعير مكانه المُشبّه به .

(2) هذه كنايةٌ عن نسبة الجود الى الممدوح المُلازمة التي افترضها الشاعر بين الجود والممدوح .

(3) اليد مجاز المُراد به الإحسان والجود وعلاقته السببية .

(4) انظر : جواهر البلاغة لأحمد الهاشمي : الإبداع .

وجاء الجناس وهو نوعٌ من أنواع البديع في مواضعَ كثيرة من القرآن ، فالجناسُ التام في قوله: ((وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ))[1] والجناس المُطرَّف في قوله: ((وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ))[2] ، والجناسُ اللفظي في قوله: ((وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ))[3] ، والجناسُ المضارع في قوله: ((وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ))[4] .

ووجِدَ الطباق والمقابلة في قوله: ((فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً)) وفي قوله: ((وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ)) ومثله: ((وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا))[5] .

ووجِدَ مراعاة النظير في قوله: ((الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ))[6] .

ووجِدَتْ المشاكلة في قوله: ((أَنتَ تعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ))[7] .

ووجِدَ العكس في قوله: ((تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ)) ومثله: ((يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)) .

ووجِدَتْ التوريةُ في قوله: ((الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)) وفي قوله: ((وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ))[8] .

---

(1) الجناس التام ما تساوى فيه الرُكنان بعدد الحروف وهيئتها وترتيبها ونوعها .

(2) المُطرَّف أن يزيد أحد الركنين عن الآخر بحرفٍ في أوله .

(3) اللفظي ما تشابه فيه الركنان لفظاً واختلفا خطاً .

(4) المضارع ما اختلف فيه الركنان بحرف واحد .

(5) الطِباق هو الجمع بين متضادين في الكلام والمقابلة هي الجمع بين أكثر من متضادين .

(6) مراعاة النظير هي الجمع بين أمر وما يناسبه على غير تضاد .

(7) المُشاكلة هي أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ومن أمثلتها قوله تعالى : ((نسوا الله فأنساهم أنفسهم)) .

(8) التورية هي أن يُذكر لفظ له معنيان أحدهما قريب غير مُراد والآخر بعيد هو المُراد وأراد بكلمة (واستوى) استولى وبكلمة (جرحتم) ارتكبتم الذنوب .

ووجِدَ الاستخدام في قوله: ((فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ))[1] .

ووجِدَ اللفُّ والنشر في قوله: ((وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى))[2] .

ووجِدَ المذهبُ الكلامي في قوله: ((لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا))[3] .

ووجِدَ أسلوبُ الحكيم في قوله: ((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ))[4] .

ووجِدَ تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله: ((لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً *إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً))[5] .

ووجِدَ لزوم ما لا يلزم في قوله: ((فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ)) وفي قوله: ((خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ))[6] .

ووجِدَ ما لا يستحيل بالإنعكاس في قوله: ((ربّك فكبِّر)) وقوله ((وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ))[7] .

ووجِدَ الإرصاد في قوله: ((وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ))[8] .

---

(1) الاستخدام هو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة ضمير عليه بمعنى آخر .

(2) هو أن يذكر متعدد ثم يذكر ما لكل من أفراده شائعاً من غير تعيين اعتماداً على تصرف السامع في رده إليه والمعنى في الآية ((وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً ، وقالت النصارى لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ نَصَارَى)) .

(3) المذهب الكلامي يكون بايراد حُجّة قاطعة مُسلَّمة عند المُخاطَب .

(4) أسلوب الحكيم هو أن يُجاب على سؤال بغير ما سُئِلَ عنه .

(5) تأكيد المدح بما يشبه الذم هو أن يُستثنى من صفة مدح صفة مدح أخرى بتقدير دخولها فيها .

(6) لزوم ما لا يلزم هو إلزام حرفين في القافية والفاصلة .

(7) ما لا يستحيل بالانعكاس هو ما يمكن قراءته طرداً وعكساً ومثله قول الشاعر :

مودته تدوم لكل هولٍ وهل كل مودته تدوم

(8) الإرصاد هو أن يذكر قيل القافية أو الفاصلة ما يدل عليها .

ووجِدَ الجَمعُ في قوله: ((إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ))[1].

ووجِدَ التفريقُ في قوله: ((وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ))[2].

ووجِدَ التقسيم في قوله: ((كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ))[3] .

ووجِدَ الجمع مع التفريق في قوله: ((خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ))[4] .

ووجِدَ الجمع مع التقسيم في قوله: ((اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى))[5] .

ووجِدَ التدبيج في قوله: ((وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ))[6] .

ووجِدَ نفي الشيء بإيجابه في قوله: ((لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله))[7] .

ووجِدَتْ الموازنة في قوله: ((وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ))[8] .

ووجِدَ الترصيع في قوله: ((إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ))[9] .

---

(1) الجمع هو أن يجمع بين متعددٍ تحت حكمٍ واحد .

(2) التفريق هو أن يُفرَّق بين أمرين من نوعٍ واحدٍ في اختلاف حكمها .

(3) التقسيم هو أن يذكر متعدد ثم يضاف الى كل من أفراده ماله على التعيين .

(4) الجمع مع التفريق هو أن يُدخِل شيئان في معنى ويُفرِّق بين جهتي إدخالهما .

(5) الجمع مع التقسيم هو أن يجمع متعدد تحت حكمٍ واحد ثم يُقسِّم .

(6) التدبيج هو أن يؤتى بذكر ألوان يُراد بها التورية أو الكناية .

(7) نفي الشيء بايجابه هو أن ينفي مُتعلِّق أمر عن أمر فيوُهم إثباته له والمُراد نفيه عنه أيضاً .

(8) الموازنة هي تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية .

(9) الترصيع هو توازن الألفاظ مع توافق الإعجاز أو تقاربهما .

ووجد التصدير في قوله: ((وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ))[1] .

ووجِدَ تشابه الأطراف في قوله: ((فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ))[2] .

سادتي – هذا ما أذكره الآن من بديع القرآن . وصفوة القول أنّ لعلوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) أثرها الواضح في الكشف عن بلاغة القرآن ، وأسرار إعجازه ، وقد عَلمتُم أنّ الفضل في وجود هذه العلوم يعود الى القرآن نفسه .

علم القراءات

ويُسمّى علم التجويد أيضاً ، وهو العلم الباحث عن مخارج الحروف الهجائية والنُطق بها نُطقاً صحيحاً موافِقاً لما كان عليه فصحاء العرب .

وسبب تدوين هذا العلم هو أنّ كثيراً من الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام وتَعرّبوا ، وقرأوا القرآن لم يستطيعوا أن ينطقوا بالحروف العربية نُطقاً صحيحاً لما في ألسنتهم من هُجنةٍ أعجمية ، وليس بخافٍ على حضراتكم أنّ الأعجمي يصعب عليه النطق ببعض الحروف كالثاء والحاء والصاد والضاد والطاء ، ولا يَعرف مواضع القصر والمد والتخفيف والتفخيم وغير ذلك من أصول النطق العربي ، فمست الحاجة الى تدوين علم التجويد ، ومنه تَعلُّم القُرّاء القراءات السَّبع ، وما بينها من تفاوت ، كما تَعلَّموا أصول المدّ والإدغام ، والإمالة ، والتفخيم ، والترقيق ، والوصل ، والوقف ، والسَكت ، والقَلب ، والجهر ، والإخفاء ، الى غير ذلك من أصول علم التجويد .

والفضل في تدوين هذا العلم يعود الى القرآن كما علمتم .

---

(1) التصدير ويُسمّى أيضاً ((رد العجز على الصدر)) وهو أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما بأن جمعهم اشتقاق أو شبه في أول الفقرة والثاني في آخرها .

(2) هو جعل آخر جملة صدر تاليتها .

علم رسم حروف القرآن

هذا ما ذكره ابن خلدون في المقدمة في باب علوم القرآن ، فَذَهَبَ الى أن أوضاع حروف القرآن في المصحف ، ورسومه الخطية صارت فيما بعد عِلماً من العلوم له رجاله المختصون لأنَّ في القرآن حروفاً كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخطّ ، والحقُ أننا ما زلنا نَقرأ المصاحف فنجد فيها كلمات رُسِمَتْ مباينةً للنحو الذي نعرفه من قواعد الإملاء !

أقول: إنّ الكلمات (حياة ، وجزاء ، وصلاة) ما زالت تُرسَم في المصاحف هكذا حيوة وجزاؤ وصلوة وقد نجد كلمة الصالحات تُرسَم هكذا (الصلحت) وكلمة رحمة تُرسَم هكذا (رحمت) .

الأدب

هو علمٌ يتناول المنثور والمنظوم من كلام العرب ، فقد وَرَدَتْ في القرآن ألفاظٌ لغوية ضرب الناس من أجلها أكباد الإبل رغبة في الحصول على معانيها الحقيقية في بوادي العرب ، وجَرَّهم هذا الى حفظ كثير من كلام العرب (منثوره ومنظومه) وروايته فكان من جرّاء ذلك علم الأدب .

هذه – أيّها السادة – هي العلوم اللسانية التي دُوِّنَت بسبب القرآن ، ولولاه لما كان لها وجود ، وليس بمخطئ إذن مَنْ يُسمِّيها (علوم القرآن) لأنها وجِدَتْ بفضله ، ودُوِّنَتْ لأجله .

العلوم الدّينية

أما العلوم الدينية التي دُوِّنَتْ بسبب القرآن فهي:

علم التفسير

وهو العلمُ المُفسِّر للقرآن ، ناسخه ومنسوخه مُجمَله ومُفصَّله ، وعامه وخاصه ، ومُطلَقه ومُقيدَّه ، وأسباب نزوله ومعاني مفرداته .

وكان العرب يفهمونه آبان نزوله ، لأنه لسانٌ عربيٌ مبين ، وقد يُفسِّر لهم النبي بعضَ مُجمَله أو مُقيَّده مما لا تصل إليه أفهامهم من الأحكام .

وَلمّا صار القرآن يُتلى من قِبل المسلمين غير العرب آبان الفتوح احتاجوا الى مَنْ يُفسِّر لهم القرآن ، لجهل هؤلاء بأساليب لغة العرب ، وأسباب النزول ، فَوضِعَتْ كُتبُ التفسير ، وأصبح التفسير عِلماً له رجاله المُختصُّون به ، وتَعدَّدت فنونه ، فمنه التفسير اللغوي ، ومنه التفسير العقلي ، ومنه التفسير النقلي ، ومنه التفسير الرمزي [1] ، ويُوجَد الآن في عصرنا الراهن من رجال التفسير مَنْ يُفسِّر القرآن تفسيراً غريباً فيجعل من بعض عباراته رموزاً للمخترعات الحديثة والمكتشفات الجديدة كالكهربائية والمغناطيسية والضغط الجوي ، ووسائل الحرب المدمرة .

ومهما يكن من شيء فإنَّ علم التفسير هذا لم يكن له وجود إلاّ بوجود القرآن .

علم الفرائض

الثاني من علوم القرآن الدينية علم الفرائض ، وهو العلمُ الباحث عن فروض الوراثة ، وتصحيح سهام الفريضة ، وقد جاءت الفرائض في القرآن مُجمَلة فَأمستْ الحاجة الى وضع علم الفرائض الذي يعتمد في تعيين سهام الوارثين على الحساب وأُلِّفَتْ في هذا العلم كتبٌ كثيرة بعضها مختصر ، وبعضها مُطوَّل ، واشتملت بعضُ الكتب على مسائل في الميراث عويصة يحتاج حلها الى عمليات حسابية دقيقة ؛ وذلك دليل على أن هذا العلم من العلوم التي تحتاج الى مِران واختصاص ، وما وجود هذا العلم إلاّ بوجود القرآن .

---

(1) يذهب القائلون بالتناسخ أنّ قوله تعالى : ((أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى... إلخ)) إشارة الى حلول الروح الإنسانية بعد الموت في جسد حيوان !

علم الحديث

والحديثُ هو ما وَرَدَ عن النبي من قول أو فعلٍ أو تقرير ، وللحديثِ علاقةٌ قوية بالقرآن ؛ لأنّ كثيراً من آي القرآن مُجمَل يُفصِّله الحديث ؛ أو مُطلَق يقيّده الحديث ، أو عام يُخصِّصه الحديث ، ومن أجل هذا كان اهتمام المسلمين بتدوين علم الحديث في الرتبة الثانية من اهتمامهم بتدوين القرآن .

علم الشريعة

أو الفقه ، وهو علم الأحكام الشرعية في مسائل العبادات والمُعاملات والحدود ؛ والآيات التي تَتَضمَّن بعض هذه الأحكام قليلة لا تزيد في القرآن على مائتين من مجموع آيات القرآن التي يبلغ عددها نحواً من ستة آلاف آية .

وليست آيات الأحكام مجموعة في موضعٍ واحد لأنَّ القصد الأول للقرآن لم يكن بيان الأحكام بل بيان أصول الدين ، كالتوحيد ، والإيمان باليوم الآخر وتعليم مبادئ الأخلاق ؛ ويأتي قصد بيان الأحكام في الرتبة الثانية ؛ هذا بالإضافة الى أنّ آيات الأحكام الواردة في القرآن لا تتناول جميع أحكام الشريعة الإسلامية ؛ فَأَمست الحاجةُ بعد ذلك الى وضع علم الشريعة المُستَنبَطة أحكامه من الأدلة الأربعة [1] .

علم البحث والمناظرة

وهو فرعٌ من علم الفقه الذي تَعدَّدت مذاهبه في العصر العباسي ، وكَثُرَ فيه الجدل بعامل التعصب المذهبي فنشأَ من جَرّاء ذلك علم البحث والمناظرة التي وَضَعَ لها الإمام الغزالي فيما بعد شروطاً ثمانية [2] .

---

(1) هي : القرآن : والسُنّة : والإجماع : والعقل .

(2) هذه الشروط هي :

أ- ألاّ يُمعِن المُناظِر في البحث ولا يَشتَغِل به ما أمكن .

ب- إنّ الجدل فرض كفاية فإذا رأى المناظر فرض كفاية أهم منه اتجه إليه .

علم التأريخ

ولم يكن العرب قبل الإسلام أمة مُتَحَضِّرة تعني بتدوين تأريخها كالآشوريين والبابليين واليونانيين والرومان وغيرهم ، ولكن القرآن جاء يَقصُّ عليهم أَحسَنَ القصص: فَشَجَّعهم ذلك على تتبع ما فيه من قصص الأنبياء كآدم ونوح وموسى وعيسى وغيرهم .

وكذلك أشار القرآن الى حوادث تأريخية كحرب الفُرس مع الروم مثلاً فاشتاقت نفوسُ المسلمين الى التوسّع في فهم هذه الآيات ، فاتجهوا الى جمع الأخبار فكان لهم بعد ذلك تأريخ مُدوَّن معروف .

علم الكلام

وهو علمُ إثبات العقائد الإسلامية بالأدلة العقلية فقد جاء في القرآن شيء كثير عن الله وصفاته كالواحد ؛ والقهار ، واللطيف ، والخبير ، والسميع ، والبصير ، والعزيز ، والجبار ، وأثبت للملائكة أَنَّهم ألو أجنحة مثنى وثلاث ورباع وأثبت للرُسل اتصالاً بالله عن طريق الوحي ، وأثبت اليوم الآخر بعثاً ونشوراً وحساباً وسراطاً ، وَجَنةً ونارا إلخ .

ج- أن يكون المُناظِر مُجتهداً يُفتى برأيه . فإذا ظهر له الحق من مذهب أيّاً كان ذَهَبَ إليه .

د- ألاّ يُناظِر إلاّ في مسائل واقعية أو قريبة الوقوع .

هـ - أن تكون المُناظَرة اليه في الخلوة أحبُّ إليه من المحافل وبَينَ الأكابر والسلاطين .

و- أن تكون المُناظَرة في طلب الحق ويكون مثل المُناظِر وكناشد ضالَّة لا يُفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد غيره .

ز- ألاّ يمنع خصمه من الإنتقال من دليلٍ الى دليل فلا يقول : إنّ هذا يناقض كلامك الأول فإن الرجوع الى الحق يجب قبوله .

ح- أنْ يُناقش مَنْ يتَوقَّع الاستفادة منه ؛ ولا يقصد الضعيف لِيتَغلَّب عليه .

وكل هذه الأمور كان الناس يؤمنون بها عن طريق النقل دون أن يناقشوها مناقشةً عقليةً! فلّما تَفلسّفت الناس في العصر العباسي، وغَلَبَ على عقولهم منطق أرسطاطاليس ؛ ساورتهم نزعةُ الشك ! فظهر منهم مَنْ يقول:

كيف يكون للواحد المُطلَق صفات كثيرة؟

وإذا كانت الملائكة أجراماً مادية فكيف لا يكون لها خير؟ وكيف يتم اتصالها بالأشياء؟

ما حقيقة الوحي: وكيف يكون؟

كيف يُبعثُ الناسُ من تراب؟ وأين يُحشَرون؟

وكانت هذه المسائل مُوجِبة للطعن في قُدسية القرآن ، وصحة صدوره عن الله تعالى! وهنا ينهض من رجال الدين الغيارى مَنْ يُجيب على هذه الأسئلة بطرقٍ عقليةٍ منطقيةٍ ، وكَثُرَ من جَرَّاء ذلك الجدلُ العقلي ، والنقاشُ الفلسفي مما مَهَّد السبيل الى وضع قواعد علم الكلام ، من قبل علماء الاعتزال .

وكان وضع قواعد علم الكلام موجِباً للنظر في علومٍ أخرى ، كعلم المنطق ، وعلم النفس ، وعلم الطبيعة ، وعلم الرياضة ؛ وعم الإلهيات ؛ ومن هنا يَتبيَّن ما للقرآن من أثرٍ عظيم في الثقافة الإسلامية بوجهٍ عام ؛ والعقلية العربية بوجهٍ خاص!

والمجال هنا – أيّها السادة – لا يتسع لتفصيل هذا الأثر العظيم فلأكتف بهذا القدر من الحديث من علوم القرآن – القرآن الذي هو مصدرُ عزتنا ومشعل هدايتنا ؛ ودستور شريعتنا ؛ ومصباح رشادنا ؛ وهادينا الى التي هي أقوم فعسى أن نكون ممَنْ يَتدبَّرون القرآنَ ويهتدونَ بمصباحهِ ؛ ويأوون الى ظل جناحهِ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(انتهى)

المُحاكاة وأثرها في الحياة

ليس في سُنَن الحياة الإجتماعية ما يُسيطر على سلوك الإنسان منذ نعومة أظفاره ، وخلقه كسُنّة المُحاكاة . فهي التي تُكيِّف سلوكه منذ نعومة أظفاره ، وهي التي تُغيِّر ما ألفه من عاداتٍ وأخلاق . ولم يكن تأثير هذه السُنَّة مقصوراً على الحياة الإنسانية في أطوارٍ جهلها وغفلتها – كما يتوهَّم بعضُ علماء الإجتماع – بل يتعدّاها الى أطوارٍ يكون العقل فيها يقظاً ، والفكر حصيفاً ، غير أنه – والحالة هذه – يبدو ضئيلاً بسيطاً ينتهز فرصة إنشغال الذهن بشأن من الشؤون فيظهر جلياً في حركات بعض الأعضاء ويُطلَق عليه آنئذ إسم ((المنابهة)) لا المحاكاة كما يَتضِح لك من الأمثلة الآتية:-

1- يتثاءب أحدُ الجُلاّس في مجلسٍ فيحاكيه آخرون ممَنْ شاهدوا تثاؤبه .

2- يتبسم لك صديقك فتبتسم له دون ما سبب .

3- يُصفِّق بعضُ المُستَمِعين للخطيب فيصفق الآخرون ، إنْ لم يستحسنوا خطبته .

4- تَسمعُ صوت آلة موسيقية أو طبل فتحاكيه بالنقر باصبعك على المنضدة أو بتحريك قدمك على الأرض .

وهناك أمثلة كثيرة تَمُرُّ عليك في حياتك اليومية ، وليس غرضنا في هذا الموضوع بيان منشأ هذه السنة ، وفلسفة نشوئها بل غايتنا إيضاح تأثيرها على الحياة الإنسانية في مختلف أطوارها ، فالطفل في بدء نشوئه لا يفتأ متأثّراً بما يَمرُّ عليه من أفعال يشاهدها وأقوال يسمعها وسرعان ما تنتقش في صحيفة ذهنه الخالي ، فَتكوِّن أخلاقه وتُكيِّف سلوكه – إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر – .

وهنا تتَجلَّى لك حكمةُ الخالق تعالى شأنه في خلق هذه السُنّة ، وأنها لم تكن عبثاً لا طائل تحته ، ولا غاية وراءه بل هي محور الحياة الاجتماعية وجرثومة التطور الخَلقي .

خُلِقَ الإنسانُ اجتماعياً لا يستطيع الاستقلال بالحياة كأفراد العجماوات بل قضت عليه ضرورة الرُقي العقلي والجسدي أن يعيش متعاوناً مع نبي نوعه ليؤلف معهم مجتمعاً حيوياً راقياً يكون الطرف الأعلى من سلسلة التطور الإجتماعي ، وهذا لا يتم إلاّ بتجاذب الأفراد تجاذباً يفضي الى تكوين ذلك المجتمع الحيوي الراقي ، ولا ريب أنّ هذا التجاذب لا يحصل ولا يتم ما لم يكن لسُنّة المحاكاة أثر قوي فيه .

إذا عرفت هذا أمكنك أن تُفسِّر كيف ينشأ الطفل شجاعاً أو جَباناً أو سَخياً أو بَخيلاً أو ... وكيف يستطيع تَعلُّم اللغة والمشي بمدةٍ قصيرة؟ وكيف يكتسب عادات خلطائه وعشرائه بزمنٍ يسير ، وأمكنك أيضاً – إذا كنتَ ممَنْ يعنون بتربية ناشئتهم – أن تَستفيد من هذه السُنّة ، أعنى المُحاكاة ، بأن تُوجِّه ميول ولدك الى الأمور المُفيدة والأعمال الصالحة ، وذلك لا يتم لك إلاّ بأن تكون له مثالاً سامياً ومقتدى حسناً وشخصية لا يَرى فيها من الصفات إلاّ ما يفتح له أبواب الأمل ، ويُنير له سُبلَ الحياة ، ويهديه سواء السبيل .

ومما يجب التنبّيه له أن تأثير هذه السُنّة لا يتجاوز درجة المُنابَهة إلاّ متى بدأ الطفل يفكر ويتكلَّم وحينئذ يدخل في دور المحاكاة والفرق بين المنابهة والمحاكاة أن الأولى لا يمازجها شيء من التفكير والتعقل، أما الثانية فبالعكس منها إذ يكون للطفل حينئذ شيء من المنطق ، فإذا وجد مَنْ يغُريه بإدخال يده في لهب أو بحمل جسمٍ ثقيل أو بعبور مخاضة امتنع عن محاكاته ، ولا نعني بهذا أنه يمتنع عن المحاكاة مطلقاً ، بل معظم أعماله متأثّرة بهذه السُنّة وإنما يمنعه من المحاكاة أحياناً غريزة الخوف التي تلازم التصور والتفكير ، وهنا يجدر بنا أنْ نتساءل: هل في استطاعة الإنسان أن يَتَخلَّص من تأثير سُنَّة المحاكاة متى تَمَّتْ له حرية التفكير والتعقل؟ أو متى حصل على نصيبٍ وافر من الثقافة؟ والجواب بالسلب ما دامَ الإنسان اجتماعياً بالطبع فإنَّ المحاكاة حينئذ تتطور الى ((تقليد)) يراه الإنسان من مُكمّلات العيش ولوازم الحياة كما ترى في تقليد الناس بعضهم بعضاً – وخاصة أهل البلد الواحد – في الأزياء والأبنية والتنظيمات المنزلية وغيرها ، وهنا تسيطر

هذه السُنّة على منطق الإنسان فتستخدمه وتُخضِعه لإرادتها ، وهذا هو السر في أنك ترى في خروجك عمّا ألِفهُ الناس وأجمَعوا عليه شيئاً من الخطل ، وتجد القاعدة العُرفية من القواعد المُسلَّمة التي لا تقبل التردد والجدل ولا يبطلها البرهان العقلي والمنطق الصحيح ، ألا ترى أنك تجد من الحكمة أن تَلفَّ على رقبتك رباطاً إذا كنت (أفندياً) . وتُداهِن إذا كنت عاملاً ، وتُكذّب إذا كُنتَ سياساً ، وكل أولئك عبثٌ أو قبيح ولكنك تراه حَسناً بحكم العُرف الذي هو وليد سُنَّة المحاكاة .

ترى مما تَقَدَّم أن هذه السُنَّة شديدة الإتصال بعادات الناس وأخلاقهم بليغة الأثر بنفوسهم ، وهما إما أن تعرج بهم الى مراقي السعادة والفلاح ، أو تهبط بهم الى مهاوي البؤس والشقاء حسب ما يصادف الإنسان من تربيةٍ صحيحة أو فاسدة ، ومغرياتٍ نافعة أو ضارّة ، ومنبت طيب أو خبيث وحسب ما يتهيأ له من عوامل زمانية أو مكانية تسلك به إحدى الطريقين – طريقي الفضيلة والرذيلة – .

وعلى هذا يجدر بمَنْ رامَ سلوك طريق الفضيلة أن يُعنى بتهذيب نفسه وتثقيفها بالعلم النافع الصحيح وأنْ يبتعد عن المُغريات الضارّة كالإجتماع بعشراء السوّء أو سَفلة الناس ، أما المَنبت الطيب فقد يَتَعذَّر عليه اختياره أولاً ولكن لا يصعب عليه أن يتخذ له بعد ذلك بيئةً صالحة تكثر فيها دواعي الخير وتقل فيها دواعي الشر فيكون بذلك قد أدّى واجبَه نحو نفسهِ التي هي أَنفسُ شيءٍ لديه ...؟

حاجتنا الى منطقٍ مُجرَّد

جرى بيني وبين أحد الشُبّان ((المُنَورين)) الجدل الآتي:

هو – لا سبيل إلى الإعتقاد بوجود شيء إلاّ من طريق الحواس الظاهرة لأنها أبواب العقل ونوافذه فلا يمكن تَعقُّل شيء إلاّ بواسطتها .

أنا – ذلك ما لا ينكرهُ عاقلٌ . أجل لولا الحواس لجهلنا كُلَّ شيء .

هو – فكيف تؤمنون إذن بوجودٍ غير محسوس؟

أنا – ماذا تعني؟

هو – أعني أنكم تؤمنون بوجود مُدَبِّر لهذا الكون لا سبيلَ إلى إدراكه بالحواس .

أنا – لا أظن أحداً يقول أنه لا سبيل الى إدراكه بالحواس لأننا لا نعلم وجوده وحكمته وعظمته إلاّ من طريق الحواس كما أنه لم يوجب علينا معرفته إلاّ من طريق الحواس: ((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) فبالحواس نُدرك آياته الكونية وآثاره الجليلة ومخلوقاته العظيمة، وكل هذه شواهد بَيِّنة على وجوده وأدلة مُحسَّة على عظمته، ويتفاوت الناس في إدراك عظمته تفاوتاً يتناسب طردياً مع مقدار ما أدركوه بحواسهم من أسرار هذا الكون العجيب . نعم إنّ الحواس قاصرةٌ عن إدراك كُنهِهِ وحقيقته كما هي قاصرة عن إدراك حقائق كثيرة نؤمن بوجودها ولا نعرف عنها سوى آثارها كالكهرباء والجاذبية والأثير والمغناطيس وكثيرٌ غيرها ...

هو – ولكنكم تفرضون لهذا المدّبر فروضاً لا يقبلها العقل ، فتقولون إنَّه مُنفَصِل عن المادة أنه لا مُتحرِّك ولا ساكن وأنه ليس في مكانٍ ولا يخلو منه مكان ويقول الإمام علي

(ع): داخلٌ في الأشياء غير مُلامسٍ خارجٌ عنها غير مُباين . ويقول أيضاً: مع كُلِّ شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة .

أنا – أجل ليس في هذه الأمور ما يُناقض حكم العقل إذ المُراد منها أنه تعالى مُنزَّه عن الجسمية والتَجسّد فمعنى انفصاله عن المادة كونه غيرها والحركة والسكون من لوازم الأجسام فلا يتصف بهما ما ليس بجسم . وكذا القول في المكان وقول الإمام علي (ع) يكشف النقاب عن هذه القضية ويُوضِّحها أَحسنَ ايضاح فقوله: ((داخل في الأشياء إلخ ...)) معناه أن قِوام الأشياء به ووجودها بوجوده فهو بهذا الإعتبار موجود في كل ذرةٍ من ذرات الوجود – إذا صَحَّ التعبير – من غير مُلامسة لها أي لا كوجود الدم في الجسم والبخار في الهواء لأنَّ المُلامسة من صفات الأجسام وهو ليس بجسمٍ وخروجه عنها عدم حلوله في شيء منها . لأنّ الحال يحتاج الى المحل وما يحتاج الى المحل جسمٌ فهو خارجٌ عن الأشياء من غير مفارقة لها لأن قوامها بوجوده وبمثل هذا يُفسَّر قوله (ع) ((مع كُلِّ شيء لا بمقارنة إلخ)) .

وطال الجدل في هذا الموضوع وانجرَّ الكلامُ الى بحث الوجود والعدم وإذا بصاحبي لا يؤمن بوجودٍ غير وجود المادة كما يصعب عليه تصور وجود غيرها . ولم يكن غرضي من نشر هذه المناظرة إلاّ مقدمة لتحليل نفسية شبابنا (المُنوَرين) تحليلاً يوقفنا على سِرِّ انطباعاتهم بهذه الآراء الشاذة . ليتسنّى لنا بعد ذلك اصلاحهم من طريق الحكمة والمنطق ومن الناحية التي يهوونها ويميلون إليها .

إنَّ شبابنا – سدد الله خطاهم – بحاجة الى منطقٍ مُجرَّد وأعني بالمنطق المُجرَّد ما كان خالصاً من مؤثرات الأهواء ونزعات العواطف . ويجب ألاّ نستغرب منهم هذا المنطق العقيم وذلك الشذوذ في الآراء والمعتقدات لأنهم يعيشون في عصرٍ تسيطر فيه المادة وتَتحَكَّم فيه العادة ويُزاحِم فيه حكمُ العاطفة حكمَ العقلِ وشَذَّ منا مَنْ لا يتأثر بهذه الأمور .

أننا مخلوقون من المادة ومحاطون بها، أَلِفَتْ أبصارنا مناظرها وأسماعنا أصواتها وعقولنا صفاتها وخواصها فأصبحنا نرى المادة كُلَّ شيء . وكُلُّ شيء هو المادة . ويظهر أثر ذلك فيما إذا أردنا تصور المعنى المُجرَّد فلانغماسنا في المادة وألفنا لها لا يمكننا تصوّره إلاّ بعد أن يسبغ عليه وهمنا صورة هيولانية . ولو أنك اختبرت عقول العامة من الناس في مسائل توحيدهم لرأيتهم مُجَسَّمين أكثر منهم مُوحَّدين فهم لا يعرفون من اللوح والقلم واليد والعرش والكرسي إلاّ أموراً جسمانية مُتحيِّزة وربما تَوهَّم البعض منهم أن الخالق محمول على عرشه وأنَّ عرشه فوق السماء السابعة – تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً .

وإذا كانت هذه حال المُتدينين فما قولك فيمَنْ لا يَصونَه دين ولا يَزينَهُ عقل ولا يُؤدبهُ منطق . وإذن فينبغي لإصلاح هؤلاء أن تُراض أفكارهم أولاً بالقضايا البديهية المُحسَّة التي لا مجالَ للشك فيها فيكون الأثر مُفتَقِر الى المُؤثِّر وكون الموصوف غير الصفة وكون الشيء لا ينفعل عن مماثله إلخ . وحينئذ يمكن توجيه عقولهم الى تَعقُّل المخلوقات الكونية وأنها قسمان مادة وغير مادة . وأنها لو كانت كلها مادة لبطل التفاعل في الكون ولأصبح العالم كُلُّه حقيقة واحدة صَمّاء لأنّ المادة حقيقة واحة لا تأثيرَ لها في نفسها ولا تنفعل عن مُماثلها – هل ينفعل الماء عن الماء؟ والهيدروجين عن الهيدروجين؟ والخارصين عن الخارصين؟ وإذن فَوَجَبَ أن يكون في الكون أشياء غير مادية . وبناءً على تعريف المادة وأنها الذي يشغل فراغاً في الفضاء يكون الموجود غير المادي (مُجَرَّداً) عن الفراغ (المكان) وبعد تَعقّل المُجرَّد يَسهل تَصوُّره ، كونه غير مُتحرَّك ولا ساكن وكونه داخلاً في الأشياء من غير مُلامَسة لها وكونه يحتاج الى مكانٍ لا يصعب أن نجد لذلك أمثلة كثيرة، كالعلم والشجاعة والذكاء والحياة . فهل يُقال في هذه الأشياء أنها ساكنة أو متحركة أو مُتحيِّزة في مكانٍ أو مُلامِسة لأبدان أصحابها .

وصَفوةُ القول أن ما وَقعَ فيه بعضُ شبابنا من إنكار الحقائق المُحسَّة لم يكن إلاّ لفقدانهم (المنطق المُجرَّد) وانغماسهم في الأمور المادية الصِرفة، فعسى أن يهتم رجال الإصلاح منا الى هذه الناحية فيعمدون الى غرس عقيدة التوحيد في نفوس شبابنا من طريق الوجود الحسي فيكشفون النِقابَ عن كثيرٍ من المصطلحات الفلسفية التي يَقصُر عن فهمها إدراك الناشئ الفتيّ والتي تكون سبباً في ضلاله وإلحاده بدلَ أن تكون عاملاً في هدايته وتوحيده ..؟

لغة الدين ولغة العلم –1–

ما زالَ كثيرٌ من علماء هذا العصر يحاولون فصل الدين عن العلم ويريدون بالدين أنه جملةُ اعتقادات وعبادات يتَقرَّب بها العبدُ الى معبوده ، وبالعلم ما بُنيَ على التجارب والاختبارات كالعلوم الطبيعية . ويَرونَ أنَّ الدين والعلم أمران لا يمكن اجتماعهما بحالٍ فما كان من الدين لا يمكن أن يكون من العلم في شيء ، لأنَّ الأول لم يكن إلاّ مجموعة تقاليد موروثة في العقائد والعبادات لا تخضع لقوانين العلم وقياسات العقل ، وأما الثاني فمَبني على الحس والمُشاهَدة والنظر العقلي . وهم إذا ما أطلقوا لفظ (الدين) أرادوا به الجنس العام بلا فصل ولكنهم لا يريدون من لفظ (العلم) إلاّ معناه الخاص . فإذا قالوا إنَّ الدين مباين للعلم أرادوا بالأول جميع الأديان من دون استثناء . وأرادوا بالثاني العلم الطبيعي دونَ سواه ، ونحن إنما نناقشهم في هذه الناحية . فإنّ كون بعض الأديان لا يتفق والعلم الطبيعي لا يلزم منه أنّ كل الأديان كذلك كما أنّ مباينتها للعلم الطبيعي لا تستلزم أنها مُباينة للعلوم العقلية الأخرى كعلم النفس والمنطق وعلم ما وراء الطبيعة . على أننا إذا أخذنا الدين الإسلامي مُجَرَّداً مما لَصَقَ به لرأيناه من أكثر الأديان انطباقاً على العلم وأقواها معاضدةً للعقل . بيد أنَّ هناك مَنْ يشك في هذا القول ويرى إنَّ الإسلام وإنْ أخذ مُجَرَّداً فإنّ كثيراً من تعاليمه لا يؤيدها العلم بل قد يعارضها . ولا ريب أنّ هذا جهل بحقيقة الإسلام وجوهره والذي جَرَّ هؤلاء الى هذا الجهل بعد ما بين للغتين – لغة الدين ولغة العلم – فإنَّ لكُلٍّ من العلم والدين لغة تُباين لغةَ الآخر سواء ذلك في أسلوب التعليم أم في أسلوب التأليف .

خُذْ كتاباً في التوحيد الإسلامي وتَتَبَّع الاسلوب الذي يجرى عليه مؤلفه في البحث عن الصانع تعالى وآثاره وصفاته ، نجده لا يعنى إلاّ بالبراهين الكلامية التي لا تتفق ومصطلحات العلوم الحديثة وخاصة العلوم الطبيعية المبنية على الحس والمشاهدة . فإذا أراد المؤلف البحث عن وجود الصانع تعالى شأنه قال: ((الموجود إنْ كان واجباً فهو

المطلوب وإنْ كان ممكناً افتقر الى مُؤثِّر بالضرورة وذلك المؤثر إنْ كان واجباً ثبت المطلوب وإلاّ افتقر الى مؤثرٍ أيضاً فإنْ كان هذا واجباً فهو المطلوب وإلاّ تسلسل أو دور)) . وإذا أراد البحث عن قدرته قال: ((إنّ العالم حادثٌ فالمؤثر فيه إنْ كان موجباً لزم حدوثه أو قِدم العالم والتالي بقسميه باطل فَظَهَرَ أنّ المُؤثِّر قادرٌ مختار)) وإذا أراد البحث عن علمه قال: ((الإحكام والتجرد واستناد كل شيء إليه دلائل العلم)) وخُذْ كتاباً في العبادات تجد مؤلفه يتوخّى فيه سرد النصوص المأثورة لبيان فضائلها ومزاياها دون شرح وايضاح ففي تشريع الصلاة يقول: ((الصلاة عماد الدين إذا قُبِلَتْ قُبِلَ ما سواها وإذا رُدَتْ رُدَ ما سواها مَنْ لا صلاةَ له لا إيمان له)) .

وفي تشريع الصوم يقول: ((نوم الصائم عبادة وصمته تسبيح وعمله مُتقبّل ودعاؤه مُستجاب)).

وفي تشريع الحج يقول: ((الحاج مغفور له وموجوب له الجنة مُستأنفٌ به العمل ومحفوظ في أهله وماله)) .

كل ما ذُكِرَ لا ترضاه التربية الحديثة ولا يقبله منطقُ العلم الجديد ، لأنه لا يَفهم هذه اللغة، ولم يألَف هذه التعابير فهي في عُرفِه تعابيرٌ لا يؤيدها العلم ولا تثبتها التجربة، ونحن لا نريد أن نقول بقوله أو نعتقد معتقده ولا اعتراض لنا على مأثور الدين الحنيف ونصوص الشريعة الغرّاء لعلمنا أنها لم ترد إلاّ عن وحيٍ مُبين ولسانٍ صادق وأنها كانت في الزمن الذي قُبِلَتْ فيه كبيرة القيمة عظيمة الفائدة موفيه بالغرض . أما اليوم وقد قويت فيه نزعات الشك واندكَّت فيه أسس العقائد فلم يعد الإقتصار على ذِكرها كافياً ما لم تُشرَح شرحاً وافياً يَشهدُ به الحسُ ويقبله العلم .

ونأتي الآن الى أسلوب العلم الحديث لنستجلي صورته ونتَعرَّف لغته وبحسبنا أنْ نقف عند كتاب من كتب التأريخ الطبيعي أو الكيمياء أو الفلك فنرى المؤلف يقول عند كلامه على تركيب الخلية الحية (البروتو بلازما): ((أنها مُركَّبةٌ من أربعة عناصر هي

الأوكسجين والهيدروجين والكربون والأُزوت . غير أننا لو أردنا تركيب خلية حية من هذه العناصر مع المحافظة على نسبها الكيمياوية لما أمكننا ذلك لأنّ الخلية ليست تركيباً كيمياوياً فحسب بل هي جسمٌ حي)) .

ويقول آخر عن الفيل: إنه يستخدم خرطومه كما يستخدم الإنسان يده لأنَّ ضخامة جسمه استلزمت ضخامة رأسه وضخامة رأسه استلزمت قصر عنقه ولما كان تناول الطعام من الأرض عسيراً عليه فقد مَدَّت الطبيعة في أنفه وهو ما نُسمِّيه بالخرطوم وبه يستطيع أن يلتقط الأشياء الدقيقة حتى الأُبر.

ويقول آخر عن الفصول: إنَّ ميل محور الأرض عن مستوى الفلك سبب حصول الفصول الأربعة التي لولاها لاستحالَ وجود الحياة على سطح الأرض .

ولا ريب أنّ هذه التعابير غير مُوصِلة الى التعليل العلمي الصحيح ، كما أنّ نسبة القَصد والإحكام الى الطبيعة الصمّاء أمرٌ غير معقول وبهذه اللغة لا يستطيع طالبُ العلم أنْ يصل الى حَلٍّ مُرضٍ لأيةِ ظاهرة من ظواهر الكون وحينئذ يكون ادراكه للأشياء إدراكاً سطحياً لا يكسبه يقيناً ولا يوقفهُ على حقيقة .

أوليس مَنْ يجد نفسه أمام حقائق مجهولة؟ فيقول مُستَوضِحاً ما سِرُّ حياة الخلية؟ ولماذا لا نستطيع تركيبها من عناصرها المُكوَّنة لها؟ وكيف شعرت الطبيعة بحاجة الفيل الى الخرطوم فَمدَّت في أنفه؟ وما سبب الميل في محور الأرض؟

هذه الأسئلةُ تشغل بالَ الباحث فتدفعه الى طلب الحقيقة فلا يجد في أصول العلم الحديث ما يُوصِله الى طلبه سوى هذه الألفاظ (الطبيعة – الحرارة – البيئة – الوراثة – الأثير) وهي ليست عِللاً أولية بل كُلٌّ منها مُفتَقِرٌ الى تعليل . وحينئذ لا يجد الباحث في هذين العِلمين – علم الطبيعة وعلم الدين – ما يشفي له عِلة أو يروي له غِلة لإختلاف لغتيهما وتباين غايتها وسيبقى الدين عدو الطبيعة وتظل الطبيعة عدوة الدين ما دام لكُلٍّ منهما لغة خاصة وأسلوبه المُباين .

لقد كان هذان العلمان لعهد الإغريق متآخيين متآزرين لا غِنى لأحدهما عن الآخر ولا مَزية لأحدهما إلاّ بالآخر لأنهما كانا مُتفقَى اللغة مُتحدَي الغاية فكانا في كتب الفلسفة الإغريقية يمشيان جنباً الى جنب في البحث عن حقائق الأشياء وربط الأسباب بالمُسببات والاستدلال على وجود العِلّة الأولى وصفاتها وآثارها. ثم جاء الإسلام بالتوحيد المَحض فلفت الأنظار وَوجَّه العقول الى الكائنات الطبيعية من سماوات وأرضين وحيوان ونبات مُتخذاً من آياتها الباهرة وحكمها العجيبة أنصع الأدلة وأقوى البراهين على وجود الصانع وتوحيده وآثاره وصفاته ويكفى لإثبات ذلك مراجعة أدلة التوحيد في القرآن المجيد ، ووصف السماء والأرض والإنسان والطاووس والخَفّاش والنَملة والجَرادة في كلام الإمام علي (ع) ، أما اليوم فقد انقطع حَبلُ الصِلة بين الدين والطبيعة فتنافرا وتناكرا وصار لكل منهما حزبه الذي يَتعصَّب ويناضل عنه. وَخَلتْ كُتبُ الدين من أية قاعدة طبيعية ، كما خَلَتْ كتبُ الطبيعة من أيةِ فكرةٍ دينية . ولو أنصفَ المُنصِفون من الحزبين لعلموا لا سبيل الى التوحيد إلاّ الطبيعة ولا غنى للطبيعة في تعليل أسرارها عن التوحيد وأنّ مَحَلَّ التوحيد من الطبيعة محل الشعاع من السِراج والنتيجة من المُقدِّمتين (يتبع) .

لغة الدين ولغة العلم -2-

إنّ خَيرَ وسيلة لغرس الفكرة الدينية في النفوس ربط الدين بالطبيعة . فإذا أردنا الإستدلال على وجود الصانع وصفاته وآثاره يكفي أن ندرس ظواهر الكون وَنتَفهَّم عللها وأسرارها، وما فيها من شواهد الحِكمة وعجيب الصنع وآيات الإبداع، وحينئذ لا مَناصَ من أن نجدنا مُعترِفِين بوجود الصانع الحكيم مُقرِّين بوحدتهِ وقدرتهِ وجماله وكماله وأزليته وسرمديته، ومن هذه الإنطباعات نرى إنّا مدفوعون الى إكباره وإجلاله وشكره وحمده وأداء واجب عبادته والقيام بفرائض دينه وسُنن شريعته دون جبر أو إكراه، ولعمري إنّ هذه العبادة هي المَعنية بقول صاحب الشريعة الإسلامية (ص): لا عِبادة كالتَفكَّر لأنها تصدر عن إيمانٍ صادق وعقيدةٍ راسخة ومعرفةٍ بعظمة المعبود وسر تشريع العبادة .

وكما تكون الطبيعة خير واسطة لدراسة الدين كذلك يكون الدينُ خيرَ واسطة لدراسة الطبيعة فَعلمُ الطبيعة اليوم لا يُعنى إلاّ بدراسة الظواهر فحسب أما الأسباب والعِلل فلا يَحفَل بها ولا يَتعرَّض لها ، فلو أنك وجَّهت الى العالم الطبيعي أسئلةً عن سر حياة الخلية والبروتوبلازمية وسبب ميل محور الأرض وعِلّة تفاعل الأوكسجين مع الهيدروجين وماهية الطبيعة التي يُنسب إليها جميع أفعال الكون، لأجابك بأنَّ هذه أمور طبيعية لا سبيلَ الى معرفتها ، والسرُّ في ذلك أنّ العالم الطبيعي يكره أن يكون لبحثه أية صِلة بالدين فهو يَفرُّ من البحث عن العلل والأسباب مخافة أنْ يضطره بحثه الى الإعتراف بوجود العِلة الأولى التي هي مصدر كُلِّ حِكمة ومنبع كُلِّ إفاضة، فجاءت بحوثه ناقصة مبتورة وقد يضيق به مجال التعبير أحياناً فيلجأ الى أبواب الإنفعال والإفتعال والتَفعّل مثل: انفصلت الأرض عن الشمس ، انتظمت حركتها وتطورت الأحياء على سطحها . ظانّاً أنّ هذه التعابير تُغني عن ذكر الأسباب والعِلل ونَسيَ أنّها من أفعال المطاوعة التي

هي مَعلَولة بالضرورة لأفعالٍ أخرى غيرها . وقد تضطره فطرتُه أحياناً الى نِسبة الأثر الى مُؤثِّر فينسب مالا يرى للصدفة مجالاً فيه الى الطبيعة الصَمّاء وهو لو أنصف لرأى خطأه جلياً لا إبهامَ فيه ولا غموض .

وصفوة القول إنّ ما وَقَعَ من سوء التفاهم بين رجال الدين ورجال العلم الطبيعي لم ينشأ إلاّ من تنافر اللغتين – لغة الدين ولغة العلم – فإذا أراد رجال الإصلاح أن يُوفِّقوا بين الفريقين فما عليهم إلاّ أن يجعلوا كلتا اللغتين لغةً واحدةً تخدم الدين كما تخدم العلم ليتَسنّى لكُلٍّ من الفريقين التفاهُم مع الآخر دون تنافر أو خلاف .

لَعلَّ أبسط دليل على تنافر اللغتين – لغة العلم ولغة الدين – ما تجده مسطوراً في كتب الطبيعة والدين عن كيفية تَكوِّن المَطر وتعليل حدوثه . ففي الكتب الدينية: إنَّ المطر يحصل من السحاب الذي يأخذ ماءه من البحر المكفوف وهو بَحرٌ مُعلَّقٌ بين السماء والأرض، وقد يُطلَق عليه أحياناً (بحر القُدرة) وقد وَكَلَّ اللهُ تعالى أمر تدبير السُحب والأمطار الى الملائكة الذين يسوقون السَحاب بأسواطٍ هي البروق ويزجّونها بأصواتٍ هي الرعود .

أما في الكتب الطبيعية فالمطر نتيجةُ الأبخرة المائية المُتصاعِدة في الجو من البحار والأنهار بتأثير حرارة الشمس فيحمل الهواء الجوي مقادير عظيمة منها ، حتى إذا ما انخفضت حرارة الجو انعقدت سُحباً يتداخل بعضُها ببعضٍ فَيحدِثُ من تداخلها بفعل الكهربائية ما يُسمّى برقاً ورعداً ثم إذا صادفت طبقةً هوائية حارة هطلت مطراً .

فأنت ترى من تفاوت اللغتين أنَّ لكلٍّ من رجل الدين ورجل الطبيعة مذهباً خاصّاً في تعليل تكوّن المطر يُباين به الآخر مع أنه ليس هناك فرقٌ كبير ، بل المُتأمِل لا يرى بين المذهبين آية مباينة وإنْ تنافرت لغتاهما واختلفت عباراتهما فإنّ البحر المكفوف أو بحر القُدرة المُعلَّق بين السماء والأرض هو الأبخرة العظيمة التي يحملها الهواء الجوي والملائكة المَوكُول إليها أمر تدبير السُحب والأمطار قد تكون هي القوى الخفية التي يَطلِقُ عليها علماء الطبيعة أسماء: الكهربائية والحرارة والجذب ، وكون البرق سوط الملك

والرعد صوته مجاز لغوي استحسن استعماله للتمثيل اللائق بالمقام، وما دامت كتب الدين لا تَتَعرَّض لتفصيل حقيقة الملائكة التي تسوق السُحب وبيان كنهها وصفاتها فلا مانع شرعي من اطلاق إسمها على القوى الخفية الكامنة في المواد الجوّية وما دامت كتب الطبيعة لا تتناول أيضاً حقائق هذه القوى بل تجهل أسرارها وصفاتها فلا اعتراض لها على إطلاق إسم الملائكة عليها . على أنّ عدم إدراك علماء الطبيعة لحقائق الملائكة لا يدل على عدم وجودها والعلم لمّا يزل مُعتَرِفاً بعجزه عن الإحاطة بجميع ما في الكون . وإذاً فلتكن الملائكة من الجواهر الروحية التي لم تصل الى حقائِقها وسائل العلوم الطبيعية كما لم تصل الى حقيقة كُلٍّ من الحياة والعَقل والنفس وإذاً فليس ثَمةَ أمر جوهري يُباين فيه الدين العلم إلاّ اللغة وأساليب التعبير .

ولنعد الآن الى العبارات الدينية التي ذكرناها آنفاً حول إثبات وجود الصانع تعالى وقدرته وعلمه وتشريع كل من الصلاة والصوم والحج فَنذكُر ما تحتاج إليه من شرحٍ وما تفتقر إليه من بيان لتلائم روح العصر وتقع عند رغبات النَشء الجديد .

خير من براهين الدور والتسلسل والوجوب والإمكان والإمتناع أن يُقال في إثبات وجود الصانع: إنّ العلوم الطبيعية والكيمياوية تعترف بأنّ المواد الكونية بأسرها خاضعة لنواميس رياضية ثابتة وسُنن طبيعية معلومة لا مَجالَ للصدفة فيها ، فإذاً لا مناصَ من أن يكون ذلك بفعل فاعلٍ قديم ، ولما كانت هذه النواميس والسُنن في نهاية الحكمة والإبداع كان هذا الفاعل حكيماً قديراً عالماً .

وأن يُقال في تشريع الصلاة: إنها فريضة مشروط في صحتها الطهارة وحضور القلب ومراعاة الوقت وإباحة ما يحتاج إليه المُصلّي من مكانٍ ولباسٍ وطهور ، فإذا ما أمرنا رجلاً بالصلاة فكأننا قُلنا له: كن طاهر اللباس والبدن في معظم الأوقات ولا تشرب الخمر بل أشعر قلبَك مخافةَ الله تعالى – الذي يراك في كل آن ولا تهمل أداء واجباتك بأوقاتها ولا تغتصب مال الغير بأي وجهٍ كان . ولا ريبَ أنّ في مزاولة هذه الفريضة بشروطها نهياً

عن الفحشاء وردعاً عن المنكر، فهي إذاً عماد الدين ودعامة الإيمان . وأنْ يُقال في تشريع الصوم: أنه خير واسطة لرياضة النفس وتقوية الإرادة ومقاومة الشهوات والتعوّد على الصبر وبه يشعر الغني الصائم بجوع الفقير المَحروم فيحنو عليه ويرثي لحاله . وبذلك يَتقبَّل اللهُ عمله ويستجيب دعاءَه(*) .

وأنْ يُقال في تشريع الحج: أنه أعظم جامعة إسلامية تجمع المصريّ والسوريّ والعراقيّ والهنديّ و ... فتلتقي فيهم روح الأُلفة وتُوثَّق بينهم روابط المَودَّة وتجمعهم على الوفاق وتُؤلَّف منهم أمةٌ إسلاميّة قوية كثيرة العدد وثيقة العُرى راسخة العقيدة ثابتة المبدأ وعلى هذا يكون المنتمي الى هذه الجامعة محفوظاً في أهله وماله مشمولاً بقوله تعالى: ((إنما المؤمنون إخوة)) فيستأنف به العمل ويُغفَر له الذنب وتجب له الجنة .

بهذه اللغة أولى أن تُكتَب كُتب الدين التهذيبية وبهذا الاسلوب يجب أن يُخاطب أولئك المتطرفون الذين زعموا أنّ الدين والعلم أمران متناقضان ليَعلموا أنّ ليس في تعاليم الدين إلاّ ما يُهذِّب الأخلاق ويُثقِّف العقول ويُطهِّر النفوس ويسمو بالمجتمع الإنساني الى أوج السعادة والكمال .

(*) في الأصل دعاؤه .

الغاية والواسطة

يُقال أن النشء غاية إذا كان للسؤال عن حصوله بلم جواب ، إذ الغاية هي جواب لم يحصل؟ فإذا قيل: لِمَ صُنِعَ التلسكوب؟ كان الجواب: لرصد الأجرام السماوية ، فالتلسكوب واسطةٌ ورصد الأجرام غاية . وقد ذهب أرسطو ومَنْ تبعه من حكماء الإغريق الى أنّ لكل شيءٍ غايةٌ يستحيل وجوده بدونها إذ هي إحدى علله الأربع (الفاعل والصورة والمادة والغاية) – التي زعموا أنّ كل مُمكِن مُفتَقِرٌ في وجوده إليها . والذي تجب الإشارة إليه هنا أنّ جواب لِـمَ قد يقع بعد السؤال وقد لا يقع تبعاً لكون المسؤول عالماً بالغاية أو جاهلاً بها . والجواب الواقع بعد السؤال قد يَصدَّقُ وقد يُكذَّب وقد يُقرَّب من الحقيقة أو يُبعد عنها وعلى كُلٍّ فلا بد من غاية . وعدم اهتداء المسؤول الى معرفتها لا يدل على عدم وجودها .

ثم أنّ كُلَّ غاية إنْ كان حصولها باختيار الفاعل كانت ((غاية مقصودة)) وإلاّ فهي ((النتيجة)) ومن ثم كان اجتهاد العالم ونجاح الطالب في المدرسة وعدل السلطان أو ظلمه (غايات) لكونها مُسبِّبة عن محض إرادة الفاعل واختياره – وكلام النائم واختلاج العضو وسقوط الشخص من السطح (نتائج) لعدم اختيار الفاعل فيها . وأعمال الإنسان الاجتماعية من إقامة وسَفَر وكَسب وإنفاق واتفاق واختلاف وغيرها كُلُّها مقرونة بغاياتٍ مقصودة يتخذ الإنسان الوصول إليها شتّى الوسائل ومختلف الأسباب . فهذا طالب غايته نيل الشهادة الثانوية فهو يدخل المدرسة الابتدائية أولاً ثم الثانوية ويقتني الكتب اللّازمة ويخضع لأنظمة المدرسة ويواظب على الدرس والمطالعة لتحقيق غايته ، وهذه سيدة غايتها استهواء زوجها واستمالته إليها فهي تجتهد في أن تقابله بأبهى حُلَّة وأجمل زينة مُقدَّمة إليه من الطاعة والولاء ما تصبو إليه نفسه ويرتاح إليه قلبه لتظفر منه بغايتها المطلوبة وأُمنياتها المرغوبة .

والغايات مرتبطة بالوسائل ارتباط الأثر بالمُؤثِّر أو النتيجة بالمقدمة بيد أننا كما نجهل الغاية أحياناً نجهل الواسطة كذلك فنتخذ من الوسائط مالا يُوصِلنا الى غايتنا وأمنياتنا ، ومثال ذلك طالب اجتهد للحصول على شهادة عالية لغاية التوظّف في دائرةٍ ما فنجح بالواسطة وأخفق بالغاية وسبب أخفافه أن الشهادة نفسها مهما كانت عالية ليست واسطة حقيقة للتوظف وإنما هناك وسائط أُخر . ومثل هذا من يعتقد حفظ العلوم واسطة النبوغ ودراسة علم العروض واسطة لنظم الشعر والمراباة واسطة للثروة والتَكبُّر واسطة لعزِّ النفس وليس الأمر كذلك . وأنّ من الصعوبة بمكان أن تناقش الشخص بغايته التي يعتقدها ويسعى للحصول عليها ؛ لأنّ الغاية تتبع العاطفة دائماً أو غالباً فيندر أن تأتي المناقشة فيها بنتيجةٍ حاسمة ، أما الواسطة فيكثر أن تنجح فيها المناقشة لنُدرة مساسها بالعاطفة ، وهذا هو السرُّ في أنّك تجد الناس يتفاهمون في الوسائط ولا يمكن تفاهمهم في الغايات، وعلى هذا لو أنّك ناقشت كلا من الراغبين في (النبوغ والشعر والثروة وعِزَّة النفس) في غايتهم بأن حاولت صرفهم الى غاياتٍ أخرى لم تجد نتيجة من هذه المناقشة لا تجاه عواطفهم نحوها، ولكن لا مانعَ من المناقشة في الوسائط بأن تُبيِّن لهم وسائط أخرى هي أجدى نفعاً وأكثر فائدة من (حفظ العلوم ودراسة العروض والمراباة والتَكبُّر) .

بقيت هنا مسألة مهمة لابد من الإشارة إليها وهي: هل الانسان حُرٌ في اختيار الوسائط التي يعتقدها مُوصِلة للغاية؟ والجواب أن كلا من الغاية والواسطة ينقسم الى مقبول وغير المقبول ما وافق العقل والوجدان أو الرأي العام وغير المقبول عكسه . وعند نسبة الواسطة الى الغاية تحصل عندنا اعتبارات أربع:

أ- أن يكون كُلٌّ من الواسطة والغاية غير مقبول .

ب- أن تكون الواسطة مقبولة والغاية غير مقبولة .

ج - أن تكون الواسطة غير مقبولة والغاية مقبولة .

د – أن يكون كُلٌّ من الواسطة والغاية مقبولاً .

أما الأمثلة على الإعتبار الأول كالرجل يقتل الآخر ليسلبه ماله أو يُكذِّب على الناس ليغشّهم وكالمرأة الخائنة تغتال زوجها لتخلو بعشيقها، ومثلها التي تَتبرَّج أمام الناس لتبيعهم عرضها ، وهؤلاء هم الفوضويون الذين ماتت في قلوبهم عواطف الخير وإنطفأ في نفوسهم نورُ الوجدان فلم يكن ليردعهم عقلٌ أو يضبطهم نظامٌ فهم لذلك مصدر الشرور ومنبع الآثام .

وأما الأمثلة على الإعتبار الثاني كالمُصلي لقصد الرياء وغِش البُسطاء ، وكالمُستَعِمر يعطي الحرية الدينية للبلاد المُستَعمَرة ليسلبها حريتها السياسية ، ويَمتصَ ثروتها الوافرة دون معارض ؛ والمُشعِوذ يَدرسُ بعض العلوم ليستعين بها على شعوذته، ومثل هذا لصوص البلاد الغربية فإنهم يَتخرَّجون من مدارسَ عالية ويَتعلَّمون عدةَ لغاتٍ ويتقنون بعض الفنون الصناعية ليستعينوا بها على سلب الأموال وإزهاق الأرواح وأصحاب هذه الطريقة – أعني الذين يَتخذونَ وسائط مقبولة لغاياتٍ غير مقبولة – أكثر خطراً على المجتمع من الفوضويون المار ذكرهم لأنهم يظهرون الخير ويبطنون الشر ، وسرعان ما يقع الإنسان في حبائل مكرهم ومصائد كيدهم وهم الذين يصدق على أحدهم المثل السائر: ((يَدسُّ السُمَ في العَسل)) أو قول الشاعر:

يُعطِيكَ من طرف اللسانِ حَلاوةً ويَروغُ عَنكَ كما يَروغُ الثَعلبُ

وأما الأمثلة على الإعتبار الثالث، كالرجل يكسب المال من الحرام ليُقوِّم به أود عائلته ويشيِّد به داراً للضيافة أو يَتصَدَّق به على الفقراء، وكالمرأة تَنمُّ على ضَرَّتِها عند زوجها لتستميل قلبه إليها، وكالطالب يَستَعمل الغِشَ في الإمتحان ليفوز بالنجاح. وأكثر مزاولة لهذه الطريقة هم رجال الإدارة والسياسة لقصد توطيد الأمن في البلاد وتسهيل أمور الرعية على زعمهم ومذهبهم في ذلك مذهب (مكيافيلي) و(كافور) و(درزائلي) و(بسمرك) الذين ذهبوا الى أنّ الغاية تُبرر الواسطة . بيد أنّ الدين الإسلامي الحنيف

الذي جاء يُقوِّم الحقَ ويقاوم الباطل ويعمم الفضيلة بأكمل معانيها وأسمى مقاصدها حظر على المسلمين اتباع هذه الطريقة بل متبعيها فقد جاء في الكتاب المجيد ((وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)) وفي مكانٍ آخر ((وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)) وفي مكانٍ آخر ((قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ)) ورغم تحريم الإسلام هذه الطريقة فقد سار عليها خلفاءُ بني أُميّة كلّهم باستثناء عمر بن عبدالعزيز، وخلفاءُ بني العباس أيضاً . يَعرفُ ذلك كُلُّ مَنْ راجع تأريخ القوم ودرس سيرهم واستقصى أخبارهم ، ومن أشهر ما ساسوا به البلاد: تصرفهم في مالية الدولة وفسق رغائبهم وأهوائهم وقتلهم كثيراً من المسلمين غِيلة ، وتسامحهم في إقامة الحدود وسماحهم الوثنيين والمجوس من أهل البلاد المفتوحة، بالبقاء على وثنيتهم وعبادتهم فتركوا لهم أصنامهم ومعابد نيرانهم واكتفوا منهم بأخذ الجزية خلافاً لما سار عليه النبي (صلى الله عليه واله وسلم) والخلفاء الراشدون كما أنهم أخذوا الجزية من المسلمين أنفسهم .

وأما الأمثلة على الإعتبار الرابع كالرجل يعتني بصحته ليتمكَّن من طلب العلم، وكالمُصلي يعني بطهارة بدنه وثيابه لتصح صلاته، وكالتاجر يَتفقَّه في الحساب لتسلم تجارته من الحرام، وكالسلطان يعدل في أحكامه ليُرفِّه على شعبه، وبهذه الطريقة جاء الإسلام وعليها سار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلفاؤه المهديون فإنَّ مَنْ يدرس سيرة النبي العظيم ويَتصَفَّح تأريخ سياسته وقواعد تشريعه يعلم أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يُجوِّز ما جَوَّزه بعضُ علماء السياسة من أنّ الغاية تُبرِّر الواسطة فلم تكن سياسته القويمة لتقضي إلاّ أعمالاً شريفة لمقاصدَ شريفة ووسائط مقبولة لغايات سامية حملاً للناس على اكتساب الفضيلة واجتناب الرذيلة: فلم يَروِ لنا تأريخه الشريف أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) استعمل المداهنة والمداجاة والمخادعة في دعوته رغم ما كان يلاقيه

من عَنتِ قريش وإيذائهم له ، وكان أولَ عَملٍ قام به عندفتح مكة تحطيم الأصنام التي كانت تُقدِّسها قريش وتَحجُّ إليها دون مُجاملة أو مُحاباة ، وكانت ثقيف قد طلبت إليه أن يبقي لها وثنها مدة ثلاث سنين فلم يوافق على بقائه يوماً واحداً وأمر بإحراقه في الحال .

كذلك كانت سيرته (صلى الله عليه وآله وسلم) في جميع أعماله صغيرها وكبيرها ، وعلى هذه السيرة نهج خلفاؤه الراشدون على ذلك فقد عُرِفَ من سياسة الإمام علي (ع) أنّه كان شديداً في الحقِّ بعيداً عن المُداهنة والمداجاة حريصاً على اتباع الدين الحنيف ، فلم يَروِ لنا تأريخه الناصع أنَّه تهاون أو تساهل في إقامة حَدٍّ، ولقد كان في استطاعته أن يَستَعمل الخداع مع خصومه، ويتَآلفهم بالأموال و(العسل)(*) كما صَنَعَ معاوية ، ولكنه لم يشأ ذلك اقتداء بسُنّة الرسول الأعظم وهو القائل لأهل الكوفة لما تخاذلوا عن نصرته: ((أني والله لعالمٌ بما يصلحكم ويُقوِّم أودكم ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي)) .

والخلاصة: أن ما يَتذَّرع به بعض مُحبي الجور والظلم من مخالفة القوانين والأنظمة – شرعية كانت أم عُرفية – جائزٌ عند اقتضاء المصلحة غير مقبول . فقد قالت الحكماء: ((إنّ مَنْ ضاقَ عليه العدل كان الجور عليه أضيق)) .

(*) هذه الإشارة من الأستاذ محمد جواد جلال الى قول معاوية عندما توفي مالك الأشتر بالعسل المسموم (إنّ لله جنوداً من عسل) .

التجارة بنظرة دينية

التجارة هي البيع والشراء لغرض الربح ، وقد يُطلق اللفظ على ما يُتَّجَر به كالبضاعة المبيعة أو المُشتراة . وهي إنْ استجمَعَتْ الشروط المُقرَّرة في الشريعة مُستَحَبة استحباباً مؤكداً . وقد تجب إذا دعت الضرورة إليها لأنّ كُلَّ عملٍ يقوم به الإنسان من أعمال العبادات والمعاملات لا يخلو في نظر الشرع الإسلامي من أن يكون موصوفاً بواحدٍ من الأحكام الخمسة التي هي: ((الوجوب والندب والكراهة والحرمة والإباحة)) ... والتجارة عملٌ من أعمال الإنسان ينطبق عليها من هذه الأحكام ما ينطبق على سائر الأعمال الإرادية .

فتكون واجبة إذا تَعذَّر الرزقُ بسواها ، لأنّ طلبَ الرزق لاستدامة الحياة ، والإنفاق على العيال واجبٌ شرعاً ، فإذا لم يكن هناك رزق إلاّ عن طريق التجارة كانت هذه واجبة ، شأنها في ذلك شأن سائر الواجبات الدينية كالصلاة والصوم والحج والجهاد ، فلو قَصَّر فيها الإنسان أو أهمل كان آثماً ، وفي الحديث: الكاد في نفقة عياله كالمجاهد في سبيل الله ، وفيه أيضاً: من بات طالباً في طلب الرزق بات وفراشه كمسجده ، وجاء في الحديث أيضاً: من الذنوب لا يُكفِّرها إلاّ ألمٌ بطلب المعيشة . وفيه أيضاً: ملعونٌ مَنْ ألقى كُلَّه على الناس .

وتكون مُستحَبَة إذا قُصِدَ بها القُدرة على القيام ببعض المُستحَبات كالإحسان للناس عامّة. فقد جاء في الحديث: خيرُ الناسِ مَنْ نَفعَ الناس. ومن المُستحبّات صرفُ المال على طلب العلم، والمشاريع الخيرية من معاهدَ ومدارس ومستشفيات وملاجئ وطرق وجسور ومساجد، ومنها بذل الزاد للمحتاجين والقِرى للضيوف، وإطعام الأيتام وصِلة الرحم، ومعونة الجيران والعفاة وتآلف القلوب وإصلاح ذات البين وما أشبه ذلك .

وتكون مكروهة إذا كان الإنهماك بمزاولتها شاغلاً الإنسان عن النظر في شؤون نفسه، وشؤون بيته وشؤون مُجتَمِعه ، كأن يكون إنهماكه بتجارته عاملاً في أهمال نظام

أوقات عبادته ومأكله وملبسه وراحته. والتفريط في صِلته بزوجته وأولاده ، والإعتزال عن كُلِّ ما يجد في مجتمعه من أحداثٍ طارئة تقتضي تعاون أفراده وتآزرهم . قال (عليه السلام): المُؤمن للمؤمن كالبُنيان المَرصوص يَشدُّ بعضهُ بعضاً ويدُ الله مع الجماعة ومَنْ شَذَّ شَذَّ الى النار .

وتكون حراماً إذا أَفضَت الى عملٍ مُحرَّم كالإتجار بالخمور وأدوات المَيسر، والبضاعة المغشوشة، وتَعمُّد التطفيف في المكاييل والموازين ، وقصد الإحتكار والمقايضة بالمال الحرام كالمال الحاصل عن طريق الربا أو الزنى أو السرقة أو الغَصب أو الظلم أو غير ذلك من المكاسب المحرمة .

وتكون مُباحة في غير ما ذُكِر ، والعملُ المباح هو كُلُّ عملٍ لم يرد في الشريعة ما يوجبه أو يحرمه أو يصرح برجحانه أو رجوحيته . والتاجر إذا راعي قاعدة – الكسب الحلال – كان – في نظر الشريعة الإسلامية – حُراً في تجارته يُباح له أنْ يكسب من المال ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، فليس للمكسب حد يقف عنه ، أو ينتهي اليه ...

قال علي بن أبي طالب (عليه السلام) منهومان لا يشبعان طالب الدنيا وطالب علم ، والظاهر أنَّ كلمة علي(عليه السلام) تشير الى طبيعتين أو غريزتين من غرائز النفس البشرية هما: غريزة حب التَملُّك ، وغريزة حب المعرفة . وليس لكلتا الغريزتين حَدّ ، فكما أنّ كل راغب في العلم يحب المزيد منه كان كل كاسب للمال يحبُّ المزيد منه أيضاً شريطة إلاّ يؤدي الإفراط فيهما الى ما يضر ويُحَرَّم .

ونَودُ هنا أن نختم حديثنا هذا بوصية وردت في كتاب الإمام علي (عليه السلام) الذي كتبه الى مالك الأشتر النخعي والي مصر ، وفي الكتاب ما يُشير الى ضرورة الإهتمام بشؤون التُجّار وأهميتهم في البلاد ، قال (عليه السلام): ((ثم استَوصِ بالتُجّارِ وذوي الصناعات ، وأُوصِ بهم خيراً ، المُقيم منهم والمضطرب بماله ، والمُترفِّق ببدنه ، فإنّهم مواد المنافع ، وأسباب المرافق ، وجلاّبُها من المَباعد والمَطارح في بَرِكَ وبَحرِكَ وسَهلكَ وجَبَلِكَ

، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها . ولا يجترئون عليها ، فإنّهم سلمٌ لا تُخافُ بائقته ، وصُلحٌ لا تخشى غائلته ، وتَفقَّد أمورهم بحضرك ، وفي حواشي بلادك ...

وأعلم مع ذلك أنّ في كثير منهم ضيقاً فاحشاً ، وشحاً قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع ، وتَحكُّماً في البياعات ، وذلك باب مَضرَّة للعامة ... وعيب على الولاة ، فامنع من الإحتكار فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) منع منه . وليكن البيع بيعاً سَمِحاً بموازين عدل لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع . فَمَنْ قارفَ فكرةً بعد نهبك إيّاه فَنكِّل به وعاقب في غيرِ إسراف)) .

الفصل الثاني

السّيّد عباس شُبَّر

وتُراثُه مع جمع ما تَبقّى من شعره المنشور في المجلات

الفصل الثاني

السيد عباس شُبَّر وتُراثُه مع جمع ما تَبقّى من شعره المنشور في المجلات

هو من أحفاد السيد عبدالله بن محمد رضا شبر، أما السيد عبدالله بن محمد رضا شبر الكاظمي (1188 – 1242) هـ . فهو صاحب المؤلفات الكثيرة والشهيرة . وقد كَتَبَ عنه القدماء والمحدثون فمن الرسائل الجامعية التي كُتِبَتْ عنه:

1- الدرس النحوي في تفسير القرآن للسيد عبدالله شُبّر . للباحث أمين عبيد چيچان مخلف ، الجامعة المستنصرية ، كلية التربية – ماجستير سنة 2004م.

2- السيد عبدالله شُبّر وجهده النحوي في تفسيره الجوهر الثمين . للباحث حسين علي المهدي، جامعة البصرة – كلية الآداب ماجستير سنة 2005م.

3- السيد عبدالله شبر ومنهجه في تفسيره الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين . للباحث صادق عبدالله راشد ، جامعة الكوفة ، كلية الفقه ماجستير سنة 2009م .

4- قصص الأنبياء لعبدالله بن محمد رضا شُبّر . للباحث فوّاز حمدان عبود الحسناوي ، جامعة كربلاء – كلية التربية ، ماجستير سنة 2010م .

ومن الكتابات القديمة عن السيد عبدالله شبر:

1. ترجمة السيد عبدالله شُبَّر: محمد خلف بن معصوم ، نسخة مخطوطة ، مؤسسة كاشف الغطاء العامة في النجف بالرقم 3589 في 16 صفحة .
2. رسالة في أحوال السيد عبدالله شُبَّر: محمد بن معصوم ، مؤسسة كاشف الغطاء العامة في النجف بالرقم 424 بخط السيد عباس بن محمد شُبَّر سنة 1339 هـ في 23 صفحة .

3. ترجمة السيد عبدالله شبر: للسيد محمد بن مال الله بن معصوم ، نسخة مركز إحياء التراث الإسلامي في قم رقمها 3271 سنة 1303هـ في 26 صفحة بخط السيد هادي شُبَّر الحسيني .
4. ترجمة السيد عبدالله شُبّر ، للسيد محمد بن مال الله بن معصوم بنسخة مركز إحياء التراث الإسلامي في قم رقمها 2467 تأريخها سنة 1336 ، عن نسخة كتابخانه دُر النجف الأشرف 43 صفحة .
5. ترجمة السيد عبدالله شبّر للسيد عباس محمد شبّر الحسيني ، مؤسسة كاشف الغطاء العامة بالرقم 3102 بخط المؤلف في 17 صفر سنة 1339هـ في 6 أوراق .
6. ترجمة السيد عبدالله آل شُبَّر الحسيني وموجز سيرته وأحواله ، لتلميذه السيد محمد خلف بن السيد معصوم بخط محمد علي الحائري كتبها في 14 شوال سنة 1409هـ في 42 صفحة قياس 18.5 × 12 في 14 سطراً ، موجودة في المدرسة الشبَّرية في النجف .
7. ترجمة السيد عبدالله شبر كتبها السيد عباس آل شُبّر الحسيني ، أَتمَّها في 17 صفر سنة 1339هـ في 42 صفحة . في مكتبة المدرسة الشبرَّية ص236 قياس 21×10 خطوط مختلفة .
8. مذكرات السيد عبدالله شُبَّر ، وهو سجلٌ حافلٌ بأحداث حياته ومما يحتويه مع فهرست لخزانة كتبه بقلمه وهو موجود في مكتبة المدرسة الشُبَّرية .

ومما كُتِبَ عن فهارس مخطوطات السيد عبدالله شُبَّر أو عن خِزانته:

1. فهرست المكتبة الشُبَّرية للسيد محمد بن جعفر شُبَّر الحسيني ، نسخة مؤسسة كاشف الغطاء العامة بالرقم 339 بخط المؤلف في 114 صفحة .

2. مخطوطات المدرسة الشُبَّرية في النجف الأشرف، منشور في مجلة (الموسم) الصادرة عن أكاديمية الكوفة في هولندا العدد 1 سنة 1989 ص(178-243) .

3. فهرست السيد محمد أمين السيد جواد شُبَّر لمؤلفات السيد عبدالله شُبَّر قَدَّم به تحقيق كتاب (مطلع النيرين) الذي تم تحقيقه ونشره سنة 2014 ، ص7-30 .

4. كتاب المؤسسة الشُبَرية لإحياء التراث للسيد محمد أمين شبّر ، ط1 ، سنة 1422هـ فيه فهرست المؤلف السيد عبدالله شبّر .

5. الفهرست الذي عمله الباحث صادق عبدالله رشاد لكتب السيد عبدالله شبّر ضمن رسالته للماجستير ص17-55 ، وهو من منشورات العتبة العلوية المقدّسة سنة 2011م .

6. فهرست مؤلفات السيد عبدالله شبّر 1188-1242هـ . الذي ضَمَّ أكثر من مئة كتاب ورسالة مخطوطة مع أماكن وجودها ونسخها وأرقامها وعدد صفحاتها وتأريخها الذي كتبه الدكتور حامد ناصر الظالمي، ونشره في فصل ضمن كتابه من تراثنا المخطوط في مكتبات إيران والنجف . الذي صدر في النجف الأشرف سنة 2017.

الخزانة الشبّرية:

تضم الخزانة الشبَّرية مجموعةً قيّمة من المخطوطات التي أَلَّفها السيد محمد رضا شبّر وولده السيد عبدالله شبّر وأولاده وأحفاده وكتب لمؤلفين آخرين ، وقد بقيت هذه الخزانة بيد أولاده وأحفاده . إذ تولّى مسؤولية الحفاظ عليها بعده ولده السيد جعفر شُبَّر ت 1280هـ ، وذلك لتوفر شروط التولية [والشرط أن تُحصَر عُهدة الخزانة بعالم الأسرة وكبيرها الفقيه المُتضلِّع في عصره] ومن بعده لابنه السيد محمد المولود في الكاظمية سنة 1270هـ ... وكان يبذل كل جُهدَه للحافظ عليها وإكمال النقص فيها وتزويدها بكتبٍ أخرى وكان يُجيد اللغة الفارسية وبالعكس، وعندما أنتدبه أستاذه المُجدِّد محمد حسن الشيرازي في أن يكون مُمثلاً عنه في البصرة قام السيد محمد ببناء مكتبة للتدريس والإرشاد فنقل خزانة الكتب الى مدينة البصرة ، وبقيت في البصرة حتى وفاته سنة 1346هـ - 1928م ، وبعد ذلك انتقلت المسؤولية الى ولده السيد عباس شُبَّر العالم والمُحقِّق وقاضي

المحكمة الشرعية والشاعر المولود سنة 1322هـ - 1905م ، وبعد ذلك أوصى السيد عباس شبّر بنقل الخزانة من البصرة الى المدرسة الشُبَّرية في النجف، التي بناها السيد علي بن السيد محمد بن علي بن حسين السيد عبدالله شُبَّر المولود سنة 1302هـ في النجف، وهو مؤسس المدرسة الشُبَّرية ، [وكان قد قضى شطراً من حياته في الكويت وافتتح المدرسة يوم 15 شعبان سنة 1387هـ]، وعند وفاته سنة 1391هـ - 1973م ، انتقلت مسؤولية الخزانة الى نجله السيد جواد شُبَّر الخطيب المعروف ، فبقيت تحت اشرافه ورعايته حتى اعتقاله سنة 1982م ، وبعد تغييبه في سجون الطغاة من سنة 1982م – 2003م تولّى الإشراف عليها السيد محمد أمين المتوفى سنة 2018 نجل السيد جواد شُبَّر فأسَّسَ السيد محمد أمين المؤسسة الشُبَّرية لإحياء التراث في عام 1999م وذلك للحفاظ على هذا الموروث النفيس. ولا نريد الإطالة مع السيد عبدالله شُبّر فقد كُتِبَ عنه الكثير وذكرنا المصادر التي كَتَبَتْ عنه .

أما السيد محمد شبّر بن السيد جعفر بن السيد عبدالله شبَّر بن السيد محمد رضا شبر الكاظمي ، فقد كَتَبَتْ عنه مجلة المُرشِد البغدادية في عددها الثالث جزء 4 في الأول من صفر سنة 1347هـ الموافق 19 تموز سنة 1928م ص153 وجاء فيها...

السيد محمد شبّر ونسبه:

يتصل نسبه الشريف الى الإمام زين العابدين (عليه السلام) بسلسلةٍ ذهبية ، فهو:

محمد بن جعفر بن عبدالله بن محمد رضا بن محمد بن محسن بن أحمد بن محمد بن ناصر الدين بن شمس الدين محمد بن محمد بن نعيم الدين بن رجب بن الحسن الشُبَّر (وإليه ينتمي كل شُبرَّي) ابن محمد بن أبي أحمد بن حمزة بن علي (المُلقَّب بطَلَّة) ابن أبي عبدالله الحسين القمي بن أبي الحسين علي بن عمر (شهيد فخ) ابن الحسن بن أبي الحسن على الأصغر بن الإمام السجاد زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

ولِدَ في حدود سنة 1272هـ ، ببلدة أصبهان ، ولما تجاوز الثالثة عشر من عمره تُوفيَّ أبوه (السيد جعفر بن السيد عبدالله شُبَّر) فغادر في تلك السنة أصبهان مع أخيه الأصغر وصهره الى الكاظمية حيث مقر أبيه وجده من قبل ، وقد قرأ الفقيد على أبيه المبادئ من العلوم العربية والمقدمات ، ولما تُوفيَّ أبوه وحَلَّ هو في الكاظمية حضر لدى بعض الفضلاء فأكمل دورة العلوم البيانية وشطراً من علم الأصول ، ثم اتصل بجماعةٍ من جهابذة علماء الدين كالشيخ محمد حسين الهمذاني والشيخ إسماعيل السلماسي والسيد هادي صدر الدين ، فقرأ عليهم الأصول والدراية والفقه وارتحل الى النجف الأشرف فَصَرَفَ شطراً من أيامه بالبحث والتحصيل والتأليف واتصل أخيراً بسيد العلماء والمجتهدين الميرزا محمد حسن الشيرازي في سامراء حيث تَمَّمَ لديه سلسلة دروسه العالية وحاز منه الشهادة العالية (الإجازة) .

سافر الفقيد يريد أبا شهر فَمَرَّ بالبصرة فاستقبله أشراف البصريين ، وذلك سنة 1303هـ واحتفلوا بقدومه والتمسوا منه البقاء في بلدهم والنزول بجوارهم ، فلم يجيبهم أولَ وهلة الى ذلك حتى كاتبوا الميرزا أعلى الله مقامه يوسّطونه في الأمر ، ويسألونه مكاتبة السيد محمد شبر فكاتبه قدس سره يؤكد عليه بذلك فحينئذٍ ألقى عصا السير وأقام عندهم بمحلة تُعرَف (بيحيى بن زكريا) ، وبنى فيها مسجداً ومجلساً وفي السنة الخامسة بعد الثلاثمائة والألف 1305هـ تَوجَّه مع طائفةٍ كبيرةٍ من أشراف البصريين لحج بيت الله الحرام .

وبعد عوته مَرَضَ ليلة السبت العاشر من شهر رمضان بِعِلَّةِ ذات الجنب واستمر مع المرض الى يوم الجمعة 16 رمضان سنة 1346هـ - 9 آذار سنة 1928م وانتقل الى رحمة ربه في ذلك اليوم وحُمِلَ الى النجف الأشرف ودُفِنَ فيها .

مؤلفاته:

كان الفقيد لا يفتر عن الكتابة والتأليف وكان يقول:

مَنْ كان في جمعِ الدراهم مُولَعـاً طُـولَ الحيـاة وهمَّـهُ التصريفُ

فأنا الذي أولعت في جمع الطرّو س وهَمِّـيَ التأليف والتصنيفُ

له من المؤلفات أكثر من مئة كتاب ورسالة منها:

1. اكسير السعادات في أحكام العبادات في 24 جزءاً جَمَعَ فيه ما شاء فأوعى من الأصول والفروع.
2. مقتدى الأنام في شرح شرايع الإسلام في عدة أجزاء .
3. هداية المستهدين في الفقه من الطهارة الى الديّات يقع في جزئين كبيرين .
4. كشف اليقين في أصول الدين .
5. المسائل المُشكِلة .
6. الأخلاق .
7. كتاب في الأصول .
8. مُنتخب عجائب الأخبار .
9. كتاب في الكلام .
10. إيقاظ النائمين يقع في أربعة أجزاء بالقطع الكبير .
11. تنبيه الغافلين في جزءين .
12. اللوامع في الطب .
13. الفوائد الطبية يقع في جزءين كبيرين .
14. مَنْ لا يجد الطبيب .
15. أحوال الحسين (ع) .
16. الكشكول علمي أدبي انتقادي يقع في ثلاثةِ أجزاء.

(إنتهى ما جاء في مجلة المرشد)

وللسيد محمد من الأولاد:

1- السيد عباس شُبَّر وأولاده (سيد عصام وسيد محمد نور رحمهم الله ونعيم الدين الذي تُوفيَّ في حياته).

2- السيد عبدالصاحب شُبَّر .

أما الأول فسوف نَتكلَّم عنه لاحقاً ، والثاني هو السيد عبدالصاحب بن محمد بن جعفر بن عبدالله بن محمد رضا شبر الحسيني ، ولِدَ في البصرة سنة 1330هـ ، ونشأ على والده العالم الفاضل ، دَخَلَ المدرسة الإبتدائية وتابع فيها بعد دراسته الأدبية والشرعية على والده وأخيه السيد عباس ، حتى نَبَغَ فأرسله أخوه الى النجف بعد وفاة والده ، وبقيَ بها زمناً طويلاً ، ثم عاد الى البصرة وقام بالعمل الإرشادي في الزبير والشعبية ... ووصلنا أحد كتبه وهو (الفوائد الشُبَّرية في الأسماء الحسنى والأعمال الروحانية) ، توفيّ في البصرة في 17 جمادي الآخرة سنة 1368هـ ونُقل الى النجف ودُفِنَ بالصحن الشريف قرب باب الفرج [1] .

وللسيد عبدالله شبّر ولدٌ آخر غير السيد جعفر والد السيد محمد وهو السيد حسين بن عبدالله وللسيد حسين من الأولاد إثنين :

1- السيد علي شُبَّر بن محمد بن علي بن الحسين بن عبدالله بن محمد رضا شُبّر، وقد ولِدَ في النجف في شهر ذي الحجة سنة 1303هـ ونشأ بها وقرأ المقدمات الأدبية والشرعية ثم السطوح العالية على لفيفٍ من الأفاضل بعد حضر الأبحاث العالية فقهاً وأصولاً على الشيخ علي الجواهري والشيخ حسين النائيني والسيد أبي الحسن الأصفهاني والحكمة على الشيخ مرتضى الطالقاني . وأَسَّسَ السيد علي في النجف مدرسةً علمية في محلة البراق سنة 1384هـ فكانت من المدارس الكبيرة الراقية . وانتدب السيد علي من الزعيم السيد حسين البروجردي الى الكويت سنة 1375هـ ليكون داعياً .

له من المؤلفات:

1- أجوبة المسائل الدينية (مخطوط) .

2- السوانح الحيدرآبادية .

3- في الأدب (مخطوط) .

4- العمل الأبقى في شرح العروة الوثقى في أربعة أجزاء (مخطوط) .

5- فوائد الصوم وأسراره (مخطوط) .

وتُوفِيَّ السيد علي في الكويت في الأول من شعبان سنة 1393هـ ، ونُقِلَ الى النجف ودُفن في الصحن الشريف في مجاز باب القبلة على يمين الداخل إليه [2] .

وله من الأولاد السيد جواد وولده السيد محمد أمين . وقد تَسلَّم السيد علي من السيد عباس شُبّر أمر الخِزانة الشُبَّرية عندما أكَمَلَ بناء المدرسة الشبرية في النجف التي استمرت بعهدة السيد جواد ثم السيد محمد أمين .

2- السيد إبراهيم بن السيد محمد بن علي بن الحسين بن عبدالله شُبّر ، وهو عالمٌ جليل مجاهد ، ولِدَ في النجف في 26 من شهر شعبان سنة 1308هـ ، ونشأ بها ودرس المقدمات الأدبية والشرعية ثم السطوح العالية على الشيخ محمد باقر القاموسي والشيخ عبدالحسين الحلي، وحضرَ الأبحاث العالية على الشيخ ضياء الدين العراقي والشيخ محمد حسين النائيني والسيد أبي الحسن الأصفهاني وأجيز من الأخيرين بالرواية . وأُنتُدِبَ الى مدينة خانقين وكيلاً عن المرجعية العليا .

من مؤلفاته:

أ- تأريخ النبي وآله الأطهار .

ب- تهذيب الأخلاق .

جـ- حاشية كفاية الأصول .

د- غدير خم .

هـ - النبوة والإمامة .

((تُوفيَّ السيد إبراهيم في النجف يوم الخامس من ربيع الأول سنة 1378هـ ، ودُفِنَ في الصحن الشريف بحجرة رقم 49))[3] .

أما السيد عباس شبّر بن السيد محمد شُبّر:

فقد ولِدَ في البصرة يوم 19 ذي الحجة سنة 1322هـ - 1903م ، ونشأ بها على والده العالم الفاضل ، ثم انتقل الى النجف وحضرَ بها الأبحاث العالية على الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء وغيره ، ثم عاد الى البصرة بعد وفاة والده سنة 1341هـ ، فَعُيِنَ قاضياً شرعياً في البصرة سنة 1362هـ .

وكان إمام جامع آل شبر في البصرة ، وقد درَّس النحو والعروض ، ودرس عليه بدر شاكر السياب وغالب الناهي وآخرون ، وقد شغل منصب قاضي المحكمة الشرعية في مدنٍ عراقية أخرى منها بغداد ، وكان عضواً مؤسِّساً في منتدى النشر في النجف ورئيس جمعية المؤلفين والكتاب في البصرة وجمعية الشعراء والخطباء كذلك ، وكان مشرفاً على مكتبة وخزانة آل شبّر . وكانت جمعية المؤلفين والكتاب في البصرة وكذلك الهيئة الأدبية في البصرة تعمل تحت إشرافه وتُقيم الندوات والجلسات الأدبية وخاصة في أيام المُحرَّم ويحضرها آلاف الناس من أهل البصرة ... ((تُوفيَّ السيد عباس شُبّر في الثامن من شهر شوال سنة 1391هـ ونقل جثمانه الى النجف ودُفِنَ بالصحن الشريف بحجرة رقم 14))[4] .

ومن مؤلفاته:

1- ديوان شعر (صور وجواهر) قَدَّم له جعفر الخليلي ، طبع دار الكتاب اللبناني – بيروت .

2- ديوان شعر (الموشور) قَدَّم له جعفر الخليلي ، مؤسسة الأعلمي – بيروت سنة 1978م .

3- قصيدة مطوّلة (بُني نعيم الدين) في رثاء ولده . نشرها في جريدة البلد البغدادية العدد 228 يوم 11/ 2/ 1965م .

4- نشر قصائد ورباعياته في مجلة الهاتف النجفية .

5- من دواوينه المخطوطة (خوالج النفس ، الأنفاس المحترقة ، الملحمة السماوية) .

6- مجموعة من القصائد المنشورة في المجلاّت (قمنا بجمعها هنا) .

أشرف السيد عباس شُبّر على خزانة كتب آل شُبّر لفترةٍ طويلة وأعاد كتابة ونسخ مجموعة من مخطوطات أجداده ومنها:

1- رسالة في أحوال السيد عبدالله شبّر مع فهرست لخزانة كَتَبَها بقلمه مع موجز سيرته وأحواله بقلم تلميذه لمحمد بن معصوم، نسخها وأضاف عليها السيد عباس شبّر ، وتوجد نسخة منها في مؤسسة كاشف الغطاء العامة بالرقم 424 سنة 1332هـ في 43 صفحة . ولها نسخة في المكتبة الشُبّرية وقياسها 21×10 خطوط مختلفة .

2- ترجمة السيد عبدالله شُبّر ، كتبها السيد عباس شُبّر ، نسخة في مؤسسة كاشف الغطاء العامة بالرقم 3102 سنة 1339هـ في 6 صفحات .

3- تسلية الحزين في فقد الأقارب والبنين وهو من مؤلفات السيد عبدالله شُبّر ، يقع في أربعة آلاف سطر ، بخط السيد عباس آل شُبّر سنة 1339هـ قياس 17×11 سم .

4- قصص الأنبياء . وهو من مؤلفات السيد عبدالله شُبّر وهو ما رُويَّ عن الأئمة المعصومين وهو في مئتي ألف سطر وله نسخة خطية بخط السيد عباس محمد جعفر آل شبر وموجودة في خزانة مكتبة المدرسة الشُبّرية .

5- حق اليقين في معرفة أصول الدين للسيد عبدالله شُبّر نسخة فيها نقص أتمّها السيد عباس شُبّر وهي بقياس 33.5 × 21 في 19 سطراً ، ونسخة كاملة بخط السيد محمد شبر تأريخها 1337هـ في 318 صفحة[1] .

---

1. مشاهير المدفونين في العتبة العلوية: ص197 .
2. المصدر نفسه: ص257 .
3. المصدر نفسه: ص22 .

المصدر نفسه: ص169 .

دراساتٌ أدبية لشعرائِنا وكُتَّابِنا

السّيّد عباس شبر

بقلم محمد حسين المحتصر (*)

تصدير:

لا أدري بالضبط متى وِلِدَ شاعرُنا السيد عباس شبر ، ولا يهمني أن أدري ذلك لأني بكلمتي هذه لم أكن مُؤرِخاً يستعين بالحساب والأرقام على بلوغ مقصده. ولأنَّ عدم معرفة هذه الناحية لا تُقلل من قيمة البحث الذي سيقتصر على دراسة شعره فحسب. وكل ما أعرفه بهذا الصدد أنّ شاعرنا قد اجتاز العقد الرابع من عمره ، ولَعلَّه على في نهاية العقد الخامس منه..

أما دراسته:

فهي مزيجٌ بنِسبٍ خاصة وقدرٍ منتظم من الثقافة الدينية القديمة والثقافة العصرية الحديثة ، ولم يكن في كليهما يشذ عن المألوف ، فهو رجلٌ دين من النوع الجيد الذي يفهم معنى الدين فيما يختلف وما عليه بقية أبنائه ، وهو رجلٌ عصري من النوع الجيد أيضاً العارف بروح العصر عِرفاناً يدفعه الى نبذ القشور والمظاهر الزائفة.

هذا هو السيد عباس شبر الذي سَمِعتُ عنه كثيراً ، وقَرأتُ له كثيراً ، وكُنتُ في كُلِّ ما أسمع وأرى مُعجَباً غايةَ الإعجاب.

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة العقيدة (مجلة اسبوعية تصدر في النجف) العدد 12-13 ، السبت 25/ 6/ 1949 ، السنة الأولى ، ص 309 – 321.

شاعريته:

يتنازع المعنيون – وما أكثرهم – بأمرِ هذه الشاعرية على تَحقيقِ مصدرها فمنهم مَنْ نسبها الى مَعين النجف الشعري الثر ؛ ومنهم مَنْ اقتصرها على مدينة البصرة رغبةً في وجود كيان أدبي خاص ، ومدرسة شعرية مُستقِلة لهذه المدينة ، ولم يعدم كُلُّ حزبٍ من هؤلاء دليلاً يؤيد ما ذَهَبَ إليه ، ومن الغريب أن هذه المُشادّة التافهة لم تقتصر على العامة ، فيُعذَرون ، ولكنها تَعدَّتهم الى المتعلمين والمثقفين ، الذين لابد أن قرأوا يوماً ما: إنّ الشعرَ موهبةٌ لا تخضع لمقاييس الزمان والمكان ، وأنّ الشاعر إنسانٌ عالمي يعبر عن شعورٍ مشترك في بني جنسه.

وعلى كُلّ حالٍ إنّ شاعرية العَلَّامة شُبّر سواء نُسِبَتْ الى البصرة أو النجف أو الى غيرهما من المُدن لهي شاعرية فَذَّة قَلَّ أن يجود بمثلها الزمن الضنين.

ولهذه الشاعرية جوانب متعددة وكُلُّها ذات أثرٍ قوي في تكوين شخصيته الشعرية ، وسُمعَتهِ الأدبية ولئن طَغَتْ عليها صفةُ التشاؤم فلأنَّ حياته الخاصة اضطرته اضطراراً الى الإغراق في تصوير الألم والبؤس والشقاء.

وإنه لمن الصعب على دارس العَلَّامة شُبر أن يلم إلماماً وافياً بمجموع خواطره وأحاسيسه ، لأنَّ ما نُشِرَ من شعره لا يساوي العشرة من مئة من المجموع. أما شعره الباقي فلم يُنشَر وهو ضَنينٌ به على النشر.

غير أني استطعتُ من الحصول على مجموعةٍ خطيةٍ لما لم يُنشَر منه . وهي وإنْ كانت لا تُمثِّل كُلَّ ما نَظَمه ولكنها تَحتَفظ بخصائصَ شعره ومميزاته ، وبالإضافة الى ما نُشر في الصحف منه استطعت أن أَضَع له هذه الدراسة العابرة ، وأرجو أن لا أُفرِط في الثناء أو في التجريح ، ولم يكن غرضي سوى خدمةَ الأدب في شخص الأستاذ شُبّر ، ومَنْ سأكتب عنهم في المستقبل القريب.

شعره:

إنّ مَنْ يقرأ شعر العَلَّامة شُبّر يشعر بسعةِ الخيال ، وعُمقَ التفكير ، ودِقةَ الحِس ، وسَلامةَ الذوقِ ، وجزالةَ اللفظِ ، لأنَّ ((شُبر)) شاعرٌ يَعرِف كيف ينتقي المعاني ، وكيفَ يختار لها الألفاظ.

إنّ شعره ليس كلاما مرصوفاً فحسب. إنّه قِطعٌ من قلبه النابض ، ودَفقةٌ من دمهِ الفُوّار. إنّه فلسفةٌ عميقةٌ في أسرار هذا الكون. إنّه نفحةٌ قدسية مُعطَّرةٌ بأريج الجَنات. إنّه صرخةُ الإنسانية المُعذَّبة في وجه الظالم العَسوف. إنّهُ صورةٌ طِبق الأصلِ لمآسي وأحلام هذه الحياة.

ولَستُ افترض هذه الصفات افتراضاً ، أو أقولها مُحابياً ، فمَنْ يقرأ هذا الشعر يَعرِف مدى انطباق ما أقوله عليه ، وَلعلَّ القصيدة التالية ((روح التعاسة)) التي تُصور المجتمع خيرَ تصوير كفيلةٌ بإظهار معظم هذه الصفات:

كَمْ تَحتَ هذا الليل من (م) راضٍ وكَـمْ من كاره
مِن مُوسِرٍ قد بـات يـد (م) أبُ في حساب نضاره
أو بائـسٍ يـذري مـدا (م) مِـعَه عـلى أطـمـاره
أو عاشق أصـلى الغَـرا (م) مَ فـؤادَه في نـــاره...
أو فيلسوفٍ يرتأي الــ (م) آراء مـــن أفـكـاره
أو راصـدٍ قـد بات يـر (م) عى النَـجمَ في منظاره
أو تـاجرٍ أبـداً يُجـيـــ (م) لُ الطَـرفَ في أسعاره
أو سـارقٍ مـتفـكِّـرٍ .. في سـلـبـه وفـــراره
أو مُدمنٍ ضحى جميــ (م) ــع عـقـاره لـعقاره
أو أحمـقٍ قد بات مشــ (م) ـغولاً بـلعب قماره...
أو ساقطٍ سَـكَبَ الحـيا بـفـجـورهِ وعـهـاره

أو نـازحٍ يبكـي لغـر (م) بتــهِ وبُـعـد مـزاره
أو فـاقدٍ نَـبَشَ المُصـا (م) بُ فــؤادَه بــقـراره
أو مسـقمٍ أمـسَ يـهذْ (م) دِدُهُ الـردّى بـبـواره
أو عـالمٍ قـد بـات مُنــ (م) حـنـياً عـلى أسـفاره
أو كاتب سَـهَرَ الدجى ليـفـوز في مـضـماره
أو شاعر أمسـى يُـذيـ (م) ــعُ الهَـمَّ في أشـعاره
يبـنـي بـيوتاً عـامـرا (م) تٍ والخَـرابُ بـدارهِ

أرأيتَ صحةَ ما قُلت؟ أو تريد تقسيماً لمجتمعنا بآماله وآلامه أحسن من هذا؟ أو لَمستَ به تعقيداً في لفظٍ أو تَكلفاً في معنىً أم أنه سَهلٌ جزل متسلسل كما يقولون ، ثم هل تحسبني بَعدُ قد غاليت بما وصفته به؟ إنني لا أشك بأنك تشعر معي بسمو هذا الشعر وعظمته.

ولكن لَعَّلك تظن أني اخترت لك هذه القصيدة اختياراً من مجموع شعره لأُغرر بذوقك فأكسب تأييده ، لا. إنَّك مُخطئ يا سيدي إذا ظَنَّنتَ هذا الظن . وللتدليل على هذا الخطأ ، دونك فإقرأ شعره المنشور في مجلات الإعتدال والبيان والعقيدة والعِرفان والعروبة لتَطمئَنَ من نفسِك بنفسِك.

ثم ما يهمني أن أتكلف الإدعاء ، وما عليَّ أن يكون شعره كُله أو جُله جيداً أو رديئاً غَيرَ مقبول؟!

وإليك هذه الرباعية فهي من شعره الممتاز:

لـيـس في هـذه البـلاد مـقـاييــ (م) ــسٌ ولا في أبـنائِها مَنْ يقيس
كُنْ دَخيلاً واحكم بها كيفما شِئـ (م) ــتَ فإنَّ الدَخيـلَ فينا الرئيـس
وإذا أعـوزتـك بَـسطـةُ عِـلـمٍ (م) فسَيـغُـني مـكـانها التَـدلـيسُ
قد نصحت الطاووس أن يَتعرَّى إذ تساوى الغُراب والطاووس

التشاؤم في شعره:

يطفح شعرُ العَلَّامة ((شُبر)) بالتشاؤم ؛ وقد يَعسَر عليك أن تجد قصيدةً خاليةً منه ، وقبل أن نبحث سَرَّ هذا التشاؤم وأسبابه نَودُ أن نَتَحقَّق من وجوده ومقدار أثره في نفسه، ولا يتم ذلك إلّا بعرضِ نماذجَ من هذا الشعر ، ففي قصيدة عنوانها ((يا دهرُ)) ، يقول:

لهفي لقَسوةِ دهرٍ لم يُثنهِ قَولُ لهفي
تمضي السنين تباعاً والهَمُّ لا زالَ حلفي
عاشرتُ كُلَّ فريقٍ وخُضتُ في كُلِّ صنفِ
حتى جَهَلتُ مكاني إنْ عُدَّ في أي صف
أَجري الى المَجدِ قِدماً والدهرُ يجري خلفي

ويقول في مزدوجة من مزدوجاته:

إلهي حَناناً على مُدنَفٍ لقيْ فوق مجزرة النائبات
ومحتضر حَشرَجَتْ نَفسُهُ فلا للممات ولا للحياة

ومن قصيدة ((ابتهالات حارة)) هذه الأبيات الباكية الساخطة على الدهر والناس:

فكم أشكو من الإرها (م) قِ في نثري وفي شعري
وكَمْ استندبُ الحَظَّ واستعدي على الدهرِ
وكَمْ أرتقبُ الأقدا (م) رَ من شهرٍ الى شهرِ
فوا ضيعةَ آمالي أيفنى هكذا عُمري؟
ألا لا سامَحَ اللّهُ أُناساً جهلوا قدري

وهذه رباعيةٌ من رباعياته طافحةٌ بالتشاؤم واليأس المُستَمِر حتى الموت:

أيا لآفك نسلّي الفا (م) قدَ المنكوب من حزنهْ
فكَمْ قُلنا له والقو (م) لُ مشهورٌ على وهنهْ
تَصبَّر إنّها خاتـ (م) ـمةُ الأرزاء أو نهنهِ

وما خـاتمـةُ الأرزا (م) ءِ للمرءِ سـوى دَفـنَهْ

وفي هذه المقطوعة التي عنوانُها ((الغريبُ المُحتَضِر)) يبرز روحُ الشاعرِ المتشائم ولا يكفيه أن يكون وحده بهذا الحال بل يشبع اليأس والألم في نفس القارئ أيضاً.

إن الإنسان مهما كان مُتفائِلاً في الحياة إذا ما قَرَأ هذا الشعر يفقد خصوصية نفسه ، ويعود وكأنما يُعبّر عن حاله لا عن حال ناظمه فقط.

إني أموتُ أجل أموتْ وليس مَنْ يبـكي عَليْ
إني أموتُ أجل أموتْ وفي صميم القلب كيْ
إني أموتُ أجل أموتْ ومَيتُ الشـهداءِ حـيْ
إني أمـوتُ مُـضـيَّـعاً عانـى الفـؤاد مـروّعاً
وتَسـيلُ نفـسي أدمـعاً مُـحمَّرةً مـن مـقلـتيْ

***

في ذِمـة الـتأريخ نَفــ (م) سٌ أزهقتـها الكارثاتُ
في ذِمـة التأريخ جسـ (م) مٌ أنهـكـتُـه الحـادثـاتُ
في ذِمـة الـتأريـخ آ (م) مالٌ تَغـصُّ بها اللُّهاتُ
في ذِمـة الـتأريـخ مـا (م) عـانيتُ في هذا الحِـمى
فإذا رجـعت الى السما (م) فلأشكونَّ جوى الحياة

***

ولعلَّه يبلغ الذروة في تصويره التشاؤم بهذه المزدوجة التي لا يُظنُّ معها أنَّ بَصيصاً من الأمل يمكن أن يَتَسرَّبَ الى قلب الشاعر:

ولولا صغارٌ عليهُم جَنيـتُ وسوف يلاقون بَعديْ الكَربْ
لقدَّمتُّ من سأمي في الحياة لمـحـكمة الانـتـحار الطـلبْ

الى هنا أعتقد أنه تَكوَّنت عند القاريء الكريم فكرةٌ عن تشاؤم هذا الشاعر، ولكن: هل أنّ كُلَّ شعره من هذا النوع؟ وهل هو مناحة شعرية آخذٌ بها فلا يَنفكّ منها الى غيرها؟ طبعاً لا. إذ لابُد أن تَخطَر على كُلِّ إنسان مهما بلغ به الألم ساعاتٌ أو أيامٌ يهادنه فيها الزمن، فيرتاح تفكيره وتَهدأ نفسه، وتغمره البهجة، فيتفاءل عن مستقبل حياته، وينظر الى الدُنيا بمنظارٍ آخر، فيدعو الى السعي ويشيد بالأمل.

وفي شعر العَلَّامة ((شُبَّر)) نفحاتٌ من التفاؤل حَسَبها البَعضُ مأخذاً عليه باعتبارها تُناقِض تشاؤمه، مُتذرِّعين (بالوحدة) – إحدى مقاييس الشعر الأدبية – كأنما المقصود منها وحدة في الإنتاج لا في الموضوع. وخطأ هذا الحسبان ظاهرٌ لا يحتاج الى تعليق.

ثمّ أن هذه النفحات لا تُشكِّلُ جُرماً كبيراً من مجموع شعره وَلعلَّها لا تَتعدَّى الأبيات المعدودات، وأنني رغم التَحرِّي الكثير لشعره لم أقرأ – سوى هذين البيتين وهما:

أَخطأتُ قصدي ولُمتُ الحَظَ عن عَمهٍ وقُلت ليت ترى عيني المَقادير

فاجهد بسعيك إنْ شِئتَ النَجاحَ فما للحظ في خدمة الإنسان تأثير

والأبيات التالية:

حياتك ضَيَّعتها في الظَلامِ وأوكلت أَمرَكَ للبارقِ

جَهَلتَ نواميسَ هذا الوجودِ فَبُتَ تُفكِّر في الخارق

فَزاحِم بنفسِك أبناءَ دهرِ (م) ك واسحق على هامة العائق

فَكَمْ مؤمن جَرَّهُ بُؤسُه الى أن يُشكِّكَ في الخالق

وإن بقلبك قلب الطرائـ (م) ق فاقذف بنفسِك من حالق

ومن الإجحاف أن يُعتبر هذا تناقضاً في شعره، أما مسألة الوحدة، فسخافةٌ مُضحِكةٌ لا يُعتدُّ برأي صاحبها.

أما أسباب التشاؤم فسنبحثها في العدد القادم.

دراساتٌ أدبية لشعرائِنا وكتابِنا

السيد عباس شبر -2-

بقلم محمد حسين المحتصر (*)

نشرنا الفَصلَ الأول من هذه الدراسة في عددٍ مضى من أعداد هذه المجلة ، وكان للمُتَرجَم رأيٌ فيما كتبناه عنه ، وفيما وقع عليه اختيارنا من شعره ، فهو يرى – لتواضعه– أنّ مثل هذه الدراسة كثيرةٌ عليه ، ويرى أيضاً أن ما نَشرناه من شعره لا يمثل إلّا جانباً من جوانب نفسه.

ولا أدري لماذا يَتَحسَّس هذا الأستاذ من الظهور أمام القُرّاء؟ ولماذا يحاول الإنزواء في مطاوي النسيان؟ في الوقت الذي تَطفَّلَ الأدعياء على مَوائدَ الأدبِ ، وكادوا أن يَستقلّوا به. ثم لماذا هذا الزُهد في الثناء؟ والرغبة عن المديح ، وهو الذي يقول بهذا الخصوص.

المرءُ يصبو للثنا ويَهزهُ نغمُ المَديحِ وأنْ تظاهر بالإبا
مَنْ رَدَ مَدحَك أو تَواضَعَ عِندهُ فقد اشتهى منك المَديحَ مَركبا

أما عن شعره الذي اخترناه في دراستنا الأولى، والذي لا يُمثل إلّا جانباً من جوانب نفسه ، كما يقول: فما ذنبنا نحن وليس بأيدينا غيرَ هذا الشعر ، كما أنه لم يكن منشوراً غيرَ هذا الشعر، وقد طلبنا منه أن يُطلعنا على قسمٍ من شعره الحديث الذي يُمثِّل كُلَّ جوانب نَفسَه ، وأَخّرنا هذه الدراسة انتظاراً لإجابةِ الطلب، وإتماماً للفائدة. ولكنه حفظه الله ضَنَّ بأدبه على النشر ، فلم يكن بُد – وقد تَورَّطنا بنشر الفصل الأول – من الاستمرار بنشر بقية الفصول على ضوء ذلك الشعر.

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة العقيدة (الإسبوعية النجفية) العدد 17-18، الجمعة، 30/ 9/ 1949 ، السنة الأولى ، ص 441-443.

ذكرنا في الفَصلِ الأول من هذه الدراسة نماذجَ من شعر العَلَّامة (شُبّر) الشعر الذي غَلَبتْ عليه صفةُ التشاؤم ، والآن نُريد أن نَدرُس أسبابَ هذا التشاؤم ، وليس من الصعب أن نهتدي الى بعض تلك الأسباب. فَشعرهُ لم يكن من الإلتواء والتعقيد بحيث يَعسر علينا أن نستخلص منه عواملَ تشاءمه ، ويمكننا أن نردها الى خمسة (**) أسباب رئيسية هي العوامل الأولى في تركيز هذه الصفة فيه ، ولا يعني هذا الحصر إنتفاء غيرها من الأسباب ، إذ قد تُوجَد هناك مُسبباتٌ أخرى ، وقد تكون أكثر من هذه الأسباب عَدّاً، ولكنها على كُلِّ حالٍ لا تكون أشد منها أثراً ومفعولاً:

1 – الفاقة:

والفاقةُ مصدرٌ من مصادر التشاؤم ليس عند العَلَّامة شُبّر فَحَسب ، بل عند كُلِّ إنسان أبتُلِيَ بهذا الداء، غير أن أثرها عند شاعرنا أكثر بروزاً بالنظر لمكانته الإجتماعية ، وصِلاته الشخصية ، فهو حين ينظر الى مركزه ومركز عائلته ، وما يَترتَّب على شخصه من فروضٍ وواجباتٍ بالنسبة لعلائقه مع المجتمع الذي يعيش فيه ، ويُوازن بين هذا كُلِّه وبين وضعهِ المادي السَيئ ينفجر عن مثل هذا الشعر الباكي الحزين.

ولـولا صغار عليهم جُـنيتُ وسـوءُ المَغبةِ والمُنقَلبْ[2]
لقدَّمتُ من سَأمي في الحياة لمحكمة الانتحار الطلب

2 – انعدام المقاييس الاجتماعية:

وأَثَّرَ هذا العاملُ في شعرهِ أكبر من العامل الأول لأنَّ الفَقر مهما كان مُدقِعاً لا يترك في نَفسِ صاحبه من ألم بقدر ما يتركه الشعور بالحق المُهتَضَم.

(**)1 في الأصل خمس وهو خطأ مطبعي.

(2) جاء ذكر هذين البيتين في الفصل الأول في معرض التدليل على تشاؤم شاعرنا المُتَرجَم ، ولكننا أخطأنا في الشطر الثاني من البيت الأول فذكرناه على غير شَكلهِ الصحيح ولما كان الأصل كما نشرناه الآن آثرنا ذكرها مرةً ثانيةً تصحيحاً واستشهاداً.

إنَّ شاعرنا في الطليعة من أدباء وعلماء هذا الجيل ، ولكنه ظَلَّ ردحاً من الزمن يسير في محاذاة القافلة ، ولا يقرب منها ، بينما تَقدَّمها أُناسٌ لا يرتضيهم هو أن يكونوا تلاميذ في مدرسته.

وَيحَ السواد ودهرٌ لا حياءَ له ... يُدني البَليدَ ويُقصي كُلَّ خنذيذِ
أمسى يقارن بي عِلماً ومعرفة ... مَنْ فاقَ أستاذه تلميذ تلميذي

***

موطن أحيا به أم مَعطِنُ ... قد رغى فيه غريبُ الإبل
كُلُّ ذي عر نفاه أَهلُه ... ثُم قاءته رحابُ السُبلِ
فهو فينا هيكلٌ يروي العُلى ... عن أبي الهول وجد الهبل
لا تَلم حُراً على عُزلتِه ... قَيَّدَ اليأسُ رجالَ العَملِ

حقاً إنَّ حياة شاعرنا شُبّر كانت من الضِيق بحيث أنّ التشاؤم والجزع قليلٌ عليه ، فقد قضى شطراً كبيراً من هذه الحياة يعاني بالإضافة الى أَلم الفاقة والعَوز ، ألم العزلة والإنكماش على النفس، نتيجة انعدام المقاييس الإجتماعية وجهل الناس أو تجاهلهم لحقيقةِ نفسهِ وأدبه ، لذلك فهو حين يشكو من هذا المجتمع فإنما يشكو بَعَد خبرةٍ واسعة ودراسةٍ وافية، لأكثر أوضاعه وحالاته، وهو حين يتشاءم من صلاح حاله وحال مجتمعه، فلأنَّ الإنتظار الطويل قَتَلَ كُلَّ أملٍ في نفسه.

خَلَقَ اليأسُ منه ناقوسَ حزنٍ ... كان لولا أساره مزمارا
خادع اليأسَ بالرجاء وأفنى ... زهرةَ العُمر رغبة وانتظارا
يَستديرُ الزمانُ وهو على المحـ (م) ورِ يرعى الأفلاك والأقدارا
قفصٌ ضِيقٌ ، وجيرانُ سوءٍ ... لا يراعونَ ذمةً أو جوارا
وسَواءٌ عليهم عندليبٌ ... يَتَغنّى أم يَسمَعونَ حِمارا

***

3-خرافات البيئة:

على الرغمِ من مكانة شاعِرنا الدينية ، وما تفرضه هذه المكانة من قيودٍ واعتبارات ، فإنّه يَتمتَّع بحريةٍ في التفكير قَلَّ أن توجد عند غيره. ممَنْ في مثل مركزه ، ولكنه كُلّما حاولَ أن يجد مجالاً للتعبير عن آراءه بصراحةٍ وَقَفتْ تلك الاعتبارات حائِلاً دون قصده، هذا بالإضافة الى خرافات البيئة المتناهية التي تفرض عليه علاوةً على الصَمت عن الإدلاء بآراءه، مجاراة مجتمعه في الإيمان بكل ما تَنسجُه عقلياتُ ذلك المجتمع وأوهامُهم الباطلة.

إنْ تَـقُلْ لي لا تَـستَمع فبـإمكا (م) نِيَ أن لا أصغي لَمَـنْ يَـتـكلَّمْ
أو تحرم نُطقي فبالـوِسِعِ أيـضاً أن أزمَّ اللِّسانَ أو أمسك الفَمْ
وكذا إنْ أَرَدتَ أَغمضتَ عَيني فكـأني أصـمُ أكـمه أبـكـم
غـير أني لا استـطيع التـغـابي أَينَ مَـنْ يستطيع أن لا يفهم

***

4-اصطراع المصالح:

في البصرةِ زعاماتٌ دينية متعددة، ولكُلٍّ منها دُعاة تجوب مدينة البصرة وضواحيها، تدعو الناس وتَخطُب وَدَّ المُتنفّذين وتُندِّد بالزعامات الأخرى، ولَّما كان لشاعِرنا منزلةٌ مرموقة وكلمةٌ نافذة في الأوساط البصرية كان لابُد لتلك الزعامات أن تتسابق إليه فتتخطب ودَّه ، وقد حاول هو بدورهِ أن يُحقِّق أملَ الجميع عنده ، ويجعل من نفسهِ صديقاً لهم ولكنه أَخفَقَ لتباين أغراضهم وتصادم مصالحهم ، ولّما خَافَ أن ينجرف في تيار أهوائهم اعتزلهم جميعاً ولَزَم بيته شطراً من حياته ، فَتَركَتْ هذه العُزلة المتأتية من اصطراع المصالح عُقدةً في نَفسهِ وتشاؤماً قوياً سادَ معظمَ شعره.

قالوا إنزويت فَقُلتُ لما خانني فيـما رغبتُ لمـعشري تـوفيقي

الديـنُ للتـوحيد يـدعو أهله ومصـالحُ الـرُفقـاءِ للـتفريـقِ
شَـملٌ كـما شـاء العدو مُبددٌ وصراعُ أحزابٍ وغمط حقوقِ
بيعُ الضـميرِ على المنابرِ جـائزٌ في موطنـي ومُحـرَّمُ في السـوقِ

5 – صراحته:

وصراحَتهُ هذه لم تكن من التَطرُف بحيث تُوضَع في قائمة الشذوذ ، ولستُ أعني بها أنه يَقولُ للمجرم أنت مُجرم. في حين هو غنيٌ عن مصارحته ومجابهته بمثل هذا القول. ولكنها صراحةٌ سلبية تَتمثَّل في عدم إطراءه لأي عَملٍ لا يستحق الإطراء، وعَدم محاباته للذين تعوَّدوا دائِماً على [المُحابات] (*) .

أدبي قد جـنى عَـليَّ وخُـلقي مـا تفرّتْ بغـيرِهِ أوداجـي
كُنت أحيا محيا رفاقي سعيداً لو أُحابي هذا وذاك أُداجي

هذه بعضُ أسباب [تشاءمه] (**) ، وقد مَرَّ عليه دورٌ من أدوار حياته تضافرت كُلُّها عليه مرةً واحدة فألهبت حِسه، وأضرمت شعوره ، فإنكفأ على نفسه يُوقع ألحانه الحزينة الباكية، فأخرَجَ لنا هذه المجموعة القيِّمة من الشعر، ولكن بعض هذه الأسباب تضاءل واختفى أَثرُه من شعرهِ ، حين تَملمَلَ حَظَّهُ في مرقده ، وأخذ نَجمُه بالإئتلاق ، وإطمئَنَ الى نَصيبه من الحياة ، أما البعض الآخر فلا يزال يراوده وأَملهُ سيرافقه الى بعد حين.

ولم تقتصر هذه العوامل على صبغ شاعرية علامتِّنا (شُبر) بهذا اللون دونَ غيرهِ ، بل تَعَّدته الى ما يشبه الشك والرَيب في عدالة النُظم السماوية ، ففي مجموعةِ شعرهِ لمحات من ضرام العاطفة المُلتَهبة بنار الإخفاق ، وفيها إنفلاتاتٌ صارخةٌ حادّةٌ من قيود الإيمان المُطلَق الى التأمّل والجَدل المُريب ، وهذه وإنْ كانت لا تُشكِّل فيه باباً مستقلاً يستحق أن

(*) الأصح المحاباة.

(**) الأصح تشاؤمه.

نَفرد لدرسه بحثاً خاصاً ، ولكنها على كُلِّ حالٍ خطرات تلفت النظر، وتسترعي الإنتباه، بالنظر لمكانةِ شاعرنا الدينية ، وتُحرِج المُحيط الذي يعيش فيه ، وإننا لو أردنا جَمعَ ما نَظَمَهُ بهذا الخصوص لم يتَعدَّ الأبيات المَعدودات ، غير أنها على قِلَّتها تُعبّر عن شعورٍ مكبوتٍ لو وَجَدَ الحريةَ الكافية للقولِ لأعطانا أدباً جديداً من هذا النوع.

ففي ساعةٍ من ساعات ضِيقهِ المادي ، وعلى أثر حاجة مُلحَّة يرفع طَرفَه الى السماء، يرتقب العدالة للنظر في شأنه وينتظر الحقَ للبتِّ في قضيته ، فلا يُزَحزِح عنه كابوسَ أَلمه وحزنه سوى أن يقول:

كَيفَ لا أَنـطـقُ هَـجـراً فَلقَـد طـالَ سـكوتي

أنـا يـا جُـم العـطـايـا لم .....

إنْ تكن أعرضتَ عن شأ (م) ني فَقُلْ يا نـفس موتي

وليـكن خَـيـطَ رجـائـي فيك خيط العنكبوت

وفي قصيدة ثانية يقول:

وَكمْ مؤمن جَـرَّه بُؤسُـه الى أن يُشكِّكَ في الخالقِ

وفي العدد 19-20 من مجلة العقيدة الخميس 10/11/1949 السنة الأولى، ص474 ، وقال محمد حسين المحتصر ((كُنتُ قد أعددتُ لهذا العدد الفصل الثالث من دراسة الأستاذ السيد عباس شبر ، وقد درستُ فيه شعره السياسي والوطني ولكن الرقيب مَنَعَ نشره ، لذلك اقتضى التنبيه)).

ومن شعره الذي جمعته من المجلات وقد رتبته حسب سنوات النشر

سوانح

نشرتها مجلة الإعتدال النجفية في العدد 4 في أيلول سنة 1934 ، ص172.

كم من حكيمٍ قد أَحاطَ بما مضى خبراً ويجـهل ما يكونُ مصيره
يستنـزفُ الأفـكارَ في مـستقـبلٍ لو كـان يعلمـه أراح ضـميره

***

كم خَلْتَ هاتيك المَجرَّة إذ بَدَتْ والأفـق قد نِيطَتْ عليه عُقودُه
كِـيساً رمـاهُ الدُهـر ساعةَ غَيظه فَتـبدَّدت وسطَ الفضاء نقوده

***

كـان الوجـودُ ولم تكـن في ظِـلهِ وكـذاك يخلـو منك بـعد قليلِ
إنـي لأحـسب والـتشـابُـه بيِّـنٌ لوح الوجود (كشاشةِ التمثيلِ)

***

تلـقي الـطبيعةُ للـقويِّ قـيادَهـا أبـداً وتفـتكُ بالضعيف وتنتقم
فَـسَلِ الرياحَ علامَ تطفي شمعةً وتزيدُ في لهـبِ الحريق فيضطرم
إنَّ الـطبيعـةَ لا يـروقُ لـعـينـها غير القوي فكـن قـوياً واحتكم

***

يا لـيـلَ يـأسي هـل أراك مُـمـزَّقا بشعـاع آمـال تعـود شـموعا
وِيحَ الزمان لقد أذاب حشاشتي فأسـالهـا مـن مـقلـتي دمـوعا

***

لله أشكـو لا اللـيـالي تـرعـوي فـتكـف عـن حـربي ولا الأيام
إنْ كُنتُ يقظـاناً تَجرَّعتُ الجوى أو نِمتُ أجرت عبرتي الأحلامُ

***

هذي الحياةُ ولو أصبنا الرُشدَ لم نقـرع على ما فاتـنا سـنَ النَـدمْ

جئنا الى سوق الوجود لنشتري كفناً وكان الكُلُّ في وادي العَدمْ

***

أمسى (شكسبير) لشعرٍ قالَهُ كيسوعَ يعبده بنو السكسونِ
والشاعر العربي في أقطارنا يحيى ويَقضي نحبه في الهُونِ

***

هودان يمتد الشعور عليهما لنُكهرب الأرواح والأجسامِ
لهما بأسلاك القلوب علائقٌ قلم الأديب وريشة الرسَّامِ

خطرات

نُشرت في مجلة الاعتدال العدد الخامس في تشرين الأول سنة 1934 ، ص224.

خطراتٌ من الهواجسِ تَنسا (م) بُ فتَجري على غروب يراعى
ودموعٌ أحالها الدهرُ شِعراً رَدَّدتُه الأيامُ في الأسماعِ

***

قد عشقنا الحياةَ وهي جحيمٌ سُعِّرت في صدورنا تسعيرا
وكذاك الفراش تُحرِقه النـ (م) ـيران صباً بمجيئها مسحورا

***

كيمياء الوجود كم فيك فكَّـ (م) ـرنا وحارتْ عقولُنا استغرابا
فترابٌ قد استحال عِظاماً وعظامٌ قد استحالت تُرابا

***

ومُعنّى تفقّدَ العدلَ في النا (م) س غداة استفزه الأرهاقُ
يا لك الخير قد طلبت مُحالاً ليس للعَدلِ في الورى مِصداقُ

***

ليت شعري ماذا يعالج حرٌ قد قضي الدهر أن يعيش شجيا
قَيّدته يدُ الحوادث حتى عاد عضواً في قوامه أثريا

***

رُبَ دمعٍ يراقُ فَوقَ ضريحي من عيون الأحباب بعد مماتي
أطلعته سماءُ قبري نجوماً وكفتني مؤونة الظُلماتِ
بَرهَنَتْ عِلَّتي على صحة الدو (م) ر وما كنت بالحقيقةِ أدري
ضِيقُ صدري يَشتدُ بِي من همومي وهمومي تَشتَدُ من ضِيق صدري

***

شاعرٌ قَرَّحَ البُكاءُ مقلتيه وتلاشت أجفانه في سهاده[1]
ليت في دمعه السخين حناناً يَغسِلُ الدَهرَ حَظَّه من سَواده

خواطر وسوانح

نُشِرت في مجلة الاعتدال العدد السادس تشرين الثاني سنة 1934 ، ص263.

عذيرك يا بن ودِّي من زمانٍ يَعيشُ الحُرُ فيه كالأسيرِ
فأحظى القومُ أكثرهم خداعاً وأجرأهم على سحق الضميرِ

***

أرى نفسي تنازعني أموراً ويَقصِرُ عن تناولها ذراعي
فها هي بارتفاعٍ مستمرٍ وأحوالي تسير الى اتضاعِ
أُعللها فَتطرِّبُها الأماني وتَنسى أنها ثمر المساعيِ

***

سقى الوسميُ عهداً كُنتُ فيه صغيراً إنثنى مَرِحاً وكِبرا
فما ضر الزمان إذا تراخى فرد لخلفه عشرين شبرا

(1) مكسور.

***

أرى الفيحاءَ(*) إنْ هَبَّتْ جنوبٌ عـليها أصْلَتِ الـسكانَ نارا
وإنْ هَـبَّ الـشمال أَثـار نـقعاً فـما تخـليك حـراً أو غـبارا

موطني

نشرت في مجلة الاعتدال العدد التاسع شباط سنة 1935 ص408.

موطني قد وأدتُ فـيكَ فـؤادي إذ تلاشى بـه الرجاءُ جـنينا
نَـضَّ لَمَّـا خـلـعـتـه بـيـمـيـني وَتلوَّى جـوىً وبـاءَ رهيـنا
عَـلَّـني أستريـح مـن وخـزاتٍ في سويدائه تُثـيرُ الـشجونـا
مُغرسي قد ذوى لأجلِكَ غصني أسفـاً لـوعةً غرامـاً حنيـناً
لثـراك الصدِّيانِ أرخصت دمعاً غالياً وامتهنت عمراً ثمـينـا
سَـرَّنـي أن أراك تُـبعَـثُ حَـيّاً وفـؤادي تَـراهُ فـيك دفـيـنا
كَمْ نَشَرتْ الأخبارَ عـنك كئـيباً وطويت المدى عليك حزينا
كُنتَ بالأمـسِ للبـلابل روضـاً كُنتَ بالأمس للأسودِ عرينا
مـن ثَـراك النـدي هَـبَّ أريـجٌ فاتهـمـنا بـطـيـبـه دارينـا
نـبتـت فـيك الـسـن ورؤوس عرفتـنا (البيـان والتـبييـنا)
كُنـتَ خَصـبُ الأديم غير ضنينٍ فلماذا تُـراك عُـدتَ ضنيـنا؟
أيـن أبـطـالك الـذيـن أقـامـوا قبة المَكرُمـات عِلـماً وديـنا؟
أَتـرى الأَرض بُـدِّلَـتْ بـسـواها واستـحالـت نطافها غسلينا
ليتَ صقراً قد طار خلَّفَ [صعْواً] وجـواداً أغـار أبـقى هجـينا
قَلـبَ الـدهرُ صفـحةً لـك مـلآى رفـعةً رونـقاً عـلوماً فـنونـا

(*) يقصد بالفيحاء البصرة.

هـدأت تُـلـكُم النـفوس وَمـرَّتْ مُثقلات القُرون تقفو القرونا
فَـتـبَـوأَ مـن بـعـد مَـدِكَ جـزراً فلكم فِـضتَ أبـحراً وعيونا

أولم يكفِ شاهداً ودليلا

نُشِرَتْ في مجلة الاعتدال العدد 10 آذار سنة 1935 ، ص456.

بـذرةٌ إنْ فـحصـتها تَـلـقَ زيـتـاً ونشـاءً قـد أبطـنت وزلالا
مـنحتـها الـتـفـاعـلاتُ كِـيـانـاً فاستَقَّلت في حقلِها استقلالا
واكتَسَتْ من أوراقِها الخُضر بُرداً سُـنـدسيـاً وأَثـمرتْ بُرتقالا
كـكـراتٍ أو أرؤس مـن نـضـارٍ عَـقَدتهـا مـن حـولها إكلـيلا
أُكُـلٌ طـيِّـبٌ ولـونٌ وعُـرْفٌ أَوَ لَمْ يـكفِ شـاهداً ودلـيلا؟

***

تـلـك جـرثـومـة تـعـوم بـماءٍ أفـرزتـه مجـهزات الـظهـورِ
لَقَّحـت بـيضة فـعـادت جـنـيناً فـولـيـداً فـعاقلاً ذا شـعورِ
يَحـملُ المـعجـزاتِ مـن أبـويـه وهي تنمو بنموه في الـضمير
جـبـلتـها طـبـيـعةٌ في الخـلايـا سُنـة لا تـرى لهـا تـبديـلا
هـيـكلٌ رايـع ونُـطـقٌ وعـقـلٌ أو لم يكـفِ شـاهداً ودليلا؟

***

كـرةٌ تـنهـبُ الـفـضـاء بـسـيرٍ يـتركُ العـقلَ حـائراً مـذهولا
حـول شـمسٍ يُـقـال تـبعد عنها بعد شـفع تسعين مليـون ميلا
وبـيـوم ولـيلة تـقطـع المحـ (م) ور من جانبـيه عرضاً وطولا
وغـريـب أنَّ الـتي اجـتـذبـتها منعتها أن تنـضوي أو تمـيلا
قـوةٌ واسـتـقـامـةٌ وانـتـظـامٌ أو لم يكـفِ شاهداً ودلـيلاً؟

نظرات

نُشِرتْ في مجلة الاعتدال العدد الخامس تشرين الأول 1935 ، ص296.

للدهرِ سَمتٌ في المَسيرِ وغاية ما زال ينجد نحوها ويغورُ
ولسوفَ يُطوى ذا الطريق ألا ترى عجلاته الأفلاك كيف تدورُ

***

نظروا مقدمةَ الحياة لذاتها فبدت جُزافاً في رسومٍ قاتمة
ولو أنهم قد دققوا فَهْرَسْتَها لتَلمَّسوا أسرارها في الخاتمة

***

لا ينجلي عَنكَ العَناءُ بغيره أيقِنْ فما يقصي العناء سوى العنا
إنْ كُنتَ تَشقى في سبيل سعادةٍ تحظى بها فالحق أن لا تحزنا

***

كثرت أطبّاء الجسوم بأرضنا والداءُ كل الداءِ في الأرواحِ
يا مُصلحي الأخلاط هل من مصلحٍ يتناول الأخلاق بالإصلاح

***

أدرس محيطَ المرءِ دَرساً مُتقَناً تعرف حقيقته وتهد لوصفهِ
فالمرء طِلسمُ للمحيط ورمزهِ كالماء يأخذ شكله من طرفه

***

لا تذكر الماضي ولا تَحفلْ به إلا اعتباراً منك في أخطائه
أو لا تُسفِّه مَنْ يسير مُشمِّراً نحو الأمام ووجهه لورائه

***

إنّا بدولابٍ يغور ويعتلي وتديرُ دَفتَه يدُ الأقدارِ

جـهل إمريءٍ كـم دورة يـقوى لها ويغـيب بعـد (بعارض الدُوَارِ)

***

كـم في رواق اللـيلِ باتـت تكتسي روحٌ وأخـرى تَخـلـعُ الأطـمارا
لم يـنعطـف هـذا الهـلالُ كمنـجلٍ إلّا ليـحـصـد تـلـكم الأعـمارا

***

نـظـرٌ بآفـاق الـسـمـاء تُـدبِّـرهْ يُـغنـيكَ عـن نـظرٍ بألفِ كتابِ
وبـحكـمة الخَـلّاق فـكرةُ سـاعةٍ حـقاً تـفوقُ عـبـادةَ الأحـقابِ

رباعيات

نُشِرت في مجلة الاعتدال العدد 6 تشرين الثاني سنة 1935 ، ص334.

لم تـكـن هـذه الحـياة سـوى سـو (م) قٍ وهـذي الأعـمار غـيرَ نـقـودِ
عَـرَّفـتـنـا أيـامُـنـا والـلـيـالـي عـمـلةَ الـدهر بين بيـضٍ وسُـودِ
فابـتضع ما استـطعـت عِـلماً ونُبلا فـهـما يـربـحـان سِـرّ الخـلـود
إنّ يـومـاً تـعـتـاض عـنه بـذكـرٍ لـهـو نـقـد لم يـنصـرف في زهـيد

***

أنا لا أرتـضـي لـفـكـري مجـالاً دون أجـواز هـــذه الـــزرقـــاء
لـي في قـعر ذا الخِـضَـمِّ اتـصـال واتـصـالٌ مُـغلـغلٌ فـي الـعَـلاءِ
لـم يكـن مـهبـطـي عـليَّ ثـقيـلاً لـو تَجـرَّدتُ مـن ثـقـيـل ردائـي
إنـما أنـت غائـص فاطـلبِ الدُّر نـفـيسـاً واعـرجْ بـهِ لـلـسـمـاءِ

***

دميـةُ الـقدس أنـت أيـتُهـا النفـ (م) سُ ولـلـعـقـل فيـك أَيُّ ولـوعِ
كيف زاغت عنكِ الهواجسُ في أكـ (م) ـنافِ صدري وأنتِ بين ضلوعـي
نـورُ عـيني وربـما انعـكس النـو (م) رُ لـعـيـنـي مـن مـرايـا الـدمـوع
هـل أراني أحظى بـطيفِ خـيـالٍ فابعثي الطيفَ إنْ ضمنت هجوعي

***

كـم غـرسنا العـقولَ حولَ سياجٍ مـن عـظـامٍ فـأثـمرت أوهـامـا
واقـتبـسـنـا مـن الأشـعـةِ نـوراً في دُجى البحث فاستـحال ظلاما
وإذا مـا عـجبـت فاعـجب لأمرٍ تـتـسـاوى فـيه الـورى أفـهـامـا
كُـلَّمـا عـالجـوه زاد غـمـوضـاً واكـتـسـى مـن عـلاجـهم إبهـامـا

تحية الربيع

نُشِرَت في مجلة الاعتدال العدد العاشر نيسان سنة 1936 ، ص572.

قد أَطـلَّ الربيعُ واستَضحَكَ الأر (م) ضَ فَـولَّى الـشـتاءُ وهـو عبـوس
يـترامـى للقـطـبِ يخـبـط بالأو (م) حـالِ حـتـى كـأنَّـه مَمـسـوسُ
خَـفَّ عن وكـرهِ الغُـرابُ قصياً وتُـنـزّى مـكـانـه الطـاووس
وتَجـلَّـتْ خـودُ الطـبيعـة تخـتـا (م) ل ببـردِ الجـمـالِ وهـي عـروسُ
وكـأنَّ الفـضاءَ فـاضَ عليـه من نميرِ الألطافِ أو فـيانـوس
فتسابْقـنَ عـومـاً زُمـرُ الأطـ (م) ـيار فالجـو حـافـلٌ مـأنـوس
رَفـرَفَ الحُسنُ في الخمائلِ عُجْباً والأفـانـين تـنـثـني وتَمـيـسُ
مُذ تهادى النَسيمُ يَختلسُ الخـطـ (م) ـو اختلاسـاً كـأنـه جـاسـوس
ومليـك الكـنـار حَـلَّ بعـرشٍ تفتـديـه بـعـرشِـها بـلـقـيـس
من كـؤوسِ الربيعِ وهي شقـيقٌ خـامـرتـه مَـدامـةُ خـنـدريـس
يـا مَلِيكـاً لـه الربيعُ لـواءٌ وزعيـمـاً لـه الـقُـلـوبُ خـميـسُ

إنـمـا هـذه الحـدائـق صُحـفٌ وسـطـورٌ الـزهـور فـيـهـا دُروس
حكـمـةٌ تنـزعُ العقـولَ إليـهـا وجـمـالٌ تـصـبـو إلـيـه الـنـفـوس
وشـؤونٌ يُحار فيها (أبو نصـ*[1]) (م) ـر ويعنـو لهـا (ابـن سـينا) الرئـيـس
فاتلُ (إلياذةَ) السـرورِ فخـوراً أيـن لا أيـنَ منـك ((هـو ميروس))
قُـل ليحيـى الربيع ولتحيـا فيـه دولـةُ الشـعرِ والـجـمـالُ النـفـيـس
ولتفتـح هـذه الغِـراس شعوراً فمثـارُ الـشـعـور هـذا الـغـريـس
وليُـسـبِّـح لله كُـلُّ حـكـيـمٍ أبـداً يـسـتـفـزه الـنـامـوسُ
هَتَـفَ الكَونُ للمُهَيمنِ بالمجـ (م) ـدِ تعـالى المُهيـمِـنُ الـقـدُّوسُ

الحياة وأحلام الطفولة

نُشِرت في مجلة الاعتدال العدد الأول كانون الأول سنة 1936 ، ص35.

وردتُ فلم أهـنـأ بـعـلٍ ولا نـهـل وكم واردٌ بعدي وكم صادرٌ قبلـي
وناهيك مطروقاً مدى الدهرِ آجـناً يفور ويَغلـي في فم الـمرء كالمُهـلِ
عليـه جـموع الواردين تناحـرت فَشَّعشَـعَ مُحمَّـر الغـريـن دمُ القتـلِ
عـذيـرك مـن وردٍ يُروِّيـه أَهـلُـهُ نَجيعاً ومـا رَوَّى حـشـاشـةَ مغتـلِّ
دفـعـتُ إلـيـه ذاهـلاً مُـتَـدلِّـهـاً فلم أشـكُ إلّا بَعـدَ أن ثابَ لي عَقلي

***

شَـعرتُ بأعـباء التكالـيف عندما تَيَّقـظَ حِـسـي للعَـنـاء علـى مَـهـلِ
هي النفـسُ كـانت حُـرَّةً فَتقيَّدت وما القَيـدُ إذ يلقـى على الحُرّ بالسَّهلِ
تضاعف أغـلال الفتـى كُـلَّما نمـا فقـيـدٌ علـى قـيـدٍ وغُـلٌّ علـى غُـلِّ
وإنْ تـك فـي الدنيا طيـوفٌ مريحةٌ فمـا هـي إلّا فـي مُـخـيـلـةِ الطـفـل

(*) أبو نصر الفارابي.

سـقى الله عهـداً للطفـولـةِ نـائيـاً بمرزمـةٍ وطـفـاء مـن صَيِّبِ الوَبـلِ
فـإنْ يَـسـلَ رسمَ فاقداً عن فقيده؟ فذا رسمه في الذهن يُغري ولا يَسلي
إذ البحـرُ وهـو والـنسـيم ملائـم وقاربُ عمري ما تضعضع من وهلِ
وظلي على دهري خفيفٌ ولم أكـن لأشعر من دهري كمـا الآن بالثَقـلِ
كذاك ترى الهَوجـاءَ تلقى ثمـامـةً فتبقـى عليهـا وهـي تَعبـثُ بالأثـلِ
فما بِتُّ والأشجانُ مُلءُ جوانحـي أَجـورُ على ريـبِ الحـوادث بالعَـذلِ
ولا شَحَنتْ صدري الليالي أمانـياً فأشكو أَذى التسويف أو لوعةَ المَطلِ
وليس بـودي أن يـقـومَ بمجلسٍ لي القـوم أو أنـي أُصـدَّرُ فـي الحفـلِ
ولا كنت فـي يـوم أتعتـع فكـرتـي لأعـرف ما أصـل الحياة وما أصلـي
ولا تتصبانـي الـدرارى بـأفـقـهـا إذا مـا تَجلَّـت وهـي رائعـة الشكـل
وما في ضميري غير بعض هواجس تلقيتها عـن أقـربـائـي وعـن أهلـي
فـلا العالـم العلـوي كـان يـهمني ويقلـق بالـي لا ولا العالـم السفـلـي
أرى حارتي الدنيا وسكّانها الـورى وما راق لي فيها سوى اللهو من شغـل
ويحـنـو علـيّ الـوالـدان تعـطـفـاً فيـدفعنـي ذاك الحـنـوّ الـى الـدّلِ
أخاصم خِلـّي ثم ألـقـاه بـاسـمـاً وما فـي فـؤادي مـن غـليـل ولا غـل
وإنْ دهمتـنـي علـى ما وجـدتـنـي أفـكـر خـوفـاً إنـهـا عِـلّـة الـسـل
فإن عشت لم أرهق وإنْ مِتُ لم يكن يـناقشني ربـي حـساباً علـى فـعـلي

أنغام

ذهـب المسعفـون والـداء بـاقٍ وحـران النـفـوس ذاك الحـران
إن فينا غرائزاً لا القوانـيـن (م) عليها قضت ولا الأديـان
هل جراثيم علة النوم والسـلْ وداء الـتـيـفـود والـسـرطـان

فتكت دون رحمةٍ أو حنانٍ فتك أهل الربا بهذا الزمان
بين الغريزة والحجى حرب يبني الدماغ ويهدم القلب
والنفس بينهما مقلقة حيرى براها الدفع والجذب
ستجيب نفسك حين تسألها هل في البقاء عليك من بأسِ
ما الجسم بالبيت المنيع فإنْ لم أنتقل يسقط على رأسي

لمحات

نُشِرَتْ في مجلة الإعتدال النجفية العدد الثاني آذار سنة 1937 ، ص99.

السكونُ شِعرٌ ضَرَبُه كاملٌ ما فيه مقبوضٌ ومخبونُ
تطربني الذرةُ موزونةً وكل ما يُطرِبُ موزونُ

***

ما لمحتْ عيني ((عيونَ الفضا)) إلّا أثارت كل إعجابي
طالعتُها في الأُفقِ حتى بَدَتْ أهدابُها البيض وأهدابي

***

قد تُبهِر الحكمةُ عقلَ الفتى حتى يرى الأشياءَ مقلوبه
أبرأُ للرحمنِ من جاحدٍ يَحسَبُ هذا الكون ألعوبه

***

دقاتُ هذا القلبِ معدودةٌ فاغنم بها حَظَّكَ من دهرك
قد وقّتّ عُمرَك في ((ساعة)) عَلَّقها رَبُّك في صدرك

مزدوجات

نُشِرت في مجلة الاعتدال العدد الثامن كانون الثاني سنة 1938 ، ص428.

أَرى قطـاراً من الأجيالِ سـارَ على خطِ الوجودِ وريبُ الدهرِ سائِقُـه
كم حارَ في طرفيه الركب مُذ خفيا والركبُ مختلـف شَـتّى عـلائـقـه

***

قد يسهل السقم لولا خوف غايتهِ للسـقمِ بالمـوتِ تهديـد وتخـويـف
القبرُ سجنٌ يهـولُ النفـسَ منظـرُهُ وإنما السقم دون السجن (توقيفُ)

***

وكـــم مـن بـاطـلٍ يبـتـزُ حقـــاً مـطـارفـــه بمـشـحـوذِ الـشـفـــارِ
فجـسـم الـبـاطـلِ الملعـون كاسٍ وجـسمُ الحـقِ بـين الـنـاسِ عاري

***

وكـم مـن طـامـع سَـفهـاً بـعـدن بـــلا عـــمـلٍ ولا قـلبٍ مُـنـيـــبِ
أَيُـطـــرَدُ آدمٌ مـنـهـــا لـــذنـــبٍ وتـــدخـلـهـــا بآلاف الـــذنـــوبِ

***

قـال إنَّ الـزمـان أَرهـــقَ نفسي وتـمـــادى عـلـيَّ بالـعـــــدوان
قُلـتُ صـبراً فللـردى منجـنيـقٌ يـقـذفُ الـنـفسَ ما وراء الـزمـانِ

***

لـم تكـن تنفـع الـوجـود بمأتـا (م) كَ وتمضـي ولا يَـضـيرُ افـتـقـادُك
فـاغـتـنم يقظـةَ الحـيـاةِ نـهـــاراً قـبـل لـيـلٍ يـطـول فـيـه رُقـادُك

***

لَسـتَ إلّا – كالروزنامة – إنْ يمـ (م) ضِ نـهـارٌ فقـد رُزِءت بـجـــزءِ
أمـد ينـقـضـي ولـولا رجـائـي لـنـظـرت الحيـاةَ نـظـرةَ هُـــزءِ

مزدوجات

نُشرت في مجلة الاعتدال العدد الأول في كانون الأول سنة 1938 ، ص24.

إنّ الــذي فيــه نعـوم وجل مـن هــذا الأثـير لـه مـن الآثـــــارِ
تتمـاوج الأفـكـارُ فـي غمـراتـهِ كـتمـاوج الأنـبـاء والأخـبـــارِ

***

حبُ التفوق في النفوسِ غـريزةٌ جُبِلَـتْ لمصلحـةٍ (بحب الـذات)
تهوى الطبيعة أن تـراك مـسابقاً نـحــو الكمـال بـدافـع اللَّــذات

***

قالوا الطبيعة لم تكن في حُكمـها ضد الضعيف على الضعيف تحيـفُ
فالضَعفُ ذَنبٌ والفناءُ جــزاؤه إذ لـيـس يَصلَـحُ للبقـاءِ ضعـيـفُ

***

لا تَحقرَنَّ إذا اختبرت صغـــيرةً تخــفـى ويُبديـهـا الحجـى الـوقـادُ
فالصِفرُ ليس لذاته مــن قيمــةٍ لـكـن بـه تـتـضـاعــفُ الأعــدادُ

***

وغـرائـــز فـيـنـا مـركـبـــــة نُـبـلـى ومـا بَـرحَـت بـجـدتـهـا
للخـيـرِ لا للـــشـــر تَـدفـَعـنُا لـو نُـحـسِـنُ اسـتـغـلال حِـدّتـها

سوانح وخواطر

نُشرت في مجلة البيان العدد الأول في حزيران سنة 1946 ، السنة الأولى ، ص14.

لا يألفُ المَجَدَ مَنْ باخَتْ عزائمُـه فَدولةُ المَجدِ بين السـيفِ والقَلمِ
المَـجـدُ مـمـلكـةٌ تُحـيـي شـبيبتها في خدمةِ العِلم أو في خدمة العَلَمِ

***

عـودان وحيُ الفنِ بـاتَ عليهما وقفـاً لأبناء الشعـور السـامـي

لـهمـا بأسـلاك القلـوبِ علائقٌ قلــمُ الأديب وريشـة الرسّـَام

***

المَــرءُ يـصبــو للـثـنـا ويَهــزُّه فَقُمْ لمـديحٍ وإنْ تظـاهَــرْ بالإبـا
مَنْ رَدَّ مدحَـك أو تواضَـعَ عنـدهُ فقـد اشتهـى منكَ المَديـحَ مَركبـا

***

يقولون إنّ الحـربَ حربُ مبـادئ كما نُسِبَتْ من قَبلُ للجنس والدين
وما الحرب إلّا للمطامـعِ تنتمـي فليست لتحرير وليسـت لتَمـدينِ

***

عزائيَ من دنياي كتبٌ بدرسِهـا خلالَ ديــار الغـابريـن أَجــوسُ
عقول تناجيني وقد غاب أهلُهـا فأوطانُهـا بعـد الـرؤس طــروسُ

رباعيات

نُشِرَت في مجلة البيان العدد 3-4 آب سنة 1946 ، ص18.

كَمْ هَدَّمنا للأولـينَ صُروحـاً رَمَّمتهــا أسـلافُنـا أحقــابـا
واستعضنا عنها بما قد عَمَرْنا من صروحٍ كانت قديماً خرابا
مَنْ لقوم تضـاربوا في خبـايا ضَــربَ اللهُ دُونهـن حِجــابا
فاستوى مُخطئٌ على غير عمدٍ ومُصيبٌ لم يَـدرِ أن قد أصابا

****

عَرَفَتْ قيمـةَ الحيـاةِ رجــالٌ تَخِذَتْهــا جِسـراً لــدارِ الخلــود
فاستراحـت أَفكارُها لرجـاءٍ يَعصِمُ النفسَ من قنوطِ الجحود
سَلَّمتْ أَمرَها الى بارئ الأمــ (م) ــر خضوعاً وآمنتْ بالوعــودِ
ما سوى الدين من دليلٍ وهاد إنْ تَحيَّـرْتَ في ظـلام الوجــود

****

ليس بين الدين السماوي والعِلْـ (م) ـمِ اختلافٌ بجـوهر أو بضربِ
بل هما تؤمان في كل جيلٍ أبداً يَمشيانِ جنباً لجنبِ
أَنجبتْ فيهما الحقيقةُ منذ الـ (م) ـبدء حلفين عند سِلمٍ وحربِ
مَنْ يغظ واحداً فما هو للآ (م) خر مهما إدعى الهوى بالمُحبِ

****

لا تروق الحياة إلّا مع العلـ (م) ـم فقُصرى الحياةِ معه طويله
إنَّ للعلم لذّة عرفتْها نفسُ حُرٍ تَذوَّقت سلسبيله
فاطلب العِلمَ ما حَييِّتَ لذات الـ (م) علم إنْ كُنتَ من هواة الفضيله
رَفَعَ العلمُ للسماءِ رجالاً تخذوا العِلمَ غايةً لا وسيله

سوانح

نُشِرت في مجلة البيان العدد الخامس في آب 1946 ، ص16.

كم من حكيم قد أحاطَ بما مضى خَبراً ويَجهلُ ما يكون مَصيرُهُ
يَستزفُ الأفكارَ في مستقبلٍ لو كان يعلمه أراح ضَميرَه

***

كم خِلْتَ هاتيك المَجرَة إنْ بَدَتْ والأفق قد نِيطت عليه عقوده
كِيساً رماهُ الدهرُ ساعةَ غيظه فتبدَّرت وسط الفضاءِ نقوده

***

كأنَّ الوجود ولم تكن في ظِله وكذاك يخلو منك بعد قليلِ
إني لأحسب والتشابه بيّنٌ لوحِ الوجود (كشاشة التمثيل)

***

يا ليلَ يأسي هل أراك مُمزَّقاً بشعاعِ آمالٍ تعود شُموعا
وِيحَ الزمان لقد أذاب حشاشتي فأسالها من مقلتيَّ دموعا

***

لله أشكـو لا الليـالـي ترعـوي فَتَكُـفَ عن حــربي ولا الأيـامُ
إنْ كُنتَ يقظاناً تَجرَّعتَ الجوى أو نِمتَ أَجرتْ عبرتي الأحلامُ

***

هذي الحياة ولو أصبنا الرشدَ لم نقـرع على ما فاتنا من النـدمِ
جئنا الى سوقِ الوجود لنشتري كفناً وكان النكل في وادي العَدَمِ

***

أمسـى شكسبيـر لشعـرٍ قـالـهُ كيسوعَ يعبـده بنـو السكسـون
والشـاعر العـربي في اقطــارنـا يحيـى ويقضـي نحبـه في الهـون

***

عودان يعتد الشـعور علـيهما لتكهرب الأرواح والأجســامِ
لهـما بأسـلاك القـلوبِ علائقٌ قـلمُ الأديبِ وريشـة الرسَّــامِ

الأنـفـاس المحترقـة

نُشِرتْ في مجلة البيان العدد 6 أيلول سنة 1946 ، ص9.

طبيبـي عَجَـزَ القَلـبُ أمــا أَنبــأكَ النَبــــضُ
عناءٌ يمضغ الجِســـمَ لـكـي تبلعــه الأرضُ

***

دع الفسفــور يا آسـي فما الفسفـور يَشفينـي
ولا ربـط الـذراعيــن ولا فَصـدُ الشـراييــن

***

مناخٌ خانـقٌ قـد عِشــ ـتُ فيـه دائمُ الشكـوى
سرى الضَعفُ به كالدا ء يصمي الناس بالعدوى

***

فلا تَعجَـب إذا كـان به نَشـأي وميــلادي
فقـد تُنبِـتُ حينــاً نبـ ـعةُ البُستان في الوادي

***

تَرعرَعتُ على رغمـي غريبَ النـوعِ والجِنـسِ
فـلا غـرو إذا اعتـلَّ فؤآدي أو غثت نفســي

***

جمودٌ خـامَرَ النــاسَ بكـأسٍ منـه مثلــوجـة
فأنّى أبعث الطَــرفَ أرَ الأرواحَ مَفلــوجَــة

***

ءأبقـى ثـاويـاً فيـهــا كمَنْ ضَـلَّ عـلى عَلــمِ
أعاني غُربةَ الــرُوحِ وأشكو سَقَمَ الجســمِ
أرى أرضـي لا تعــر فُ من شأنيَ غير اسمي
كأني مُصحَفُ الحِلفِ عـلى منضـدة الحُكــمِ

***

فَكـمْ رَدَّدتُ من لحـنٍ وكم أَنشـدتُ أشعـاري
وما غير الصَدى الحاكي يـردُ اللـحـنَ للقـاري

***

أراحَ اللهُ قلـبي مـن بـلادٍ أوغـرتْ صـدري
ولا سامحَ فيها عُصبةً قـد جَـهلـتْ قـدري[1]

(1) [مكسور الوزن]

رباعيات

نُشِرتْ في مجلة البيان العدد 8 في تشرين الأول سنة 1946 ، ص10 .

– 6 –

ربطتْ حاضراً بماضٍ وآتِ حلقاتٌ ليست لها آجال
من طروسٍ تسلسلت وسطورٍ قصرت عندها العُصورُ الطِوال
هي عند اليسار عقل وعِلمٌ وهي في ساعة الخصاصة مال
كَتَبَ الناسُ قبلنا وقرأنا وكتبنا وتقرأ الأجيالُ

– 7 –

تَسَّعي المُلكَ والخلايا عِوارٌ يتنقّلْنَ والزمانُ المُعيرُ
قد يُذري على نواصي الذراري بعض ذراتنا غداةَ يَطيرُ
قِيل هذا الفراش صلبٌ فَدَعهُ يُحمَدُ النومُ والفراشُ وثيرُ
قلتُ إنْ كان هيكلي من ترابٍ فعليه هذا الفراش كثيرٌ

– 8 –

أترى ثم يرتجى من صلاحٍ لنفوس يؤزها الطغيانُ
فسد الاجتماع واستوبأ الجمـ ـعُ وشاعَ التضليلُ والعدوانُ
ذَهَبَ المُسعِفونَ والداءُ باقٍ وحران النفوس ذاك الحران
إنَّ فينا غرائزاً لا القوانيـ ـنُ عليها قَضَتْ ولا الأديانُ

– 9 –

تتلاشى العلائقُ الوِدّيَّهْ باختلاف المصالح الفرديهْ
ما توانى عن التطور (حُبُّ الذْ) ذَاتِ في المريء منذ كان خَليه
لا تقل آثر الجواد بشيء إنما خصَّ نَفسَه بالمزيه
وولوع الفتى بأهليه فرعٌ من فروع المَحبةِ الذاتيه

-10-

إنْ تَقُلْ لي لا تستمع فبإمكاني إنْ لا أصغي لَمَنْ يَتكلَّمُ [مكسور]
أو تحرم نُطقي فبالوِسعِ أيضاً أنْ أَزُمَّ اللسانَ أو أمسكَ الفَمُ
وكذا إنْ أردت أغمضت عيني فكأني أصمٌّ أكمه أبكَمُ
غير أني لا استطيع التغابي أين مَنْ يستطيع أنْ لا يَفهمُ؟

رباعيات

نُشِرت في مجلة البيان العدد 9 تشرين الأول سنة 1946 ، ص5.

-11-

أَيُّها المُنعش المشاعرَ بالشعرِ أسحراً تجلوا لنا أم رحيقا
قد ملكت (البيان) طُراً فما أبـ قيتَ لفظاً حُراً ومعنى رقيقا
فرأينا فِعلَ الرحيقِ جديداً ضعف ما يَفعلُ الرَحيقُ عتيقا
ونهضنا الى الرحال سُكارى وسعيد مَنْ قد أصاب الطريقا

-12-

أدبي قد جنى عَليَّ وخُلقي ما تغرَّت بغيره أوداجي
كُنتُ أحيا مَحيا رفاقي سعيداً لو أُحابي هذا وذاك أوداجي
لم يرقْ لي أني أطعم حيناً بنفاقِ الورى نقيُ مزاج
ولكم أدخل السمومَ طبيبٌ في العقاقير عن طريق العِلاج

-13-

لَستُ أرضى لصقر فكري مجالا دون أجواز هذه الزرقاءِ
لي في قمر ذا الخضمّ إتصالٌ واتصالٌ مغلغلٌ في العلاءِ
لم يكن مهبطي عليَّ ثقيلاً لو تَجَرَدتُ من ثقيل ردائي

إنما أَنتَ غائص فاطلب الدهـ ر نَفيسَاً واعرجْ بهِ للسماء

-14-

دَميتِ القُدسَ أَنتِ أَيَّتها النفـ س وللعقل فيك أيُّ ولـوعِ
كيف زاغت عنك الهواجس في اكـ ناف صبري وأنتِ بين ضلوعي
نُورُ عيني وربما انعكس النورَ لعينـي من مرايا الدموع
هل أراني احضى بطيفِ خيالٍ فابعثي الطيفَ إنْ ضَمنتِ هجوعي

-15-

ليس في هذه البلاد مقاييـ ـسٌ ولا في أبنائها مَنْ يقيسُ
كُنْ دخيلاً وارأس بها كيفما شِئـ ت فإنّ الدَخيلَ فيها رئيسُ
وإذا أعوزتك بسطة عِلمٍ فسيغني مكانها التدليسُ
قد نَصَحتَ الطاووس أن يتعرّى إذ تساوى الغرابُ والطاووسُ

رباعيات

نُشِرَتْ في مجلة البيان العدد 10 في تشرين الثاني سنة 1946 ، ص11.

-16-

كيف يرضى لي الرسوبَ ذكاءٌ عربيٌ كنيزكٍ نفَّاذ[1]
ودَمٌ قد ورَثتهُ عن عليٍ وبنيه الأئمة الأفذاذِ
إنّ ذهني عند الدراسة من شمعٍ وقلبي في الرَوع من فولاذِ
لا تَسلني يا والدي عن رسوبي إنّ سر الرسوب في الأستاذِ

-17-

أيُّها السادرُ المكللُّ شَيباً من غبار الطريق هذا القتير

(1) نظمها على لسان ولده نعيم عندما رسب في المدرسة.

سر على اللاَّحب السوي رويداً فغـداً يلتـوي عليك المَسـير
تحت ليل الشباب قد يعذر العا ثر لـو أنّ عـاثـراً مـعـذور
وَيصبحُ المَشيبُ أَنتَ وهل يعـ ثر عـند الصبـاح إلّا الضَـرير

-18-

فـي الجـانـب الأدبـي نـقـ ص بـارز كـالاخـتـزالِ
ونـرى الهـيـولـى دونـه أخـذت بـأطـراف الكَـمـالِ
إنْ قُـلـت مـا ونـت الـعنـا يـةُ عـن قـصـورٍ أو كلالِ
ثـبـت الـتـمـام وراءه فـي عـالمٍ جـم الجَـمـالِ

-19-

قـالـوا يَـجـوزُ لـنا الخلـو دُ وقَـولُـهُـم لا شَـكَ غَـيٌّ
حـكـمُ المنيـةِ قـرَّ فِي الْ أصـلاب مـا قـرَّ المَنـيُ
المـوتُ لـيـس يـعـوقـه مـهما تَـرقَّى العلـمُ شـيءُ
هـو فـي الطـعام وفي الـشرا بِ فكيـف ينـجو منه حيُ

-20-

كم غرسنا العقولَ حولَ سياجٍ مـن عظـامٍ تناثـرت أوهـامـا
واقتبسنـا من الأشعـةِ نـوراً في دُجى البحث فاستحال ظلاما
وإذا ما عِجبتُ فاعجـبُ لأمرٍ تتسـاوى فيـه الـورى أفـهامـا
كُلـما عـالجـوه زاد غمـوضاً واكتسـى مـن علاجِهم إبهامـا

رباعيات

جواهر وصور

نشرت في مجلة البيان العدد 15 في شباط سنة 1946 ، ص80.

-21-

رُبَ نـفـعٍ شاملٍ في حـكمـةٍ بعثتهـا الفـكرةُ المُختصـرة
وبحـوث يـنقضي العُـمرُ بهـا دون أن نقطف منها الثَمـرة
تـاه بعـضُ النـاسِ في فـلسفـةٍ أَصبَحتْ في عصرنا مُحتضَرة
قَصَـرَتْ عـن فـهم عقلٍ واحدٍ واستطـالت لعقـولٍ عشـرة

-22-

يـا خـضـماً كـم عـلى لجَّـتهِ هـال عينـيَّ شـراعُ الفَـلق
كُلَّمـا أطلـقـت في أجـوازه خاطـري عـادَ بقيـدِ القلـق
سوف يطفو فيك رُوحي سابحاً لم يكن يثنـيه خـوفُ الغَرق
لا أرى الأرضَ التـي أسكنهـا غيـرَ صندوقٍ لـثوبي الخـلقِ

-23-

قيل هل أطريت شـطاً سـاحـراً حَسَدَ الـفُرسُ عليه العَـربا
منـظـرٌ تنبسـطُ النفـسُ لـه يُلهمُ الشعرَ ويُوحي الطَربا
قُلـت مـالـي ولشـط عنـده كم نما شـوكُ عـنائي وربا
حسْبُ شطُ العُرْبِ عاراً فاضحاً ظمأ القُـربـى وريّ الغـربا

-24-

لـم تكن هذي الحياة سوى سـو قٍ وهذي الأعمار غيرَ نقـودِ
عَـرَّفتنـا أيـامنـا والليـالـي عملةَ الدهرِ بين بيضٍ وسُودِ
فابتضع ما استطعت عِلماً ونُبلا فهمـا يربحـان سِـرَّ الخلـودِ

إنْ يومـاً تعتـاض عنه بـذكـرٍ لهو نقد لم ينصـرف في زهيـدِ

-25-

كـرةٌ تنهـبُ الفـضـاءَ سـيراً يترك العقل حائراً مـذهولا
حول شـمسٍ يُقـال تبعـد عنها بعد شفعٍ تسعين مليون ميلا
وبيـوم وليـلةٍ تقطـع المحـو رَ من جانبيه عرضاً وطـولا
وغريبٌ أن الـذي اجـتذبتهـا منعتها أنْ تنضوي أو تميـلا

مزدوجات

سوانح وخواطر

نشرت في مجلة البيان العدد 16 في شباط سنة 1946 ، ص17.

قد عشـقنا الحيـاةَ وهـي جحيمٌ سُعـِّرتْ فـي صدورنا تسـعـيرا
وكـذاك الفَـراشُ تُحـرِقُه النيـ ـران صبـاً يجيبـهـا مسحـورا

***

صَحَّ عندي الدور الذي أبطلوه فهـو دورٌ بـه يمثـل ضـري
ضيـقُ صدرٍ يشتـد بي من همومي وهمومي تشتد من ضِيق صدري

***

كيـمياء الوجود كم فيـك فَكَّـر نا وحَـارتْ عقـولنـا استغـرابـا
فتـرابٌ قـد استحـال عِظـامـاً وعظـامٌ قـد استحـالـت تـرابـا

***

للـدهر سَمـتٌ في المَسـيرِ وغـاية ما زالَ ينجـد نحـوها ويغـورُ
ولسوف يطوي ذا الطريق ألآ ترى عجـلاتـه الأفـلاك كيـفَ تـدور

***

ومُغـنٍ تَفقَّـد العَـدلَ فـي الـنا سِ غـداة استفـزه الإرهـاقُ

يا لـك الخـير قـد طلـبت مُحـالاً ليـس للعـدلِ في الورى مصـداقُ

***

نظـروا مقـدمـةَ الحيـاة لـذاتهـا فَبَـدتْ جـزافا فـي رسـومٍ قاتمـة
ولـو انـهـم قـد دققـوا فِهْـرَسْتَهـا لتلمَّسـوا أسـراراهـا فـي الخـاتمـة

***

لـيت شعـري مـاذا يعالــج حـر قد قضى الـدَهرَ أن يعيـش شجـيا
قَيَّـدتـه يــدُ الحــوادث حـتـى عـاد عضــواً فـي قومــه أثـريــا

***

لا يَنجـلي عنــك العنـاءُ بغيـرهِ أَيقِـنْ فمـا يقصي العناءَ سوى العنا
إنْ كُنتَ تشقى فـي سبيـلِ سعـادةٍ تحضـى بهـا فالحَـقُّ إن لا تـحـزنا

***

رُبَّ دمـعٍ يُـراق فـوق ضــريحـي من عيـونِ الأحبـاب بعـد مـاتـي
أطلعتـه سـمـاءُ قـبري نجــومـاً وكفتـنـي مــؤؤنـة الظُلـمــاتِ

***

كَثُــرتْ أطبـاءُ الجسومِ بأرضــنـا والـداءُ كُلُّ الــداءِ في الا أرواح
يا مُصلحي الأخلاط هل مِنْ مصلحٍ يـتـنـاول الأخـلاق بالإصـلاح

مزدوجات

سوانح وخواطر

نُشرت في مجلة البيان البيان العدد 17 مارس سنة 1947 ، ص9.

شاعــرٌ قَـرّحَ البُكـا مقلتيـه وتَلاشَتْ أجفـانه في سهـادِهِ
ليت في دمعه السخـين حنـاناً يَغسلُ الدَمعَ خطَّه من سواده

***

إِدرسْ مُحيطَ المَرءِ دَرسَاً مُـتقَناً تعرف حقيقتـه وتَهدِ لوصـفه

فالمرءُ طلسم للمحيـط ورمزه كالماء يأخذ شكلـه من طـرفهِ

***

عَذيـرُك يا بن ودِّي من زمـانٍ يعيــش الحُرُ فيــه كالأسـيرِ
فاحظى القوم أكثرهم خداعا وأجرأهم على سحقِ الضمير

***

لا تَذكُر الماضي ولا تَحفَــل به إلّا اعتبـاراً منـك في أخطـائهِ
أو لا تسفِّه مَنْ يسـير مُشمّـراً نحو الأمـام ووجهـه لورائـهِ

***

أرى نفسـي تنـازعـني أمـوراً ويقصر عـن تناولهـا ذراعـي
فهــا هـي بارتفــاعٍ مُستمــرٍ وأحوالـي تَسـيرُ الى اتضــاع
أُعللهـا فتطــرِّبها الأمــانـــي وتنسى أنها ثمـر المساعـــي

***

إنا بـدولابٍ يغــور ويعــتلـي وتـديـر دفتــه يــدُ الأقــدار
جهلُ إمرء كم دورة يقوى لهــا ويغيب بعد (بعارض الدوّار)

***

سقى الوسمي عَهداً كُنتُ فيــه صغيـراً أنثني مـرحـاً وكِبـرا
فمـا ضَـرَّ الزمـان إذا تـراخـى وَفـرَّ لخلفـه عِشـرينَ شِــبرا

***

كَمْ في رواق الليلِ باتت تكتسي روحٌ وأخرى تخلع الأطمـارا
لم ينعطف هذا الهـلال كمنجـلٍ إلّا ليحصد تلـكم الأعمـارا

***

أرى الفيحـاء إنْ هَبَّـت جنـوب عليها أَصْلَـتِ السكـانَ نـارا

وإنْ هَـبَّ الشمــالُ أثـارَ نقعـاً فمـا تخليـك حـراً أو غُبــارا

مزدوجات

سوانح وخواطر

نُشرت في مجلة البيان العدد 21 مايس سنة 1947 ، ص15.

نَظـرٌ بآفـاق السمـاء تُـديـره يُغنِيكَ عـن نظـرٍ بألفِ كتــاب
وبحكمةِ الخَلَّاقِ فِكرةُ ساعةٍ حقاً تفـوق عبـادة الأحقـــاب

***

مرض الدين يا أساهُ ولولا الـ جهلُ ما أوغل السِقامُ بجسـمه
جَهلُ البَعضِ داره حين داوا ه وذو الجَهلِ يقتل الدينَ بإسمه

***

قال إنّ الزمانَ أرهـق نفسـي وتـمـادى علـيَّ بالـعــدوان
قُلتُ صبراً فللردى منجنيـقٌ يَقذِفُ النَفـسَ ما وراءَ الزمـانِ

***

لله خـالٌ فَـوقَ وجـنـتـهـا يُردي العَفـافَ ويَقتـلُ النُسـكا
طَبَـعَ الجَمـالُ بـديـعَ خـاتمـه فيـه وكـان ختـامــه مِسكـــا

مزدوجات

خوالج النفس

نشرت في مجلة البيان العدد 27-28 الأول من تشرين الأول ، سنة 1947 ، السنة الثانية ، ص695.

قضى الدهر أن لا يسود الجبانُ ولا يبلغ القَصدَ جليس الزوايا
فغـامر بنفسك فـي الحـالتيـن فأمــا الأمـانـي وأمـا المنـايـا

***

وغـرائـز فـيـنـا مـركبـةٌ نبلى ومـا بـرحـت بجـدتهـا
للخيـرِ لا للشـرِ تـدفعـُنـا لو نحسـن استغـلال حـدتهـا

***

أَيطلُ في وجهي المشيـب ولم أستوفِ من عهد الصبا دينـي
هي شعـرةٌ بيضـاءٌ في ذقنـي أم شـوكةٌ سـوداءٌ فـي عينـي

***

هـب أن ذا المـال الكـثيـ ـر إذا تَـكبـرَّ يُعـذَرُ
مـاذا تـقـول إذا بُـلـيـ ـتَ بـبـائسٍ يَتكبَّـرُ

***

لا أشتكـي دهـري لـغيـ ر الله مهمـا هـاج وجـدي
سيـانُ عطـفُ أحبتـي وشمـاتـةُ الأعـداء عنـدي

***

كـم تَستـميح الليـالـي فـلا تـرى غـير حـرصِ
تُـريـدُ منـهـا مـزيـداً فـتَبتـَليـكَ بـنـقـصِ

مزدوجات

خوالج النفس

نُشِرت في مجلة البيان العدد 29-30 الخامس عشر من تشرين الأول سنة 1947 السنة الثانية ، ص749.

غـامِـر بـنـفـسِـكَ وأعـلـم أنّ الـحـيـاة عِـراكُ
واقـدم فـأمـا نـجـاحٌ تحـظـى بـه أو هـلاكُ

***

ضـعـف الإرادة مـوتٌ فـليحـيى رب الإرادة
فـمـا وشيـج الـمـوالـي إلّا سيـاج الـسـعـادة

***

راع إخوانك واحرص عليهم تحرز النجدةَ في كُلِّ ضيقِ
لا تُكلِّف غيرَ نزرٍ صديقاً يأكل التكليف ودَ الصديق

***

لا تَخدعنَّك القابٌ مُزوَّقهٌ فكم تضمن من هزوٍ ومن زور
يا ربُ سوداء قد تدعى بلؤلؤة وأسودٍ كالدُجى يُدعى بكافورِ

***

ويح السواد ودهر لا حياءَ له يُدني البليدَ ويقصي كل خنذيذِ
أمسى يقارن بي عِلماً ومعرفة مَنْ فاق استاذه تلميذ تلميذي

***

قالوا سيمتد عهدُ السلم مزدهراً حتى يلاقي به الإنسان مصداقه
فقلتُ آيةُ هذا السلم قنبلةٌ تُفنى بها طاقة الأحياء في الطاقة

***

يقولون هذا العصرُ عصرُ تمدنٍ وذلك قول يُستساغ بأفواهِ
لقد ضمت الدنيا فساداً فاعوزت لطوفانِ نارٍ لا طوفانَ أمواه

***

يقولون بين الخلق والخلق نسبة بدرس الخلايا والحُجيرات تظهرُ
إذن يصبح الإنسان في الإرض آلة فما ذنب ((رابوت)) عليها يُسيّرُ

***

يقولون ضَـجَ الغربُ ذُعراً وخشيةً غداة تَفشَّت عِـلَّةُ النومِ في القـومِ
فَقُلتُ وكم في الشرقِ قد ضَجَّ ساهرٌ يتوق من البلوى الى مرضِ النوم

***

يقـولـون إن الصَبـرَ لا بدَّ مثـمـرٌ فقلتُ أجل لكن على جانبي قبري
قضيتُ حياتي ازرعُ الصَبرَ فاسمحوا بأخرى لكي أجني بها ثمرَ الصـبرِ

***

يقـولـون إنَّ الله فـادى عبـاده بصلب ابنه المختار في سالف العهد
فقلتُ: قصاصٌ يَشهَدُ العقل أنه على كبـد الجـانـي ألذُ من الـشَهـدِ

***

يقـولون إنَّ الـدين فَـرَّق جمَعنـا وليس كمثل الديـن للناسِ جامـعُ
ولكنهم زاغـوا به عـن طـريقـه وزاغت بـهم للاخـتلاف المـطامع[1]

***

يقولون صِدقنا بما جاء عن هدى وربَ جحـود مستكـنٍ بتصـديق
فضايع يبكي عندها كـل مؤمـنٍ ويضحك منها ساخراً كُـلُّ زنديـقِ

***

يقولون للتـحرير تصبو قلـوبنا وليس لحرٍّ في الوجـود وجـودُ
كفـى بقماطِ الطـفلِ فـي بدءِ أمره دليـلاً علـى أن الحيـاة قيـودُ

***

يقولون عهد الحرب بالحربِ ينتهي ولا بُدَ مـن يومٍ به تـلـد السِـلما
وما هي إلّا بنتُ حـربٍ تَقدَّمَـتْ وأم حـروب لا نحيط بهما عِلما

(1) [مكسور].

***

لا درَّ درَّ عصـابـة {ركنيـة} لـم تـرتكـن إلّا الـى الألـغـازِ
تخشـى عـلى التصريح حملةَ ناقدٍ فتـلـوذُ بالتـلـويـح والإيجـاز

***

يـا قـاتـلَ اللهُ الـرياسـةَ إنهـا لتجـرُّ عـاشقهـا الـى التضـليـلِ
كـم نـاهضٍ باسم الحقيقة والولا بحقيبـة مُلِئـت مـن التـدجيـل

***

بـلوتُ صروفَ الدَهرِ منذ عَرفَته وكَمَّلني دهـري فنـونَ المغـارم
فلم أر في شتى الكـوارث لـوعـةً كلوعةِ مظلـومٍ بأثـوابَ ظـالـمِ

***

يا طـفـل لـو خُيـرِّت مـا اخـ ـترت الوجـودَ علـى العـدم
أبـواك نـالا لـذةً مـلأت حـياتـك بـالألـم

***

يا حـبـذا تمـريـض أم بـرة وأب حـنـونِ
ودا بـأن يـتـقـارعـا دون الـولـيـد علـى المنـونِ

***

يَـبـكي الـصغـيرُ ومـا لـه نـطـقٌ فـيشكـو مـا ألـم
إنّ الـبكاءَ ولا أشـك يُـعـدُّ مـن لـغـة الألـم

***

ليتَ الحياةَ تضـيف للسْـ سُـعـداء عُـمـرَ الأشـقـياءِ
فـتزيـد غـبـطـةَ هـؤلاء أزاء راحـة هـؤلاءِ

خوالج النفس

نشرت في مجلة البيان العدد 31-32 يوم 15/ 11/ 1947 السنة 2 ، ص 812.

إنْ يطر على مـرآة نفسـي غبـار الجسمُ في زعزع دعوها المنية[1]
تَتَمثَّـل فيهـا الحقيقـةُ شمسـاً من سمـاء الخلـود والأبـديـة

***

قـل لَمَـنْ يـدعـي الطهـارة زوراً وهو لو أَعمَلَ الحجـى لتريَّث
ليست الأرضُ غيرَ حش الخطايا مَـنْ تَـردَّى بهـا ولم يتـلـوث؟

***

أحيـاةٌ في الجسـم أم هـي حمـى؟ فـي حجيـراتـه تشـع حـرارة
والمنـايـات [كـنينهـا] وقديمـاً نعت النـاسُ طعمَهـا بالمـرارة

***

قِيل هذا الفراشُ صلـبٌ فدعـه يحمـد النـوم والفـراشُ وثيـر
قلتُ إن كان هيكلـي من تـرابٍ فعليـه هذا الفـراش كثيـر

***

ليس للمرء غيرُ ما نالَ واستهـ ـلك من مالهِ الغزيـر ووفـره
سـاعـةٌ للبـخيـل يدفـع فيـهـا ضِعفَ ما يَنفـقُ الجوادُ بعمـرهِ

***

إطلب العلم ما حييِّت لذات ال علم إنْ كنتَ من هواة الفضيلة
رفـع العلـم للسـمـاء رجـالاً تخـذوا العلـمَ غايـة لا وسيلـة

(1) مكسور.

***

تحلو الحياة لجاهلٍ ... في هذه الدُنيا المريرة
ويرى الهنا من لا يفكْـ ... ـكِر بالصغيرة والكبيرة

***

كأنّي وترت صروفَ الزمانِ ... فباتت تطالب في ثارِها
سَلِ (اللانهاية) عن زفرتي ... فكم خَطَفَ البَرقُ من نارِها

خوالج النفس

نُشِرَت في مجلة البيان العدد 33-34 في الأول من كانون الأول سنة 1947 ، السنة الثانية ، ص 878.

إليك أيّها القارئ الكريم طائفة من رباعيات العلامّة الجليل السيد عباس شُبَّر اقتطفناها من ديوانه – أنفاس محترقة – جواهر وصور – المخطوط ، فهي لا تكاد تَتعَدّى الحكمة وما يُسمّونه بالشعر [*1] التراجيدي – وقد أسماها الناظم { خوالج النفس } والعلّامة شُبَّر حكيمٌ سَتقرأُ الأجيال الآتية آراءه فضلاً عن اهتمام الجيل الحاضر بخواطره السامية وأسلوبهِ الرصين ، وإنّا لنعتز بل نفخر على الأقطار العربية بمثل هذه الشخصية الفذة.

(البيان)

-26-

أيّها البلبل المُغرِد قُلْ لي ... طَرِبُ القَلبِ أنتَ أم محزونُ؟
عمرك الله والهواجس شتى ... أغَناءٌ تلهو به أم أنين؟
إنْ تسلني يا بلبلي عن نشيدي ... فنشيدي جميعه تأبين
إنني شاعرٌ وأنت هَزَارٌ ... وكلانا من غير جُرمٍ سجين

(*) في الأصل بالعشر.

-27-

صَدَرَ الحكمُ حكمَ محكمةِ السكو ... نِ بنفسي لعالم الأعراض
ثم بلغته وكان قراراً ... مُبرما غير قابلٍ لاعتراض
قاضيا أن أجوب للأمد المضر ... وب وعر الغايات والأغراض
وعلى الدهر أن ينفذ أمري ... راضياً كُنتُ فيه أم غير راضي

-28-

بصلاح الوجدان والعقل – بالد ... ين وبالعلم – يَصلحُ الاجتماع
منهما جاءت السعادة لكن ... حَوَّلتها لضدّها الأطماعُ
جَهَدَ الدين مثلما جهد العِلـ ... ـمُ واعيت غرائزٌ وطِباع
فإذا الدين فرقةٌ وشِقاقٌ ... وإذا العِلمُ شقوة ونزاعُ

-29-

نظرةُ المَرءِ في الحياة هي المقـ ... ـياس فيما استفاد من عرفانِ
وكما يقتضيه يؤتي شموراً ... في مسرّاته وفي الأحزان
ذات لونٍ هذي الحياة فريد ... غير أن الشعور ذو ألوان
لا تكلف مَنْ لم يجانسك حِسّاً ... أنّ يعاني من أمرها ما تعاني

-30-

يخضع الفكر للمزاج ولولا ... ذاك لم تختلف لنا أفكارُ
ولو أن المزاج لم يتطور ... فإننا في بحوثنا الابتكار
قِيل لي انظر مُجرّداً قُلتُ إني ... ومزاجي لناظري منظار
واختلاف الأفكار أجدى وأدعى ... أنْ ترى الحقَ ما عليه غبارُ

-31-

أَنتَ من هذه الكرات بجيشٍ ذي نظامٍ وعالم متمدنُ
حمرة اللَّونِ والبياض شعار فيها للحياة والعدل بيِّنُ
فالشمس حكمةٌ لها العلم عبد وتدبر خفي لطف المُهيمن
زِدْ نشاطاً تَزدَدْ كراك نشاطاً ثم مَوّن بها الحياة تمون

-32-

إنما أنت عالمٌ أن تفكر بالذي تحتويه أو تتأمل
كلُ يومٍ تُفنى وتحيا جموعٌ من خلاياك وهي تسعى وتعمل
في نظامٍ تكافلي ووضعٍ هو أسمى مما لدينا وأفضل
لم تُسخَر لك الملايين منها كي تعق الحياةَ فيها وتَكسَل

-33-

(سورة الشمس) نحنُ في آية النور ولكن خضنا بديجور حدسِ
هي إحدى آياتك الغرر التسـ ـعِ علقنا بها كانقاط نقس
قد علقنا عقولنا باجاجٍ أو رموزٍ في رقة الأرض طمسِ
ربما تضحك الحقيقة هزواً عند تفسير فيلسوف ونطس

-34-

رُبَّ قومٍ شادوا قصوراً وشِيدَتْ بعدَ حينٍ منهم لقومٍ قصور
قُلتُ للصَّرح والسواري حديد ساند العمر أيّها المعمور
ألمٌ بين عبرتينَ وهَمٌّ بين قوسٍ كراهة محصور
هو ذا العيش والغريب قتالٌ بين أبنائه عليه كبير

-35-

يا بُني إسلموا وعيشوا أُسوداً فالمعالي وقفٌ على الآسادِ
لا تغيّركُم الظروف وكونوا أبداً في تضامنٍ واتحادِ

حُبُ قلبي أنتم وبذر رَجائي فجلادي لأجلكم وجهادي
إنّ لي في عيونكم كهرباء يَستمدُ الحياةَ منها فؤادي

رباعيات

خوالج النفس

نُشِرَتْ في مجلة البيان العدد 40-41 يوم 21/ 2/ 1948 السنة الثانية، ص 1061.

-36-

يا نعيمَ الدين استمع من أبيك النْـ ـنُصْحَ فالنصحُ سلم الآمال
كُن نشيطاً وثِق بنفسِك بعد اللْـ ـلَهِ واسلُك سبيلَ أهلَ الكمالِ
لا تؤجل الى غدٍ عملَ اليوَ مِ وغدّ الحياة بالأعمال
وتوق الإهمال جهدك تَسلم ففساد الدارين بالإهمالِ

-37-

أنا عَوَّضت عن حياتي تجاريـ ب وليس التعويض عندي رخيصا
وكأني بها أضيف إلى عمـ ـرك عمري فَكُن عليها حريصا
يا بُني إرع حق ربِكَ والعيـ شُ وأهليك والعُلى تخصيا
وَتشجّع إنّ الحياة صراعٌ إن تهيبتهُ هلكتَ خميصا

-38-

إنما أَنتَ قطعةٌ من فؤادي لفعت في غلالة من إهابي
وكأني إنقَسَمتُ فيك لتجديـ ـدِ حياتي في قِشّها واللبابِ
فاستفد من تجاربي فهي تهد يك إذا ما حفظتها للصوابِ

كيف لا أشكر الزمـانَ وقـــد رَدْ دَعـلـى منكبيـك بـردِ شبابـي [1]

-39-

يغـني الضعيـف لضعفـه وكـأنّـَه ذنـبٌ يكفــر بالفنـــاء فينعـــدم
تَلقي الطبيعة للقـــوي قيـادهـــا أبداً وتَفتكُ بالضعيف فيصـطـدم
فسَـلِ الرياحَ على م تطفيء شمعةً وتزيد في لهـب الحـريـقِ فتضطـرم
إن الطبيــعةَ لا يَـروقُ لعيـنهـــا غيـر القـوي فكُـنْ قـوياً واحتكم

-40-

نسيـان نفسـك مصـرعـا متيقنـــا وركـــونهـــا للعيـــش باستقـــرار
وحـــيٌ يلـقّـــاه شعـــورٌ باطـــن بخلـــودهـا بعـد الحمـام الطـــاري
إنـا بـــدولاب يغـور ويعتـلـي وتُـديـرُ دَفَّـتَـه يـدُ الأقـــدارِ
جهل [أمركـم] دورة يقوى لها ويـغـيب بـعد بعـــارض الدوّار

(1) هذه الرُباعية وقبلها ثلاث يُوصي بها ولده المحروس نعيم الدين الطالب في الصف الثالث الثانوي.

خوالج النفس

نشرت في مجلة البيان العدد 44 في الأول من نيسان سنة 1948 ،السنة الثانية،ص 1153 .

-41-

وغرائزٌ في الطبع تغرينا بما ... فيه صلاح حياتِنا وتُواتي
وقذتْ بها عينُ الحكيم ولم تكن ... في عين أهلِ الجَهلِ غير قذاة
حبُ التفوق في النفوس سجيةٌ ... غُرِزَتْ لمصلحة بحبِّ الذات
تهوى الطبيعة أن تراك مُسابقاً ... نحو الكمال بدافع اللذات

-42-

المَرءُ يقتبل الطبيعة ساذجاً ... خلواً بطابع ربه وبلطفه
ومزاج بيئته يُغذّي عَقلَهُ ... حتى يكيفه بشايع عرفه
ادرس محيط المرء دَرَسَ مُحققٍ ... تعرف حقيقته وتهدِ لوصفه
فالمرء مرآة المحيط وطبعه ... كالماء يأخذ شكله من ظَرفه

-43-

مالي وللماضي مضى وهمومه ... أَخذتْ على قلبي طريق عزائه
هَلّا جعلتَ همومه أكفانه ... لمّا قضى ودفنتها بازائه
لا تذكر الماضي ولا تَحفل به ... إلّا اعتباراً منك في أخطائِه
أو لا تُسفّه من يسير مُشمِّراً ... نحو الأمام ووجهه لورائِه

-44-

الجهلُ أَفضلُ من معارف مائقٍ ... ما أَثَّر العِرفان في أخلاقه
شَتّان بين مُقيَّدٍ في جَهلِهِ ... ومُثقفٍ عقد الأذى بنطاقِهِ
يا ليت شعري – والحقيقة مُرةٌ – ... ما أبعدَ الإنسانُ عن مصداقه

هَلَكَ القويُ بعسفِـه وغـرورهِ وهوى الضـعيفُ بكذبـهِ ونفاقهِ

-45-

هيهات ليس الفَهمُ يُغني وَحدهُ كـلا ولا الآداب والعِـرفـانُ
مـا فـاز بالعليـاءِ إلّا مَـنْ لـه فـي الحـادثـات إرادة وجـنـانُ
إنَ الحيـاةَ مَجـاهـلٌ ومجـازف لابُـدَّ أن يجتـازهـا الإنسـانُ
ولربما سِلم الشُجاع من الردى واستعـجل القَدر المُتـاح جبـانُ

رباعيات

خوالج النفس

نُشِرت في مجلة البيان العدد 45 الأول من مايس سنة 1948 السنة الثانية ، ص1185.

-46-

إنّ الكبيـرَ مـن الصغـير مؤلـف أو ليسَ ذراً هذه الأطـوادُ؟
في الجزء ما فـي الكـل إلّا أنـه جمـعٌ بـه تَتكـرَّر الأفـرادُ
لا تَـحقـرنَّ إذا بحثت صغيـرةً تَخفى ويُبديها الحِجـى الوقادُ
فالصغر ليس لذاتـهِ مـن قـيمةٍ لكن به تتضاعف الأعـدادُ

-47-

ويقول واعجباه مـن اعـجـوبةٍ يـدعـونهـا بقـراءة الأفكـارِ
للهِ سِـرٌّ هـزَّنـي فـأجـبـتُـه ما الكون غيرَ مباءة الأسرارِ
إنّ الذي فيه نعوم – وجَلَّ مَـنْ – هـذا الأثيـر لـه مـن الآثـارِ
تتماوج الأفكار فـي غـمـراتِـه كتمـاوج الأنـبـاءِ والأخبـارِ

-48-

(إحسان)[1] أحسن منك لم يَرَ ناظري زهر الملوك وعصمة الأملاك
بيني وبينك كهرباءُ عواطفٍ موصولةُ الأسلاكِ بالأسلاك
فإذا ضحكتَ فَكُلُّ شيءٍ ضاحكٍ وإذا بَكيتَ فَكلُّ شيء باكي
حي الطفولة يا بُني فإنها فجرُ الحياةِ وبسمةُ الأفلاكِ

رباعيات

خوالج النفس

نُشِرَتْ في مجلة البيان العدد 46 يوم السبت 15 مايس سنة 1948 السنة الثانية ، ص 1225.

-49-

قالوا انزويت فقُلتُ لما خانني فيما رَغِبتُ لِمعشري توفيقي
الدين للتوحيد يدعو أهلَهُ ومصالحُ الرفقاء في التفريقِ
شَملَ كما شاء العدو مبدد وصراعُ أحزابٍ وغمط حقوقِ
بيعُ الضميرِ على المنابِر جائزٌ في موطني ومُحرَّم في السوقِ

-50-

إني لأحسبني بلغتُ نهايتي وطَويتُ من دنيا العَناء طريقي
ولسوف يرقص مَنْ أَكنَّ عدواتي فرساً ويحزن عارفي وصديقي
ما راقني شَكلَ الحياة ببيئتي حتى أُنازع لِلبقاء رفيقي
حسبي بأني ما تَعمَّدتُ الأذى عمري ولم أَحقد على مخلوقِ

-51-

(1) يقصد أصغر أولاده وقد شاهده وهو يمثل لك آخر مقياس الحركة والذكاء عند الأطفال.

مـوطـنٌ أحيـا بـــه أم مـعـطـن قـد رغـى فيـه غـريـب الإبـلِ
كـــلُ ذي [عـر] نـفـاه أهـلـُهُ ثـــم قـاءتـه رحـابُ الـسـُبلِ
فهو فينا هيـكـلٌ يـروي العـلـى عـــن أبـي الهـول وجـد الهـبل
لا تَـلـُـم حُـــراً عـلـى عُـزلـتِـه قَـيّـَدَ الـيـأسَ رجـالُ الـعـَملِ

-52-

طـفـل الـوجـود بـعـرصـة ال إيـــجـاد يَـلـعـبُ بـالـعـقـولِ
منها عـرفـت فـلـسـتُ أعـــ ـــرفُ للـطـبـيـعة من فضـولِ
فـفروعـــها المُتـــشـــعِّبـــا تُ تَنـــمُ عـن سـر الأصـولِ
صنـــعٌ تـجلّى عـن حـــكيـــ ـــمٍ جَـلَّ عن عبثِ الجَهـولِ

-53-

لا تـحتـقـرْ شـيـئـاً فـمـا في الكـونِ مـن شـيء حـقـيـر
كـم طـاشـت الألـباب حـا ئـــرة بـأسـرار الأثـيـرِ
يـا عـالـم الـنـزر القـلـيـ ـلِ وجاهـل الجَـمّ الغـفـيـر
صَـيّـِر فُـؤادَك للـحـقـيـ ـقـةِ واستمع نجوى الضـمير

خوالج النفس

نُشِرَت في مجلة البيان العدد 57 السبت الخامس من حزيران سنة 1948 السنة الثانية، ص 1248.

-54-

قد يَحسبُ الناسُ عاقلاً فَطِناً ... وهو يعاني بعقلهِ الويلا
أرى ظروفاً – ولا حياءَ لها – ... تَنالُ من كُلِّ ذي حجى نَيلا
ما بين عقلين قد شَقيتُ وكم ... كالالي الهمَ والأذى كيلا
فظاهرٌ في النهار يقلقني ... وباطنٌ يرجع الصدى لَيلا

-55-

مزدلفاً للطباع أقطعهُ ... أسايرَ الوحشِ وهو مُفترس
إنْ كُنتُ أَيقنتُ سوف يصرعني ... إذن فما ليَ أخشى واحترس
نوابضُ أم معاولٌ ضَربتْ ... وكُلُ جسمٍ بها سيندرسُ
نسمعُ ضوضاءَ في ضمائِرنا ... أمأتم للحياةِ أم عُرسُ

-56-

مراحلاً جِزَتهُنَّ مُضطرباً ... في السَير من جيرة ومن نصبِ
كأنني قد هَربتُ من زمني ... وهل أفوتُ الزمانَ في هربِ
تسعاً وعشرين ما وَجَدتُ بها ... غيرَ فنونِ الأرزاء والنُوبِ
منعرجاتٌ ما زلتُ أسلكُها ... يا حبذا لو يطيب منقلبي

-57-

يا رُبَ مستعجل بلوغ منى ... جنى المنايا له تُعجله
ودائب والظروفُ تُنجده ... بنصرِها والحياةُ تخذله

عجبتُ للمرءِ في مَغبّتَه ما طاقَ تأميله تأمله
يَأكلُ أثمار أرضه رَغداً وقد درى أنّها ستأكله

-58-

كم من حياةٍ تخالها هدأت وهي بقلبِ الخلود تَختلجُ
تبقى مدى الدهرِ موردِاً شَبِماً تَنهلُ منه القرونُ والحُججُ
نوابغُ العلمِ فيه خالدةٌ تحيا ويَفنى الرُعاع والهَمجُ
(بستور)(*) باقٍ يعيش ما خلقتْ من الجراثيم هذه المُهجُ

خوالج النفس

نُشِرَتْ في مجلة البيان العدد 48 الأحد ، 20/ 6/ 1948 السنة الثانية ، ص 1287.

-60-

سَئِمتُ مجاورةَ الحائرين فَحدِّث بما شِئت عن نفرتي
ويا حبذا دون هذا الجوا رمجاورة الدود في حُفرتي
تكاد الطروس بشعريت تَشبُّ لما قد تَحَّمل من زُفرتي
ففي ذمة القلب ما قد لقيت ولولاه لا تسعت طفرتي

-61-

أقولُ لموقظٍ بِالشعر حظاً واعراض الرقاد به ثقيله
الى م وأنت تَطمَعُ في مُحالٍ وهل في المُستحيل تفيدُ حِيله
فَدعهُ يغط في نومٍ عميقٍ فأصحاب الرَقيم له خؤوله
وقد يستيقظ الحظ المُرجّى ولكن بعد رقدتك الطويله

(*) العالم لويس باستور مكتشف العقاقير.

-62-

سألتُ الشاعِرَ المُوقِظ مَنْ يشعرُ أو يَسمعْ
ألاَ تُوقظ حَظّاً نام حتى مَلَّهُ المَضجْع
فقالَ الحظُ قد مات وهل في المَيتِ من مَطمَعْ
وقد يبعث لليقظةِ لكن بعد ما أهجع

-63-

قضى شاعرٌ فَحلٌ فقامت رفاقه تُؤبنه للناس بالشعر والخُطبْ
وكان جديراً أن تؤبن قبله لعمرك في أقطارنا قيمة الأدبْ
وما كُنتُ أرثي شاعراً طارَ رُوحُه لإخوانه الأملاك يَهتَزُ من طربْ
ولكنني أُرثيه وهو مُضيعٌ على الأرض بين العبقرية والسَغبْ

من وحي العزلة

نُشِرَت في مجلة البيان العدد 49-53 الإثنين 4 تشرين الثاني سنة 1948 السنة الثالثة، ص 22-26.

تَفَضَّل العَلاَّمة الجليل السيد عباس شبر بهذه الإرجوزة القصصية الممتازة وهي من منظومات سنة 1942.

قد كُنتُ طَلَّقتُ إبنةَ القريضِ وقُلتُ يا نفس إصبري أو فيضي
ولم أشأ إبقاءها في منزلي وهي بعيني أخت (أم جرولِ)
ثقيلةُ الظلِ على فؤادي أثقل من شماتةِ الحُسّادِ
وقبل ذا كانت تروقُ عيني باتلع أنقى من اللُجين
وغرة تحسدها ذكاءٌ حَفَّ بها الجَمال والبهاءُ
وطرةُ جل صنيعٌ الباري مُكوِّرُ الليلِ على النَهار

ومقلـةٌ إنسـانـها هـــاروت تقصر دون وصفها النـعــوت
فيها يموجُ السِحرُ فوق السِحرِ من تحت هدبٍ كجناحي نِسرِ

***

عَشقتُهـا والسُـنُ دونَ العَقـدِ وتَمَّ مــن بعـد عليهـا عَقــدي
ولـم أكـن أصدقتهـا نضـاراً ولا لُـجـيـنـاً لا ولا عِـقـــارا
وإنمـا كـان صداقهـا السهــر وجـولة الفِكر واجهـاد البصـر
ثم انطوى شطرٌ مـن الـزمـانِ فَغَـصَّ في أبنائـهـا (ديوانـي)
كانــت ولـوداً جَمةَ النَتـاجِ رقيـقـةَ الإحسـاس والمِـزاج
كم أَنجَبَتْ من ماجنٍ وصوفي ومـن ريـاضيّ وفيـلـسـوفِ
لكنهـا وَدَّت لسـوءِ الـطـالـع أن يبـلغ الضليع شأو الظـالـع

***

لـم أَنسـهـا دامـعـةَ المآقـي وقــد تَلـوَّتْ آيــةُ الـفِـــراق
تقولُ لي يا سيـدي مـا ذَنـبـي ألم أكن مُـخلصةً فـي حُبـــي؟
أَلـمْ أُرافقـك طـويـلَ الزمـنِ غيرَ رضاكَ قط لا يهـمـنـي؟
ألم أُعاشرك فأحسِنُ عشرتـك ألم أُؤهـل للخـلـودِ اسـرتَـك؟
هلا يُنجي أُمهـا مـن نقـمتِـك ما كان من خدمتِها وخـدمتِك؟
كُنتَ رقيقَ القلبِ غيـرَ قـاسٍ فكيفَ فيك خـاننـي قيـاسـي؟
أهكـذا تفقـد بعـض رَحَمتـك قيـثـارة مـلأتهـا بـنـغـمـتـك؟
أَلَـمْ أكـن سلـوتـك الفـريـدة ألـم أكـن ورقـاءك الغـريـدة؟
أَطـردُ عنـك الهَـمَّ والأحـزانـا حتـى تسيـل مهجـتـي ألحـانا
فَقُلتُ والشجى بمنطقي اعتلج قد يعظمُ الخَطبُ فتُسفَكُ المُهَج
تاللهِ مـا قُلتُ سـوى الصـوابِ وما عَدوتُ الحَقَ فـي العِـتـاب

لكـن لـي عُـذراً مـن الأعـذارِ كـالشمـسِ فـي رائعـة النهـارِ
ذلـك أنـي يـا إبـنة الأشعـار لم أرَ خيـراً مُـذ دَخـلـتِ داري
فلستُ بالخاطي ولَستِ الخاطية وإنما الـخاطـئ شـؤم النـاصيـة
إن كُنتِ قد طردت عنـي الهَمّا فـالهـم لـولا أنـت مـا أَلمّا
وهل يفيـدنـي خلـود أسُـرتـي إنْ قَصَرتْ عُمريَ الثمينَ حَسرَتي
يا حبذا العِـشـرة والمُـرافـقـة إن كـانـت الحـال لنـا موافـقـة
فكم صبرت الزمن الطـويـلا حتى استحالـت كبـدي غَـليلا
ناهيك من حرٍ رحيبِ الصدر اعزل إلّا مـن سـلاحِ الصبـر
يراقـب الشهـور والأعـوامـا ويرصـد السـاعـات والأيـامـا
لَعَـلَّ هـذا الـدهـر يستفيـق أو ينتـهـي سُبـاتـه العـمـيـق
فترعوي بناته ((الأحـداث)) مـن قصـة أدوارُهـا رثـاث
قـد كررتهـا منـذ ألـف الـف ولم تـزد فصـولـهـا بحـرف
يطـوى عليهـا الزمـنُ البعيـد ونفسـه التـأريـخ يَسـتـعيد
كـم قَلقلـتْ بشـأنِهـا دمـاغـا وكـم فـؤادٍ راغَ ثـم زاغـا
سَيّـان فيهـا الجـاهـلُ الغَـبـيُّ والفيـلسـوف الجهبـذ الذكـي

***

قال تنـاءيـت عـن المَحجّـةَ وليس فـي قولك هـذا حُجـة
يَذنُب عَمرو ويجازى عـامـر هذا لعمر العَـدلِ حكـمٌ جـائر
فمـا أساءَ الدَهـرُ وَحـدَهُ إلـيَّ بل أَنتَ والدهـرُ كلاكُمـا علـيَّ

***

قُلتُ وهل يُظلـم مضنـى السِّـل إذا تَـخـلّـى عنـه كُـلُّ خِـل
مَخافةَ العـدوى ومـسرى الـداء وهـو كئيـبٌ فـاقـدُ العَـزاء
ذلك ما تقـضـي بـه الطبيـعـة والعُرف والقانون والشريـعـة

***

قالت لقد غالطتُ بالتشبيه والأمر لا يَخفى على النبيه
ألستَ تقفو سُنن الأجداد أَليسَ هُم أمثلة الرَشاد؟
إذ حالفوا الحقَ: ورَيبَ الزمن جارَ عليهم بضروبِ المِحَن
ولو تَخلّوا عنه كان عبدهم ولم يكن طول الحياة ضدهم
ألم يصونوا الحَقَ بالأرواحِ حتى قضوا في حَومةِ الكفاح
فلم يرقهم خفضُ عيشٍ ودِعه وإنّ للحقِ عليهم تبعه
للحق حظ مائل كحظي من المُحال نعته بلفظي
يرضاه أهلوه وأنت منهم وأنّ نأى طالع سعد عنهم
فهبك قد أقصيتي فالحقُ ماذا تراه مِنك يستحقُ

***

فَقُلتُ شؤم واحد يكفيني دنياي ضاعت أَيضيعُ ديني؟
وإنْ يكن لا بد من فراقِ فَأنتَ أولى منه بالطلاقِ
وسوف أبقى خلفه حتى الأبد مستنزفاً ما فيَّ من باقي جَلد
ما لحقٍ إلّا مبدأي ودِيني قلبي له كالحرم الأمين
ألآ ترين فيه ما أُقاسي من نوبٍ شابَ لُهنَّ رأسي
ذاك لأنَّ الحقَ قد أراني حقايقَ الأشياء بالعيانِ
يعرض لي فصلاً بكلِّ يومِ كأنه يوقضني من نومِ
حتى عرفت الناس والخليقة وأَسفَرَتْ عن وجهها الحقيقة
كم عِذتُ بالبيت من الإنسان فلا أرى القرد ولا يراني
مجتمعٌ لا يُرتجى صَلاحُهُ ولا يرد عن هوىً جماحهُ
مُستَرسِلٌ لطبعه الأناني مرتطمٌ في حمأة الطُغيانِ

ما قصد الإصلاح فيه من قصد ... إلّا قضى بالاضطهاد أو فسد
مجتمع لم ينتشله الدينُ ... كلا ولا التعليمُ والتمدينُ
أين الذين أَخلصوا الطوايا؟ ... أليس هم في زُمرةِ الضحايا؟!
ماتوا ولما يبلغوا مُراداً ... أو يصلحوا من الورى فسادا
كم تركوا في الأرض من مبادي ... تدعوا الى الفلاح والرَشاد
لكنها حالت بأيدي المجتمع ... واستعملت للانتقام والجشع
يفخر بالتمدين السري ... والوحش من أعماله بري
ويزعم النشوء والتطورا ... إنْ كان صَحَّ زعمه فللورا
قد استحال آلةً صماء ... الا تعرفُ العَطفَ ولا الحياءا
إنْ قُلتْ هل للعدلِ معنىً يُروى ... قال لك العَدلُ بقاء الأقوى
الويلُ كلُّ الوَيلِ للضعيف ... ما وزره في الأرض بالخفيف
ذلك من عَلِمَ الحياةَ مبلغه ... في قالبٍ من المَقال يفرغه
إنْ كان هذا منطقاً مقلوبا ... فإنه ما جاءنا غريبا
ألم تقم للاعتداء الحجج ... ألم تَسَلْ كالسيل فيها المُهَج؟!
كم حُجةٍ تحمل طابع الحِجى ... وهي تقول لا نَجوتُ إنْ نجى
مجازرٌ تُقامُ باسم المنطقِ ... زُورا وباسم الدين أو باسم الرُقي
لم يَخلُ عصرٌ مرَّ يابن ودي ... من حُجةٍ للظلم والتَعدي
تلبَسُ ثَوبُ المنطقِ المُزركشا ... لكي يبرر القوي ما يشا
فليس في شرع الهوى من مانعٍ ... أن يخضع المنطق للمطامع
وهي تقوم اليوم بالمبادي ... تلتمس الصلاح بالفسادِ
تَعيثُ بالصحيح والسَقيم ... كما تَعيثُ النارَ بالهشيمِ
فتزهِقُ الأرواحَ والنفوسا ... وتُنسِفُ الديار والرموسا

واستدق الإنسان نحو العدمِ ... يخوض كالمَجنون طوفان الدَمِ
لا يَرحَمُ الشيخُ ولا الصبيا ... كلا ولا العاجز والبريا
أين (السبرمان) الذين تَكهَّنوا ... أهو قريبٌ أم طواه الزمنُ؟!
غرائزٌ تنزو الى العدوان ... فرحمةُ الله على (أوتان)
(أورانج أوتان) حَميدُ الشِيمِ ... إنْ قِيس بالذي إليه ينتمي
قد فاقَ بالطبع عليه جداً ... فما تعدّى أنْ يعيش قِردا
هل جَعَلَ العلمَ ذريعةَ الفنا ... هل ملأ الأرضَ فجوراً وخنا؟
هل أَلبسَ الباطل ثوبَ الحقِ ... هل سرق الجنس باسم العِشقِ؟
هل اضمر القَسوة عند الرِفق ... هل ساورتُه نشوةُ التَرقّي؟
فَقُلْ لحْب يعتري إليه ... أَصبحتَ عاراً خالداً عليه
يُلقبُ العَصرُ بعصرِ النورِ ... كأكمه لقب (بالبصير)
مُبطّنٌ من ظلمِ العصورِ ... عليه ديجورٌ على ديجورِ
لم يَتسع فيه نطاقُ العِلمِ ... إلّا لتعميم الأسى والظُلمِ
مقياس ما أقوله الضمير ... فأسأله فهو الصادق الخبير
أَعوزتا للكهرباءِ نورٌ ... تهضمه الرؤوس والصدورُ
وحين طالَ القولُ والخِصامُ ... ولم يفدها النقض ولا الإبرامُ
تَحَقّقَتُ أنّ الفِراقَ واقعٌ ... وأنّ مَنْ طَلّقَ لا يُراجعُ
فانصرفت حِيناً الى المَدامِع ... تَندبُ حظاً لم يكن بسامعِ
واستسلمتْ للصَمتِ والتفكير ... تقول يا قريحتي أَشيري
فلم تجد لها سوى ملحوظه ... إنْ نجحت فهي بها محظوظه
فانطلقت بحكمِ ضِيقِ الذرعِ ... ترفع شكواها لقاضي الشَرع
السَيدُ الندب الكريمُ الأصلِ ... أنموذجُ الرِفقِ مثالُ العَدلِ

تقول يـا مُـفـزِعَ كُـلَّ مضطهـدْ ... يا مُلجأ العاني إذا الخُصم استبد
سمعـاً لشكــواي فهـذا بعلـي ... يريد أن يفصلني عـن نسـلـي
طَلَّقـني ومـا اقتـرَفـتُ ذَنبـا ... فـلـم يُحطّـم مثـل قلبـي قلـبا
يـزعـم أنـي مُذ دخلـتُ بيتَـهُ ... لــم يَـرَ خيـراً لا أقــول لَيتـهُ
أَلـفـيـتـه يـروغ فـــي الجِـدال ... فـمــن حقيقـةٍ الــى خيــالِ
وكمـا طـالـبـتـهُ بـالـمـنـصفـه ... لاذَ بمــا يـدعـونـه بـالفلسفـة
قد كان لي بالأمس (هوميروسا) ... فمـا احتيالي إنْ غـدا (طاليسـا)
يـلـزمـنـي الحُجّـة بـالبـُرهـان ... فــلا يُطيـق نـقـضـهـا بـيـانـي
حتى اختَفَتْ عني وجوه الحِيـلِ ... ولــم يكن ينفعـنـي تَـوسُـلــي

***

قالَ لها القاضي وهل يغني القضا ... إنّ الطلاقَ يـابنـة الشعـر مضـى
ألـم يكن قد جاء بالنـص الجَلـي ... إنّ الطلاق مـن حقوق الرَجُـلِ؟
وإنْ يـكن فـي هـذه الـكـنـانــة ... سَهمٌ فما ذاك سوى الـحـضـانـة
وهـي كحقٍ عـارضٍ الـسـقـوطِ ... قَـيَّـده الـشـارع بـالــشـــروطِ
وَهَلْ بـه مـن طـائـلٍ أو جـدوى ... إنْ كان لا يَقضي لربح الدعـوى
دونك فاختـاري المفيـد النـافعـا ... أبـرم رأي قـاضـيـاً أم شـافـعـاً
قـالـتْ فَجَـدُكَ الشَفيـعُ الأكـبر ... والفرع يقفو الأصل فيمـا يثمـر
فـاجتهـد السيـد فـي شَفـاعَتِـه ... وكُـنـتُ مَـيَّـالاً الــى إطـاعـتـه
لـكـن نفسـي هَمَسَـتْ بـأذنــي ... إذا رجـعـت فـتـوقـع ضـعـنـي
فاستأزم المَوقفُ واشتد الـحـرَجْ ... فما أمضَ الضِيق مـن بَعد الفَـرج
وقُلـت للشـافع يـا رَمـزَ الهُـدى ... يؤسفني أن تذهب النفس سُدى
ألـم يكن رب السماوات العُلـى ... قال (ولا تلقوا بأيديكـم إلـى..)

إنّ إبنة الشعر أطالتْ محنتي ... دونك فإقرأ سِفرها في سُحنتي
فَصَدَّقَ القاضي الشفيعُ قولي ... وقال هولٌ يا لَهُ من هولِ
أما الرجوع فهو لا يُطاقُ ... والحال ذي فحبذا الطلاقُ
لكن لي رأياً فهل تَراهُ ... إنْ لم يكن ثَمَّةَ ما تخشاه
وهو الى الوفاء والإنصاف ... أدنى من البؤس لشعر (الصافي)
قُلت فإني سامعٌ مطيعٌ ... إنْ لم يكن من رأيك الرجوع
فقال دعها والطلاق جاري ... تعيش في بحبوحةٍ في الدار
وليس في ذلك أدنى بأسٍ ... فالقصد قد تَمَّ بلا إلتباس
قُلتُ على أن تنزوي بمنزلي ... وأنْ تعيش عيشةَ المعتزلي
تغيبُ عن سَمعي وعن عَياني ... فلا أراها لا ولا تراني
فانفردت بنفسها في كُنٍّ ... واحتجبت كما أردت عني
وانقطعت حتى عن الخيال ... فلا يَمرُّ ذكرها في بالي
ودارت الأيام والليالي ... ولم أجد تطوّراً في الحالِ
ما بال همي لا يزال جاثماً ... على فؤادي والعَناء لازما
ما بال آلامي كما ألفتها ... ما بال دنياي كما عرفتها
كل الذي قد كان عندي لم يَزَلْ ... وكان أحرى أن يَقُلْ بالأقل
سِيان عندي حاضري وما ذَهَبَ ... فما نصيبي منهما إلّا النَصَبْ
ألم أكن طلقتُ دميةَ الأدب ... وطالعُ النَحسِ توارى واحتجب(*)

***

(*) في الاصل واحتجت.

وبينما كُنتُ أُجيلُ فكري ... كباحثٍ يجهد بالتَحرِّي
ينتقد الأسبابَ والأعلالا ... ويفرض المُمكن والمُحالا
والليلُ داجٍ والظلامُ ساجٍ ... كالبحرِ لكن هادئ الأمواج
إذ ساورتني سِنةُ المَنامِ ... فانصَرَفتْ نفسي الى الأحلام
كأن طرفي دارَ في نُعاسي ... لعالمٍ مستيقظٍ في رأسي
يَجمَعُ بين الحي والذي غَبَر ... ويلبس الأفكار أنواعَ الصور
رأيت شيخاً هادئاً وقورا ... ليس طويلاً لا ولا قصيرا
أودت بعينيه صُروفُ القَدرِ ... في وجهه دمامة من جدري
قد ذَهَبتْ من مُقلتيه اليُسرى ... مسحاً وقد غَشَّى البياضَ الأخرى
ذا لحيةٍ خَفَتْ لطولِ الزَمَنِ ... وعِمةٌ بلفها لم يَعتَنِ
وبزة نقية البياضِ ... تحت رداءٍ واسعٍ فضفاضِ
في يده عصاه لاستناده ... وللذكاء أكثر اعتماده
حَيَّتُ ذاكَ الشيخ عندما اقترب ... فَرَدَّ رداً فيه نَفحَةُ الأدب
فَقُلتُ يا مَفخَرةَ الشُيوخِ ... مِمَنْ تكون؟ قال: من تنوخِ
قُلتُ فمَنْ؟ قال أنا الضريرُ ... أنا الضعيف العاجز الأسيرُ
قُلتُ فأوضح لا عداك الرُشد ... فقال [رهن المحبسين أحمد]
فقلت مرحى لأبي العلاء ... وَمشعلُ الحكمة والذكاء
فقال ما الحكمةُ والذكاء ... إلّا عناءٌ دُونه العَناء
كُنتُ أعاني بهما الشقاءا ... حتى سَئِمتُ العَيشَ والبقاءا
قد طالَ همي حين طَالَ عمري ... سَلْ ((أم دفر هل عناها أمري))
عِشتُ حَبياً قابعاً في بيتي ... القِرصُ لحمي والقِراح زيتي
زَهدتُ في الدنيا وفي أبنائِها ... دهراً فما أَفلتُ من حوبائِها

لم أخل في موتي وفي حياتي ... من جنفِ الكُتّاب والرواة
صَوَّرني هذا كما يشاء ... وذاك تُوحي قوله البغضاء
كم جَنَحَ القَومُ الى التحريفِ ... والدَسُّ والإغفال والتصيفِ
حتى وَدَدتُ أنني جهول ... قد فاتني المَعقول والمقول
تضاربوا في ما حكوه عني ... فقيل شِيعي وقيل سُني
وقِيل لم يكن سوى مُذبذبٍ ... في كل يومٍ يعتزي لمذهبٍ
وقِيل قد كان وَلياً مُرشداً ... وقِيل زنديقاً كفوراً مُلحدا
وقِيل رَامَ رتبة الرَسولِ ... وعارض القرآنَ (بالفصول)(*)
وقِيل كان حَائراً مُشكِّكاً ... مُضطرِباً في أمره مرتبكا
وقِيل قد كان أديباً مُجرما ... يَسخرُ بالوحي وأخبار السَما
وقِيل قد كان أخا اعتقادٍ ... بالله دون البعث والمعادِ
وقِيل ما أهرق من زُهدِ دما ... وقِيل بل تابع بَعضَ الحُكَما
كم عبثوا في بحثهم عن شأني ... (بالسقط واللزوم والغفران) (**)
في كُلِ يومٍ ينبشون لَحدي ... ما بين تَمحيصٍ وبين نقدِ
ماذا يريد القَومُ من ضريرٍ ... أُوتي ما أوتوا من التفكير
ها أنا في ملحودتي خلي ... فهل عليهم من حسابي شي
أم وجدوني راوياً دليلاً ... فالتمسوا التَجريحَ والتَعديلا
ورُبَ أعمى جَرَّه الجناسُ ... وَغَرَّهُ التحليلُ والقياسُ
لَفَّقَ لي من الحديث مُعجما ... فكان عندي من جنايات العَمى
وأعرجُ يحلمُ بي في (ثورته) ... محتفلاً في سَقر بزورتِه

(*) يقصد الفصول والغايات هو كتاب لأبي العلاء المَعرّي.

(**) أسماء كتب لأبي العلاء المَعرّي (سقط الزند) (اللزوميات) (رسالة الغفران).

ما كانَ آغناهُ عن احتفالي ... وهو بنيران الجحيم صالي
لكنني خُلت (ومَنْ يسمعْ يخل) ... فكان لي الجزاء من جنس العمل
فليتكلم فيّ ما شاء البشرْ ... وليجعل الفردوس داري أو سفر
لا طَربٌ ينتابني ولا جَزَع ... فالقول لا يرفعني ولا يَسع
تَحررتْ نفسي من العلائقِ ... في عالم الألطاف والحقايق
فلا أُبالي ما يقولُ الناسُ ... كلا ولا يشغلني الوسواس
مسالك الحسِ لديهم خمس ... أما أنا فكل نفسي حس
طالَ اغترابي بينهم وحَبسي ... ليت الثمانين إنتهت بالخَمسِ
كان عليهم جزعي ومأتمي ... وينسبونني الى التشاؤم
ما حيلتي إنْ كان لي ذكائيه ... يصور الأشياء مثل ما هيه
والناسُ تبدو لهم الأشياءَ ... طباقَ ما أهواؤهم تشاء
هذي هي العِلّة في شقاء مَنْ ... يمنحهُ الله ضميراً وزكن
فيعدم الألفة والمُلابسه ... والائتلاف سُرهُ المجانسه
في عالمٍ من المُحالِ فيه ... أن يستقل المَرءُ عن أخيه
فهو غريبٌ بين أهل دارهِ ... يَجرعُ كأسَ الهونِ والمَكاره
يَوسعهم عَطفاً ويرجمونه ... يفهمهم وليس يفهمونه
يريد سلْماً لهم وتأبى ... طِباعُهُم عليه إلّا حربا
وربما رَقَّ له ظلوم ... فقال أنّ حَظَّه مشؤوم
والحقُ أن حظهم لئيم ... يلعنهُ الشيطانُ والبعليم
لكنهم شاؤا بدعوى الحَظِ ... أن يستروا أعمالهم باللفظِ
أما الأناني فقد يحابى ... وهو على علمٍ من الصواب
فيستلين الجامحُ الشموسا ... ويأسرُ العُقولَ والنفوسا

لم تستتر عن فهمه الحقائق ... لكنه مخاتلٌ منافق
يَقتنصُ الفَرصةَ في إلمامه ... وإنْ تأدَّت لهلاك أُمه
يخدع عند الاقتضاء نَفسَه ... ويكتسي لكُلِّ أمرٍ لَبسَه
ولا يبالي لسخط الديانا ... أم خالف الضمير والوجدانا
ما دام مَوفُوراً عزيزَ الجانب ... محققَّ الآمال والرغائب
مكتنف الساتر من ريائِه ... جميع ما استبطن من دهائه
وفوزه يعزى لحسن الطالع ... ما أوقع الطالع في المسامع
إنْ كان ذا حظٍ فهذي صفتُه ... مهما تكن أعمالُه وحرفتُه
أحاكماً أصبح أم طبيباً ... أم تاجراً أم شاعراً أديبا
وإنما الجهول بالمغامرة ... يحظى وبالإقدام والمثابرة
يختصرُ التفكيرَ فيما يقصد ... فلا يقل عزمه التردد
وهو من الحياةِ في الصميمِ ... أدنى الى نظامها السقيمِ
لم ينفرد في خلق عن جنسه ... ولا يريد غير خير نفسه
فارجع الى الأخلاق عند المِحنة ... فهي مناط الحظ دون المِهنة
كم قد عرفنا شاعراً صعلوكا ... وشاعراً قد نَادَمَ الملوكا
فالسر في الشاعر لا في الشعر ... فاستنطق الأحوال ذات الخبر
واستقرئ العادات بالتحرّي ... وقُلْ كذا لا أنبأنا المَعرِّي
ثم توارى في الظلام واختفى ... كأنه كان سراجا وانطفى
وأيقظتني الفواخت عند الشَجَر ... لسجعِ النورِ ونفحِ الزَهرْ
والنفسُ نشوى بالخيالِ السحري ... والكون شعرٌ كله في شعر
فاذكرتني حرةٌ كريمة ... عاقبتها وما لها جريمة
ألزمتها زوراً بسوءِ الطالع ... حتى أَقرَّت بضميرٍ قانع

وجـرت فـي جـزائِهـا بـدوري ... فـكــان جـوراً ذاك فـوق جــورِ
إنْ كُنتُ أخطأتُ بحسن النِيّـَة ... فـإنّ إصـراري هـو الـخـطـيــة
أو كنت قد غلطت باجـتهـادي ... فأي عـذرٍ لـي عـلـى الـتـمـادي
ولســتُ أدري أتـعـيـش بـعـد ... أم لفظت نـفسـاً يراهـا الـوَجـد
وقمتُ من فوري الى الطَّامـُورة ... ألتَمـس المَظلـومـةَ الـمـقـهـورة
دعوتُــها والقـلـبُ مُستكيـنٌ ... فنـابَ عـن جوابهـا الأنيـــنُ
ألفيتُــهـا مغمـورةً بـالسَــقـمِ ... تسري بها الـعِلةُ نحـو العَـدَمِ
خاطبتها ومُـذ وعت خطـابـي ... من بعد لأي عالجت جـوابي:
تقول لـي يا حبـذا الـشـهـادة ... فهـي لنفسـي ولك السعــادة
فإنْ تكن قـد نَزَلَتْ بسـاحتـك ... فلتنتقل روحي فــداء راحتك
فقلتُ قد أخطأت فـي تقديري ... وارتجي الصَفحَ عـلى تقصيري
قـد مِلتُ للشابـع بيــن الناس ... وما له فـي الحقِ مــن أسـاس
جَـلا نهـارَ الـحـقِ ليــلُ الميـن ... (وأسفر الصبـح لذي عينـين)
النـــاسُ أعـداءٌ لأهـلِ الأدبِ ... لأنهـم بـيـن حَســودٍ وغـبـي
كم من أديبٍ أسلموه للعطـبْ ... وقِيـل (أدركته حـرَفةُ الأدب)
لا نَقصَ فـــي منتظـم الكـلام ... وإنمــا النقصـان فــي النظـام
كلا وليس العيب فــي الأوزان ... والعيبُ كُلُ العيب فـي المـيزان
هذا هو الرأي الصحيح الصائب ... وأصـدقُ الأدلــةِ التـجــاربِ
قالــتْ بـرأيـك الــذي تَقـدَّمـا ... مستقبلي والـجـسم قـد تَـهـدَّما
فليـس يُـغـنـي رأيـك الأخـيـرُ ... أو ينفـع التبـديـل والتـغـيـيـرُ
فـانـظـر لما نـال السِقـامُ مـنــي ... ها هـو جسمي بالـياً كـالـشـن
قُلتُ رجوعاً وسيـأتـي الآسـي ... فكَـمْ رجـاء جـاء بعـد يــأسِ

ومُـذ تقصّـى دَاءَهـا النَطَّاسـي ... قــال شـكـاة صعـبـة المـراس
ضاعت علينـا فِـرصـةُ العـلاج ... واستفـحـل الـداءُ على المـزاج
قُــلـتُ حنـانـاً أيّهـا الطـبـيـب ... فليـس عيشـي بعـدها يطـيـب
قد كُنتُ سر عـلـة المسكـيـنـة ... فـإنْ مـتُ فـذمـتـي وهـيـنــة
فانـظـر بحـق الطب يا دقـتـور ... آخـر مـا يـعــرفـه الدسـتـور
قـال فإن يَـرجُ الشفـاء مـن دوا ... فـإنمـا ذلـك تَـغـيّـيـر الهـوا
قُلـتُ للبنـان يكـون المُـنـقَـلب ... فقال كـلا بـل للبـنـان الأدب
لمنبت الشِعـر ومُـعـدن الشـرَف ... قُلـتُ إذن والله هـذه النَجـَف
عاصمـةُ العلـم وعـرشُ الديـنِ ... ومَلجـأ المُضـطَهـد الـحـزيـنِ
قلبُ العِـراقِ النـابـض الخَفّـاقْ ... وكم سـمـا بـقـلـبه الـعـراق
مـثـوى عليّ بـطـلُ الإسـلام ... وقِـبـلـةُ الأفـذاذِ و الأعـلام
به نَمت في أرضهـا الشـجـاعـة ... والعـلـمُ والمَعروفُ والـوَداعة
فـهــي بحــقٍ تـربـةُ المـكـارم ... ومـنـبـتُ الإقيال والأعاظـم
أرض يفوق رمله الـسـبـائـكـا ... تحـتـضـنُ الملـوكَ والملائِـكـا
حقلُ المعالي وخـمـيـلـةُ الأدب ... ومَوئلُ المَجدِ إذا المَجدُ انتسـب
تعشقا مدى الـحـيـاة نـفـسـي ... والجسمُ يهوى إن تعود رمسـي
إنْ ذكرت حَــنَّ إليهـا القـلـبُ ... فهو معنّـى فـي هـواهـا صَـبُّ
ثمةَ لـي كـم مــن أخ خـلـيـل ... مبـارك الأعــراقِ والـقـبـيـلِ
أرقُ طَبعـاً مـن نسيـم الفَجـرِ ... أضوع خلقاً مـن أريـج الـزَهـر
يَـحـمـلُ نفسَـاً حُـرةً نبـيـلــة ... قــد جُبِلَـتْ من معدن الفضيلة
كـإنـمـا أوجـده – تـعــالـى – ... لكي يكـون فــي العُلـى مثـالا
وعصبةٌ قـد ألغـتـهـا روحـــي ... بالرغم من بُعدي ومن نزوحـي

ما انتظمت غيرَ الأديب العبقري ... والعالم المُصلِحُ والمفكرِ
من كل غطريفٍ رقيقِ الخُلق ... مُتقدِ الفَهمِ بليغ النُطقِ
يُنسِيكَ في سحر حديثه الطلي ... ما قام في الذكر مقام المَثل
من حكمةٍ خالدة أو نثر ... أو نكتة شاردة أو شعر
يا فئة تحالفت على الوفا ... واسترجعت تأريخ اخوان الصفا
قلبي على الذكرى إليكمُ خافقٌ ... ما لاحَ بارق وذر شارق
يا بهجة الأسماعِ واللواحظ ... تفدى لياليكم بعصر (الجاحظ)
لم يَبقَ في قعب أَبي عثمان ... صبابة تَندى صدى الظمآن
واديه قد صَوَّح فهو أَجرد ... والنورُ في واديكم مُخلَّد
هيهات غاضت أبحرُ (الخليلِ) ... في أرضه فالجيلُ غيرَ الجيلِ
وهي لديكم أفزعت أسماؤها ... كما حلا للواردين ماؤها
وحتى ذاك الأدب الحُر الذي ... بغير لطف جوكم لم يفتذ
إنّ النوى عن أرضكم لم تنثني ... (إذ عندكم رُوحي وعندي بدني)
مرتبعُ العِلم ومنتدى الهُدى ... ومعهدُ الدين ومحفل النَدى
فالطبع خصبٌ والمناخ صالحٌ ... تنمو به الأذهانُ والقَرائحُ
واهاً لتلك الذكوات البيض ... تَشعُ بالذكاء والقريض
قالت لي إبنةُ القريضِ والظَرفِ ... إذن فهيا بي الى أرض النجف
إنْ أف من دائي فتلك رغبتي ... وإنْ أمت فمدفني في تربتي
فسرتُ من يومي بها الى النجفْ ... لَعلَّني أنقذُها من التلفْ
فانتعشت من دائِها العياء ... بذلك المناخِ والهواء
وكان بعثها (بيوم المبعث) ... كميت قد ند عند الجدث
وفارقتها العِلةُ الدخيلة ... في مدةِ ساعاتها قليلة

ثــم رجعنـا وهـي ذات عافيـة تـوحـي لـي المعـنـى يجـر القافيـة
وارتـجـزت بـهـذه المُـطـوَّلـة فـــي فـرصـةٍ تـعـد كـالمُخَتَـزلة
ولـم تكن مـن قبل مالت للرجز وهي ترى فيـه شعـار مـن عـجـزِ
لـكنهـا اختـارتـه بـاقـتـراحـي فـاجـتـازت الـراح الـى الـقراحِ
ولـم يكن ذاك لـغـيـر الـخِـفَّـه وهـي قـريـب عهـدهـا بالضعفـه
فـــإن نـهـجـت بـبـيـت ركـــه فَـرُبَ ضَـعـفٍ خَلَّفتُـه الوَعكـه
وإنْ يـــرق بيت بمعنى مُعجـبِ فذاك مـــن نفح المنـاخ الطيـب
وحيـن عـادت لرفيـع شـأنـهـا كعهدها السالـف مـن زمـانهـا
وفارقتـهـا سُبـةُ الحَـظ الـونـي وانتـقـض المشكـوك بالمستيقـنِ
عَفَّتْ عن الماضي الـذي أذهلها واستغفرت رب السما لـي ولهـا

الحياة آلام

نُشِرَتْ في مجلة البيان العدد 55 في الثامن من تشرين الثاني سنة 1948 السنة الثالثة، ص 154.

يـا حـيـاةَ الـهُـمـومِ والأتـعـابِ كُنـتِ مُـذ كُـنـتِ حيـرة الألبـابِ
كُنتِ مذ كُنتِ مصدرالحُزنِ والبؤ س وأم الآلام والأوصـــــــابِ
لك خدر بل كعبة يركع العـقـ ـلَ إليهـا بـرعـــدةٍ واضـطـرابِ
نـاوحـتـك الـعيون فهي حيارى ترقـب النورَ مـن وراء حـجـابِ
رَبُ رمـلٍ تـوهَّـمـتـه سـرايـا وسـرابٌ ظـنـتـه عـذبَ شـرابِ
تاه فيك الأنامُ واختلـفوا فـي الـ ـقـول والـكُـلُ يَـدَّعي بالصـوابِ

***

كيمياءُ الـوجـود كـم فـيـك فكر نا وادى الـتـفـكـيـر لـلإعـجـاب

فتـرابٌ قـد اسـتـحـال عِـظـامـاً وعــظــامٌ تـحــوَّلـت لــتــرابِ
عالم قائم على الـنـقـض والإبـرامِ مغـرى بـالـسـلــب والايـجـاب
(عقرب) دار فـي السماء فسـلـه عــن ألوف الأحقاب والأعقاب
بـشـر فـــي تـنـازعِ لـبـقـــاء فـرضتـه طبـيعـة الانـتـخـاب

***

مِعشرٌ قـد تَـمـتّـعــوا بـنـفــوذٍ وثــراء وصـــحـــة شـبـاب
هلك البائسون فـي قارص البَردِ وعاشوا { بـالفـرو والسنجـاب }
وفـريــقٌ يصيـب ما يشـتـهـيـه وفـريــقٌ يـقـتـات بـالأعـشـاب
ضَحكَ العَدلُ ساخراً من رؤس لـــم تـفـكـر بـشـقـوة الأذنـاب
إنمـا أكـثـر الـــرؤوس ذيـــاب ونـمـور تَـسـتَّرت فـــي ثـيـابِ
ليتـهـم عاملـوا جيـاع البـرايـا مثـلـمـا عـامـلـوا شِباع الكِلاب
عندليبٌ يُنوحُ فـي القفص الضـ ـيق والروض حـافـلٌ بـالغـراب
وخِراف تعيش للأمـر والنهـي وأسُود تُـحـيـى لضـرب الـرقـاب
وحقـول تشقـى بهـا بـؤسـاءٌ ويـعـود الـنـتـاج للأقـطـابِ
قد سئِمتُ الحياةَ فـوق صعيـدٍ يَدفـنُ الـحَـقَ فيـه كُـلُّ مـحابـي

***

لا أرى الـدَهرَ شـاعراً بمجـيء أَيـبـالـي أم يـحـتـفـي بـذهـابـي؟
إنْ يومـاً عرفـت فيـه وجـودي لـجـديـرٌ بـنـقـمتي وعـتـابـي
طـال فـي هـذه الحيـاة عنـائـي أَتُـرى بـعـدهـا يـطـول حـسـابـي
كمـا قُـلـتُ يـا زمـانـي رويـداً زاد فـي لـوعـتـي وفـي إتـعـي
أدبـي أن يكـن سبيـل شقـائـي فـرمـــادٌ إذن عـلـــى آدابـــي
عــذبت فـي فم الجهـول حيـاة لم تـكن غـيـرَ مِـحـنـةٍ وعـذابِ

المثاني والمثالث

نُشِرَت في مجلة البيان العدد 56 في السابع من كانون الأول سنة 1948 السنة الثالثة .178

أُشـيِّدُ بـيـوتـاً بـجـزلِ الـكَـلامِ وغـيـري يُـشـيِّدُ بـصخـرٍ وكـلـسِ
ولـو وسـعـتـني رجـالُ البـيـوت لـمـا وزع الـدهـرُ فـي الـشعـر نفسـي

***

رَكَضـتُ بمـيـدان هـذي الـحـيـاة فـلـم أحَـظ قـط بـغـيرِ الـعـيـاء
وولـد فـي لـقـاء الـخـطـوب شـعـور التَـبّـرم والاسـتـيـاء
وقـد كُنـتُ أحظى ببعض الـمُنـى لـو أنـي تَـسـربَـلـتُ ثـوبَ الـريـاءِ

***

لعمرك ما استخدمتُ للعيشِ عِمّتي ولـم أتـخـذهـا قـط أحـبولـةَ الصيـد
ولكنني جـاريـت قـومـي مُـقـيّـداً فهـا هـي فـي رأسـي تـشـير إلـى قـيـدِ

***

يـهـددنـي بالـقـتـل خـبٌّ وأنـنـي لأقـدر مـنـه لـو جهلـت على القتل
ولكـن لـي ديـنـاً وتـأبـى مـروءتـي ويأبـى نجاري أن يـذم الـورى فـعلـي
وما عاجز من كف عـن جـاهـل يـداً إذا مـا غـبـيٌ قـابـلَ المَـثـلَ بالمَـثـلِ

***

لِعمَّتـه الـسـوداء يُـدعـى بـسـيـدٍ ولـم أدرِ مـا معـنى الـسيـادة بـاللـفـظ
لعمـري لقـد كانـت تـشـير لـسـؤددٍ ولكنـهـا عـادت تـشـف عـن الـحـظ

***

يـا خـلـيـلاً مَحّـضـتُـه كُـلَّ ودّي خـدعـتـنـي ظـواهـرٌ مـن صـفـاتِـك
خُنتَ عـهـدي وكـم حفظتك جهدي دُونَـك الـفَـرق بـين ذاتـي وذاتِـك
فلـعـمـري لَـتـخـسَـرُنَّ صـديـقـاً لـستَ تـلقـى نَـظـيرَهُ فـي حـيـاتِـك

شهيد الحق والمبدأ

نُشِرَتْ في مجلة البيان العدد 57 – 58 في الثاني والعشرين من كانون الأول سنة 1948 السنة الثانية 210.

يا باذلاً في سبيلِ الحـقِ مُهـجَتَـه ... ومـا حقا كُـلَّ تمـويـهٍ وتـلـبيسِ
ومنقذاً شـرف الإسـلام مـن فئـةٍ ... يزيـدهـا البـغي تدنِـيساً لتـدنيسِ
شَرَّعتَ دستورَ إخلاصٍ وتضحيةٍ ... في مجـلسٍ للـهُدى والحـقِ تأسيسي
بَعثتَ في الدينِ روحاً كان أزهقها ... جُورُ الطغـاةِ وارهـاق الأبـاليـس
ضَـربتَ رقـماً قيـاسياً يُحـار لـه ... أهلُ الحِسـاب وأصـحاب المـقاييـسِ
للمُصـلحـين قـواميـس مُخـلِـدةٌ ... في الأرض واسمك عنوان القواميسِ
تُـقيمُ نَهـضَتُك الـدُنيا وتـقعدها ... للحشـر مـا بـين إكبـارٍ وَتقـديسِ
ناهيك من نهضةٍ غَـصَّ الزمانُ بها ... لما تـضم ونـحوي مـن نـواميس
خَلَّدتَها فهـي للأجـيال مـدرسةٌ ... تناوح المَجدَ فـي بحـثٍ وتـدريس
هذا هو الشرفُ الباقي فمـا هَـرم ... يـعزى لعنخ عـمون أو رعمسيسِ
في ذمةِ الدين ما أرخصتَ من مُهجٍ ... للدين سلن على الـسمـر المداعيس
لـولاك لاندثرت فيـنا معالِمهُ ... فلم نجد غيرَ ربـع منه مـطموس
بُعداً لقـومٍ يـرون الـدين قنـطرةً ... لما يَسـدُ فَـراغَ البَـطـنِ والـكِيسِ
باتـوا يحوطـون دنيـاهم بحـيطتهِ ... وهـم عـلى دخـلٍ منـه وتـدنـيسِ
رام ابن ميسون أمراً دونه رصـد ... أعنـي أبـاه فـأودى تحـت كابوسِ
وكم سعى جَدَهُ مسعاةَ ذي حنـقٍ ... وَجـدَّ لـكن لجـدٍ منـه مـعكـوسِ
وكيـف تُطـفئ نـور الله زعنـفة ... عـار عـلى العيس إنْ قُلنا من العيسِ
لها فصول من التأريخ قد مُلئَـتْ ... خِـزيا فكانت هنـاة في القـراطيسِ

إنْ انتـمت لقـريش في أُرومتـها فخسـةُ الـطـَبع تُـنـميّـها لإبلـيسِ
فظـابعٌ يتحـامى الـزنجُ سـبتها ويتـقى عارها أوباش (هكسوس)
يحيي علاك وتخزي النفس مرتطم في حَمـأةِ الشـرك والطغيان مركوس
هذا ضَرِيحُكَ كم طافَ المُلوكَ به فأيـن فـر الخنـا فـي أي نـاووسِ
صلى عليك الذي أعطاك منزلةً دانـت لِعليـائِـها عـلياء إدريـسِ

وفي موسوعة النجف الأشرف مجلد 20/ 194-198 وجدنا هذه النصوص:

فجع الفضا بنهاره فبكى علـى أنـــواره
فالأفق مسعود الأديـــ ـــم ينوء في أكداره
صبغ الظلام له سـرا بيل الحـداد بقـــاره جلَّله الرضا
وأما لـــذاك الرضو بستـــاره عســـراً الـى أزهاره
فتراجعـــت أنفاسه حتى لقد فيه لسـان هـــزاره
عقـد الكرى فتخارست أطـياره وغفت علـى أشجـــاره
والكون ساد به السكو ن فكان رمـز وقـــاره
كم تحت هذا الليل من راضٍ وكـــم مـن كاره
من موسر قد بات يد أب فـي حساب نضاره
أو بائس يذري مدا معـــه علـى أطمـاره
أو عاشق أصلى الغرا م فـــؤاده فـــي ناره
أو فيلسوفٍ يرتئي الـــ آراء مـــن أفكـــاره
أو راصدٍ قد بات ير على النجـــم فـــي منظاره
أو تاجر أبداً يجي ل الفكـــر فـي أسعاره
أو سارق متفكِّرٍ فـــي سلبـــه وفـراره

أو مُدمنٍ ضَحَّى جميـ ـعَ عقـاره لعقــاره
أو أحمق قد بات مشـ ـغولاً بلعب قمـــاره
أو ساقط سكب الحيا بفجـــوره وبعـاره
أو نازح يبكي لغر بته وبعد مــزاره
أو فاقد نهس المصا ب فــؤاده بقـراره
أو مسقم أمسى يُهدِّ ده الـــردى ببـواره
أو عالم قد بات منـ ـحنياً علـى أسفــاره
أو كاتب سهر الدجى ليفوز فـي مضماره
أو شاعر أمسى يذيـ ـع الهم فــي أشعــاره
يبني بيوتاً عامرا ت والخــراب بـــداره
روح التعاسة والشقا ء تــرف فــوق جـداره

وقال في مدح السيد علي ابن السيد عدنان الغريفي:

حَجَرَ الكرى تذكارحاجر عـن مقلتي والـذكر حاجر
أو تـرتجي الغمض الجـفو ن وتبـتغي النـوم المحـاجر
هـيهـات مـالي والـرقـا د وإن أبى اللّاحي المشاجر
فلـيلغـط الـعُـذّال ولـ تكـثر بتـقريعي الـزماجر

ويقول فيها في المديح:

الجُهبذُ الشهم اللبي ب الأروع الندب العراعر
جمُ الفضائل من عليـ ـه في العُلى تلوى الخناصر
السيدُ السامي (عليّ) الإنتما زاكـــي العناصر

نجلُ الذي قد كان للـ ـدين المُفدّى خير ناصر
غوث البلاد وغيثها إنْ عزّ في الأجداب ناصر
عنوان كل فضيلة غراء محمـود الأواصر
فذٌّ تَرَّدى بالحجى على العلـى شدَّ المآزر
أحيى من العرفان والـ ـآداب مـا قد كان دائر
قسماً بمجدكم بني عدنان والنجـرِ المناجر
ما رُكِّبت أقدامكم إلاَّ لأعـواد المنابـر
ما زلتم ترثونها من كابرٍ ينمى لكابـر
لا غرو إن جئتم بما بهـر الأوائل الأواخر
وملكتم من أبحر الـ ـعرفان إرثاً كُلَّ زاخر
شرفٌ به قد خصّ أه ل البيت مثل الشمس ظاهر
هذا العلى حقاً بهـ ـذا فليفاخر مـنْ يُفاخر
وإليـكـها بـصريـة يعنو لها أهل البصائر
نتجت بها الأفكار بكـ ـراً لم يصرها قط صائر

ومن شعره قوله:

لعمرك ما استخدمت للعيش عِمَّتي ولم اتـخذها قـط أُحبولةَ الصيدِ
لكنـني جـاريت قـومـي مـقيـداً فهـا هـي في رأسي تشير إلى قيد

وقوله:

تَرفَّعتُ عن معروف حيَّ وميِّت فكل حطامي منزل لأبي وقف
فكم ليلة للغيث بتُّ مهدّداً أحاذر أن يهوى على صبيبتي السقف

بُنيَّ نعيمُ الدين

قصيدة لهُ في رثاء ولده ألقاها بالنيابة عنه الشاعر الأديب الأستاذ عبد الواحد العطار، ونُشرت في جريدة البلد البغدادية بالعدد 228 بتأريخ 10 شوال سنة 1384هـ ، 11 شباط سنة 1965م.

رثاؤك أم قلبٌ يذوب وأدمع وأنشودةٌ أم مهجة تتقطعُ
قوافٍ وما بنت الهديل بنوحها تؤدي الذي أدّت عشية تسجع
ستبقى على مرّ الليالي ثواكلاً تجاوبها الأجيال والدهر يسمع
ففي كل بيت مأتم ليس ينتهي وفي كل مصراع دموع ومصرع
هو الموت ما منه مفرٌ لهاربٍ وهل هربي يوما من الليل ينفع
وأيُ اجتماعٍ لا يُبددُ شملُه وأي فؤادٍ بالردى لا يُروَّع
حياتك كالأضغاث والحلم مزعج ويعقبها الموت الذي ليس يدفع
فعقل بأنقاض الهوى متعثر وفكرٌ كما شاء المزاج مقنع
نظرت لأدنى الأفق والافق ضيق فهلا نظرت الكون والكون أوسع
لقد جئت مضطرة وترجع كارهاً ولم يختلف شأناً مجيء ومرجع
إذا اتسخ السربال أورث نسجه فلا بد للسر بال بالنزع يخلع
أرى الروح تأوي الجسم مادام عامراً و تخليه من خوف انهيارٍ وتهطع

***

إذا طال عمرُ المرءِ طال عناؤه وأشقاه من أحبابه من يودعُ

وعاثت تصاريفُ الزمان بجسمه ففي كل يوم جانب يتضعضعُ
تساقط اسنان ويضعف ناظرٌ و تقصر خطوات ويُثقل مسمع
أرى الدهر بالداء العضال يلوكنا لتبلعنا الأرض التي ليس تشبع
نوائبه الأنياب تُفري قلوبنا وفيها أمانينا سرابٌ مُشعشع
وتمضغ أكبادا علينا عزيزة وأكبادنا أولادنا حين تفجع

***

دفنت (نعيمي) والأماني كلها بقبرٍ وحالت دونها فيه أذرعُ
وما ولد الانسان إلّا حديثه فان ضاع في الأجداث فهو المضيع
وما ضر من أبقى سليلاً مهذباً إذاً فاته في الأرض تاجٌ مُرصعُ
وماذا يرجي الحي إن جُذ أصله وشُذّب عنه فرعهُ المتفرع
عفاءٌ على دنياي بعد (محمد) فدنياي إن حققتَ سوداء بلقع
وما عذر من تودي الليالي ببعضه إذا كان بالدنيا يُغر ويخدع
ولم أرَ كالدنيا ولم أرَ كابنها تجور عليه وهو بالأم مولع
إذا عرف الدنيا لبيب أهانها ويحيى حياة الزاهدين ويقنع
أتينا كأعرابٍ عُراة لنشتري منَ السوق أكفاناً فنُكسى ونرجع
توالت ملايين الملايين قبلنا على سنن الأجيال تقفو وتنبع
فمليون غسانٍ ومليون منذرٍ وأضعاف تُلكم ذو نواس وتُبّع
قوافلٌ يحدوها الزمان بلحنه وما لحنه إلّا الأنين المُرجّع

***

فقُل لجهول بات للموت شامتاً أأنت بمحياك العزيز الممنّع
حذار فمن دنيا تفيأتَ ظلها يضمك وادٍ لو تأملت مُسبِع
وإن شذّ عنك اليوم كأس ففي غدٍ تمرُ عليك الكأس قسراً فتكَرع

***

وأفجع ما لاقيت رزء مهذبٍ يسير على نهج العُلى وهو طيع
له خُلق كالروض باكرهُ الحيا وقلبٌ ذكي مؤمنٌ متورع
أرى الموت لا يُثنيه نبلٌ وسؤدد ولا محتدٌ زاك وشأن مرفّع
ولا خُلق سامٍ ولا عبقرية وهل خلق عند المنية يشفع
وسِيان منه عنفوان وشيبة تكاد ليالي طمرها تتمرع
وهل رحم الموت الشباب محلقاً نشيطة الى آماله يتطلّع
قريبا من الجلي بعيدا عن الهوى غرائزه للمجد تصبو وتنزع
تمسك بالصبر الجميل وداؤه يلح عليه بالرحيل ويسرع
بنفسي رزينا جالد السقمَ صامتاً فلا يعرف الشكوى ولا يتوجع
ولم ينتفع الا قليلاً (بلندن) وكنا نرى فيها العلاج سينفع
وعاوده الداء العياء مضاعفاً فلم يك يجديه دواءٌ وينجع
وقد أعلن الآسي الأسى عند عجزه وكم كان مغروراً بما يتذرع
إذا ما قضى بالموت للعبد ربه فماذا عسى نطس الأطباء تصنع
وما الموت إلّا قوة تنحني لها ظهورُ جميع الأقوياء وتركع
وما قيمة الأقمار للنجم تعتلي ومخترع الأقمار للموت يخضع

***

والله قلب عانق الموت مؤمناً وما كان من يأس الأطباء يفزع
ونام كما نام المسهّد هانئاً وخلّف قلباً بعده ليس يهجع
ولله جسم غاصَ في أرض حيدرٍ وروحٌ لباريها علت تترفع

***

ليهنك يابن الدين بالموت راحة فليس لها في عيش دنياك موضع

ذهبتَ نقياً طاهر الذيل صابراً ووجهك بالايمان والبُشر يسطع
فؤادك بالتوحيد والعدل عامرٌ وأنت بحب الطاهرين ممتّع

***

ولكنَ نفسي يا بُني حزينة وقلبي مفجوع بفقدك موجع
خُلقتُ صليب العود في كل حادثٍ وما كنت من رزءٍ وإن جل أجزع
وحنكني علمي بدهري فلم أكن أخور لخطبٍ فادحٍ أو أُزعزع
وصدري هو الصدر الرحيب فلم يضق لحزنٍ وكم ضاقت صدور وأضلع
فما بال نفسي بعدك اليوم تلتوي كما يلتوي الملسوع ساعة يُلسع
لقد خانني فيك العزاء وهدّني لرزءك مما لم أكن أتوقع

***

بُني (نعيم الدين) دنياي أظلمت بعيني فهل في النور بعدك مطمع
بُني جرعت الكأس قبلي مريرة وقد كنتُ أرجو قبلك الكأس أجرع
وأحببت أني لا أراك بسكرةٍ لها كل قلبٍ بالأسى يتصدّع
وقلت اشغلوا عني أبي إن قلبه يفيض حناناً والردى ليس يردع
لقد كنت رمز البر حتى بساعةٍ على سكرات الموت جاءتك تهرع
تجلّدتَ عند النزع ترعى عواطفي فهل كان في قوس التجلّد منزع
وقد جدّ بالجسم السياق تثيره تباريحُ أنفاسٍ غدت تتدفع
(وكُنتَ كبرقٍ قد تألّق بالحمى وزال كأن البرق لم يك يلمع)
ففي ذمة الله العليم مغيّب وفي ذمة الله الحفيظ مُودّع
عبرت بنعشٍ مثلما سار قارب تخف من الدنيا الغرور وتقلع
وسارت جماهير الرجال وراءه تنوح وتستبكي العيون فتخشع
وشيّعت الأرواحُ روحك في السما فهل من (بنات النعش) كان مشيع

سـلامٌ وغـفـرانٌ وروحٌ ورحـمـةٌ عـليك ورضـوانٌ مـن الله يـتبـعُ

الفصل الثالث

الأستاذ رجب بركات

مؤرخاً و صحفياً

الفصل الثالث

الأستاذ رجب بركات مؤرخاً و صحفياً

ولِدَ السيد رجب بركات في قضاء أبي الخصيب في محافظة البصرة عام 1925م، ((وهو ينحدر من أسرة عربية معروفة، ومن أبٍ عُرفِ بتطلعاته القوميَّة، ففي بيت السيد محمد بركات وفي منطقة أبي الخصيب عُقِدَ أوَّل مؤتمر عربي حضره الشيخ خزعل أمير المُحمَّرة والشيخ مبارك الكبير أمير الكويت والسيد طالب باشا النقيب سنة 1913م لتكوين حكومة عربية تضمُّ الأطراف الثلاثة مقرّها البصرة، إلَّا أنَّ ظروف الحرب العالميَّة الأولى والاحتلال البريطاني للبصرة حال دُون التنفيذ))[1].

أكمل السيد رجب بركات دراسته الإبتدائية في مدرسة المحموديَّة في قضاء أبي الخصيب، ثُمَّ أكمل المتوسطة والثانوية في ثانوية البصرة للبنين في محلَّة السيف في البصرة، وأكمل بعد ذلك دراسته الجامعيَّة في كلية الحقوق في جامعة بغداد، وحَصَلَ على ليسانس الحقوق عام 1950م، وعُيِّن سنة 1951م مديراً لمصلحة نقل الرُكَّاب في البصرة، وبعد خدمة عشر سنوات في هذه الدائرة انتقل إلى بلديَّة البصرة وأصبح حاكم الجزاء فيها، أي في سنة 1961م ، ومن ثَمَّ مديراً لبلدية البصرة وكالةً لأكثر من مرّة حتى تقاعدَه عام 1982م .

(1) عبير التوابل والموانئ البعيدة، إحسان السامرائي: مطبعة البصرة سنة2010 ص185 .

عَملَ السيد رجب بركات منذ نهاية الأربعينيات من القرن العشرين في الصحافة فضلاً عن عمله موظَّفاً رسميَّاً (حكوميَّاً) في دوائر الدولة.

ومن أهمِّ أسباب عمله الصحفي أنَّه نشأ في وسطٍ وطني، أي في بيت يُمارِس العمل الحزبي الوطني ويُعدُّ من مؤسسي حزب الإستقلال في البصرة، ذلك الحزب الذي وَقَفَ – آنذاك – ضد توقيع معاهدة بورتسموث ودافع عن عروبة الخليج وبَشَّر بالدعوة لتأميم النفط العراقي، وكان يُحرِّم التعصب المذهبي تحريماً مطلقاً، وكانتْ له جريدة (الناس اليومية السياسية) التي تُمثِّل الجريدة الناطقة باسم الحزب وكان صاحب امتيازها الأستاذ عبد القادر السيَّاب وهو من مؤسسي الحزب في البصرة، وعمل سكرتير تحريرها السيد عبد العزيز بركات الأخ الأكبر للسيد رجب بركات، واستمرتْ هذه الجريدة بالصدور من سنة 1944م حتى سنة 1954م في البصرة، ثُم انتقلتْ إدارتها إلى بغداد في 7/ 6/ 1954م فتوقَّفتْ عن الصدور– في بغداد كذلك – عام 1957م.

وكان رجب بركات عند دراسته للحقوق في نهاية الأربعينيات مُراسلاً لهذه الجريدة في بغداد ومُشترِكاً في تحريرها فيما بعد؛ كونه عضواً في الهيئة الإدارية لحزب الإستقلال، كما كَتَبَ في هذه الجريدة أُدباء ومثقَّفون كُثُر، منهم الأديبان الكبيران غالب الناهي وحامد البازي[1]، ومن كُتَّابها كذلك المحامي عبدالله عبدالمجيد والمحامي عبدالعزيز المانع وهما من مؤسسي حزب الإستقلال في البصرة.

كما كَتَبَ الأستاذ رجب بركات كذلك في ((جريدة اليقظة لصاحبها سلمان الصفواني مع الشاعر محمود البريكان الذي اعتاد النشر باسم برق والشاعر عبد الحسن زَلزَلة باسم

(1) يُنظر من تأريخ صحافة الخليج العربي بين عامي 1889م _ 1973م صحافة البصرة : ص 142_ 143

صقراً وقد اقترن بعلاقةٍ طويلة مع البريكان وكان يحتفظ له بالكثير من القصائد التي قام الشاعر بنشرها في جريدة اليقظة نهاية الأربعينيات))[1].

وأصدر حزب الإستقلال في البصرة كذلك جريدةً أخرى هي (آخر ساعة) وكان سكرتير تحريرها عبدالعزيز بركات، وهذه الجريدة لم تعمل في بداية صدورها لحزب الإستقلال تماماً، ولكن بعد وفاة صاحبها عبدالرزاق الناصري وكان قد أصدر منها 631 عدداً منذ عام 1941م وحتى 29/ 11/ 1945م انتقل امتيازها إلى الأستاذ عبدالقادر السيَّاب مسؤول الحزب في البصرة، واستمرَّتْ الجريدة بالصدور ممثلةً لأفكار حزب الإستقلال حتى عام 1946م[2].

بعد ذلك حَصَلَ الأستاذ محمد عبدالعزيز المانع على امتياز تأسيس جريدة البريد اليومية في 24/ 4/ 1946م التي استَمرَّتْ ناطقةً باسم حزب الإستقلال حتى عام 12/ 10/ 1946م موعد احتجابها. وأُعيد إصدار الجريدة مرَّةً أخرى، وكان رئيس تحريرها هذه المرَّة عبدالعزيز بركات، وبدأتْ بالصدور من 17/ 3/ 1948م واستمرَّتْ حتى 17/ 8/ 1949م، وكانتْ الجريدة في هذه المرحلة أكثر اندفاعاً وتعبيراً عن أهداف حزب الاستقلال[3]. ثُم أَصدَرَ الأستاذ عبدالعزيز بركات جريدةً أخرى باسم (المنار) وهي سياسية يومية تَوقَّفتْ عام 1963م.

وبعد توقف جريدة البريد المُشار إليها التي أسَّسها وعمل فيها عبدالعزيز بركات – كما ذكرنا– حَصَلَ الأستاذ رجب بركات على امتياز فتح جريدة البريد التي كانتْ في السابق سياسيَّة ناطقة ومُعبِّرة عن أهداف حزب الاستقلال، فبدأتْ الجريدة تصدر مرَّتين في الأسبوع، وهي من الجرائد القومية كذلك، وقد أهتمَّتْ كثيراً بتأريخ البصرة،

(1) عبير التوابل، إحسان السامرائي: ص185.

(2) يُنظر من تأريخ صحافة الخليج العربي: ص 137.

(3) ينظر من تأريخ صحافة الخليج، رجب بركات: ص 145.

وأدبها وشخصيَّاتها فكانتْ جريدة أدبية تأريخية شارك في تحريرها المرحوم الشيخ عبد القادر باشا أعيان مؤرخ البصرة وأحد كِبار رجالاتها، وبعد فترةٍ من صدورها ، بقيتْ تصدر أربع مرَّات في الأسبوع وتُطبع في البصرة في مطبعة حداد[1] لصاحبها القاص والأديب والصحفي يعقوب يوسف حداد وفي هذه الأثناء كان الأستاذ رجب بركات موظَّفاً حكومياً يشغل منصب المشاور القانوني لبلدية البصرة وقد مُنِحَ امتياز إصدار جريدة وفقاً للقانون الذي يُجيز -آنذاك - حصول الموظَّف الحكومي على امتياز إصدار جريدة .

فضلاً عن ذلك فإنَّ الأستاذ رجب بركات كان رئيساً لتحرير صحيفة البريد ويعمل مشاوراً قانونياً لبلدية البصرة ومن ثَمَّ مديراً لبلدية البصرة بالوكالة، وكان يكتب في جريدة الخليج العربي اليوميَّة السياسيَّة الحكوميَّة التي صدرتْ في 2/ 6/ 1965م في البصرة والتي انتقلتْ إدارتها في 1/ 7/ 1967م إلى بغداد وتوقفتْ تماماً في 1/ 8/ 1967م، وكان من الكُتَّاب فيها كذلك فضلاً عن السيد رجب بركات، الدكتور محمود محمد الحبيب أستاذ الإقتصاد في جامعة البصرة وأحد أعلامها وشعرائها وكُتّابها وكذلك كاظم محمد علي خليفة وطاهر التميمي وغالب الناهي والشاعر المبدع كاظم مكي حسن ورشيدة العگيلي التي كانتْ تُحرِّر صفحة المرأة .

كان السيد رجب بركات مُستمرَّاً بالكتابة في الشؤون السياسية والتأريخية، وقد نَشَرَ كذلك مقالاتٍ عِدَّة ((في جريدة الشرق الأوسط تفضح ما جاءتْ به مُذكَّرات بعض الساسة وتُصحِّح المسار القومي العربي))[2].

(1) ينظر من تأريخ صحافة الخليج رجب بركات: ص 216 .

(2) عبير التوابل: ص 185.

وفي عام 1977م أصدر الأستاذ رجب بركات كتاباً مُهمَّاً في تأريخ الصحافة البصرية عنوانه (من تأريخ صحافة الخليج العربي 1889 – 1973 صحافة البصرة) عن مركز دراسات الخليج العربي في جامعة البصرة بتسلسل رقم 8 وطبعته مطبعة الإرشاد ببغداد سنة 1977م، تَتَبَّعَ فيه تطور الصحافة البصرية والمراحل التأريخية والسياسية التي مَرَّتْ بها وقسَّمها على أربع مراحل مُهمَّة لُمدة ثمانين سنة، وذكر فيه اسم كل صحيفة صدرت في البصرة وصاحب الإمتياز ورئيس تحريرها ومَنْ عَمَلَ بها وتأريخ الإمتياز والمدَّة التي استمرتْ بها في الصدور وتأريخ توقفها، والخط العام للصحيفة وسبب التوقف أحياناً و يُثبتُ كل هذا بالأيام والشهور والسنين، ومن المؤكد أنَّنا لم نَعهد هذه الدقَّة في التثبت التأريخي من قبل عند أيِّ شخص يُؤرخ للصحافة العراقية، والسبب في ذلك هو أنَّ الرجل كان حقوقيَّاً ومشاوراً قانونياً وصحفياً مُتمرِّساً لذلك فهو لا يذكر شيئاً إلَّا وكان متأكِّداً منه مُوثَّقاً لديه، وكذلك يُثبِّتْ صورة فوتوغرافية للجريدة، فهو صحفي مُؤرِّخ وثائقي يحترم دقَّة المعلومة .

وكذلك الحال في كتابه بلدية البصرة ، فهو من أكبر الكتب التي كُتبتْ عن تأريخ البصرة وأفضلها، إذ يُؤرِّخ لمدينة البصرة لأكثر من مئة سنة، وهو ليس كتاباً في القَصَص التأريخي أو التأريخ المدحي أو غيره ، وإنَّما هو وثيقة مُهمَّة عن مدينة البصرة أفاد السيد رجب بركات من سِجلَّات بلدية البصرة في العهد العثماني وما بعده كونه مشاوراً قانونياً فيها، ويمتلك الكثير من تلك الوثائق ، وفي هذا الكتاب نجد كُلَّ المعلومات مُثبَّتة بدقَّةٍ عالية، لذا نستطيع أن نقول أنَّه الكتاب الوثائقي الرسمي لبلدية البصرة، والذي أصبح نادراً الآن بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على طباعته وبنسخ معدودة .

وقد جمع السيد رجب بركات في هذا الكتاب عصارة وثائقه ومعلوماته عن المدينة، ففي مقابلة معه في صحيفة المرفأ التي كانتْ تصدر في البصرة في عددها ذي الرقم 43 ليوم السبت الموافق 3/12/1977م في الصفحة 16 قال السيد رجب بركات:

((أنجزتُ القسم الأكبر من دراسة عن بلدية البصرة في مائة عام، وقائع وأحداث وتتناول هذه الدراسة تأريخ بلدية البصرة ومجالسها وإحصائيات مُتعدِّدة إضافة إلى ما وقع من أحداث انعكستْ على البلدية)) وإذا ما عَلِمنا أنَّ الكتاب قد نَشره مركز دراسات الخليج العربي في جامعة البصرة عام 1981م، فيكون قد استغرق السيد رجب بركات في تأليف هذا الكتاب أكثر من ستِّ سنوات على أقلِّ تقدير لأنَّ الكتاب يقع بتسعمئة صفحة تقريباً.

وبعد طبع هذا الكتاب بعامٍ واحد بلغ الأستاذ رجب بركات السنَّ القانوني للتقاعد أي عام 1982م ، وبدأ مرحلةً جديدة من العمل أَلَا وهي المحاماة، إذ استمرَّ بها من سنة 1982م حتى سنة 1999م إذ سافر الى خارج العراق، وهكذا -عبر هذه الرحلة - وجدنا السيد رجب بركات دائب العمل في الصحافة والتأريخ والأدب والسياسة والمحاماة والإدارة فضلاً عمّا ذكرنا سابقاً من أنَّ السيد رجب بركات كان يكتب في مجموعة من الصُحف والمجلَّات مُحقِّقاً ومدقِّقاً ومُصحِّحاً لكثيرٍ من الأفكار والآراء.

ولعلّي هنا أقوم بعرض مجموعة من النصوص التي كتبها الأستاذ رجب بركات في صحيفة التاجر البصرية التي كانتْ تُصدِّرها غرفة تجارة البصرة في نهاية الستينيات من القرن العشرين، إذ يقترح السيد رجب بركات أفكاراً مُهمَّة لتطوير مدينة البصرة، منها ما يتعلَّق بالمياه ومنها ما يتعلَّق بالتخطيط العمراني أو تصميم المدينة، إذ يقول مثلاً: ((إنَّه من الضروري إعادة النظر في تصميم المدينة العام فمن هذه الزاوية أقول، إنَّ القرار الذي أُتُخِذ للإبقاء على المناطق الخضراء المزروعة وتعديل النظام الذي أشرتُ إليه لتشجيع البناء في المناطق الداخلة في حدود التنظيم دون أن يصلها التنظيم من هذا المنطلق نقول أنَّ من الضرورة إعادة النظر في التصميم الأساسي للمدينة، لأنَّ واضع التصميم لم يُدرك صعوبات تطبيقه، إضافة إلى أنَّ هذا التصميم يُفسد على المدينة السياحية رونق قدمها، كما وأنَّ وضع التصميم في مجموعه موضع التنفيذ مرَّة واحدة أمرٌ من التعجيز بمكان...

ولهذا فإنَّنا حين نُجدِّد الدعوة للحفاظ على القديم، وإخراج مشروعات الإسكان إلى ظاهر المدينة لخلق مدن جديدة بتخطيطات جديدة وبأبخس التكاليف.. كُلُّ هذا يجعل إعادة النظر في التصميم أمراً واجباً ومُلحّاً.. ولا نقول لهم اتركوا القديم مُهمَلاً لا بل العكس يجب أن يُحافظَ عليه ويُنظَّم ويكسب هذا القديم إدامة ويكون مُعدَّاً لإستقبال السُيّاح والوافدين إضافة إلى أنَّ في المدينة القديمة بعض الشوارع يجب أن تُنظَّم تنظيماً حديثاً وبالأخص شارعي الجمهورية والمُوفَق، وإنَّ هذين الشارعين هُما عَصَب المدينة وشريانها الحي ولموقعهما بمحاذاة نهر العشار يمكن أن نجعل منهما ومن النهر المذكور شيئاً رائعاً بالنسبة لمدينة سياحية كالبصرة ومن أجلِ مدينةٍ سياحيةٍ يلزمنا أن نحرص على مورد إنتاج هذه المدينة الرئيسي – النخيل – وأن نُعنى به عناية تكفل بقاء شجرة النخيل وإنَّ قرار منع افراز البساتين وبالطبع منها بساتين النخيل تأكيداً على هذا الحرص الذي يجب أن نبديه. وخاصَّة أنَّ ما يُصرف على وسائل البستنة في المؤسسات البلدية وغيرها يمكن أن يوجَّه للإعتناء بالنخيل وزراعته وإنتاج الأنواع المحسَّنة منه... ويمكن أن يتمَّ هذا الزرع حتى على أرصفة الشوارع العامة – أي بدلاً من أن نزرع شجرة جوز الهند مثلاً والتي لا تَمتَ بصلة إلى هذه المدينة، يمكن أن نبذل على شجرة تدر العطاء ومعروفة في هذه المدينة، وبالتالي تُشكِّل مورداً ومحصولاً حسناً وأنَّ السائح عند قدومه إلى هذه المدينة يريد أن يعرف شيئاً عن هذه الشجرة التي وَرَدَ ذكرُها في الكتب المقدسة... ويمكن أن نرى يوماً دار الشاعر (بدر شاكر السياب) وقد أُعتني ببنائها لتُتَخذ مزاراً لروَّاد الأدب والشعر.... كما وأنجبتْ الزبير بلد المربد الشاعر المرحوم مُقبِل الرمَّاح وكان شاعراً عربياً فذّاً أبيَّاً صدَّاحاً طويلَ النَفَس في الشعر وربَّما أنصفته يوماً ما قصبة الزبير))[1]، ، أقول للسيد رجب بركات إنَّه بعد أكثر من أربعين سنة على هذه المقالة بقي الحال كما هو بل والنخيل في تَناقصٍ مُستمرٍّ وكبير ولم يتمّ تصميم المدينة ولم تَحتَفظ المدينةُ القديمة بطابعها

(1) مقال رجب بركات ((البصرة مدينة سياحية ذات تأريخٍ مجيد)) مجلَّة (التاجر) الصادرة عن غُرفة تجارة البصرة عدد 28_29 نيسان _ آيار سنة 1970 : ص 13_14 .

ولم يُنفَّذ التصميم الأساسي للمدينة بسبب الحروب التي مَرَّتْ عليها والمآسي وغير ذلك، لذا فهي دعوة جديدة لإعادة رسم المدينة وفقاً لتأريخها ومتطلبات المعاصرة فالتصميم الأساسي للمدينة كما يقول رجب بركات ((ما هو إلَّا حفاظ على تراثها وتأريخها الحافل بالمآثر والأمجاد كما أنَّه ذوق مرهف يبرز مفاتن ومحاسن هذه المدينة التأريخية ... مدينة الشعراء والكُتَّاب ويظهرها بالمظهر الذي يليق بها. إنَّنا نقول إنَّ تخطيط أي مدينة بعد أن تُحقِّق حاجة سكانها يجب أن يُبرز تراثها ومفاتنها ويضفي عليها لمسات من الذوق والفن والإبداع))[1].

ولم يقف قلم السيد رجب عند هذا الأمر، بل يقترح كذلك أفكاراً لمعالجة ملوحة مياه المدينة إذ يقول((إنَّ مياه الخليج المالحة أخذتْ في الآونة الأخيرة تطغى على مياه شط العرب حتى وصلتْ الملوحة إلى أبعادٍ كبيرة في مداخل الشط... وقد أرجع بعضهم السبب لوجود السدود التي تمَّ تشييدها في أعالي الفرات ودجلة بزعم أنَّها حجزتْ المياه العذبة عن شط العرب وبالتالي تَسلَّط البحر بمياهه مما أدّىُ إلى الملوحة فيه... وهنا نقول إنَّ الذي اعتبروه سبباً لم يكن بالحقيقة كذلك لأنَّ السدود التي تمَّ تشيِّدها على دجلة والفرات عامل ري دائم محافظ على مناسيب النهر في أوقات شحة المياهأي عند الصيهودولا ندري إنَّ مَنْ أعطى هذا السبب غير المُسبِّبلماذا ترك الأسباب التي تَتَمثَّل بالأعمال التي أجرتها إيران عندما غيَّرتْ منابع روافد دجلة ومنابع نهر الوند وكذلك تَغيِّير مجرى نهر كارون ليصبَّ في ترعة بهمشيروهذا التغيير يمنع الملايين من الأمتار المُكعَّبة من المياه التي تغذي النهر من الإنسياب إليه ... إضافة إلى هذا فإنَّ حفر قعر النهر المتواصل لزيادة عمق قناة الشط (شط العرب) لتستوعب المغاطس الكبيرة جعل من مستوى سطح مياه النهر العذبة أكثر انخفاضاً من مستوى سطح البحر ممَّا أدَّى إلى أن تحلَّ مياه البحر

(1) مقال ((تصميم المدينة وما ستكون عليه البصرة حالياً ومستقبلاً)) للسيد رجب بركات مجلة التاجر عدد 34 أيلول سنة 1970 ص 31 .

ليستوعبها حوض النهر ـ قانون موازنة السوائل ـ وهذا التدفق الهائل من مياه الخليج أدَّى إلى ملوحة شط العرب .. ومن المؤكد أنَّ توقف أعمال الحفر فترة ما يكفي لتراكم كميات من الطُمى في قعر قناة الشط وبالتالي فإنَّ مياه الرافدين يمكنها أن تملأ حوض شط لعرب ولا يبقى مجالاً لتدفق مياه البحر)) [1].

نقول ليس هذا هو السبب الرئيس لذلك لأنَّ أعمال الحفر توقفتْ منذ سنواتٍ طويلةٍ ولاسيِّما في الحرب العراقية الإيرانية التي وقع بعض معاركها عند هذا الشط بل الأمر يكمن في تقليل الدول المجاورة لكميَّة المياه المتدفقة إلى العراق، لأنَّ تلك الدول أفادتْ من المياه لديها في مشاريع زراعية كُبرى في تركيا وإيران وكذلك استَصلَحَتْ تلك الدول أراضٍ غير صالحة للزراعة وكذلك يعود السبب في وجود المئات من المنشآت الحكومية وغيرها قد بُنيتْ على مجرى نهري دجلة والفرات وكذلك إلى سوء استخدام المياه ومجاري الصرف الصحي الواقعة على هذين النهرين وأمور عديدة أدَّتْ إلى تلوث مياه الأنهر ولاسيِّما نهري دجلة والفرات ومن ثَمَّ شط العرب .

ولَعلِّي كُنتُ مُقتَنِعاً بما طرحه الدكتور محمد عبد الله النجم يوماً ما عندما أكَّد أنَّ التخلص من الملوحة القادمة من البحر باتجاه البصرة يقضي وضع سدٍّ عند مصبِّ شط العرب في الخليج أو قريب من ذلك لإيقاف مياه البحر القادمة إلى شط العرب عند الجَزر وكذلك لتقليل كميات المياه التي يفقدها شط العرب عند مَصبِّه في الخليج وأنَّ هذا السد يُحكَم ببواباتٍ لدخول السفن إلى شط العرب .

وقد وقعتْ عين الأستاذ رجب بركات على موضوعٍ مُهمٍّ آخر يَتَعلَّق بشط العرب، وهو أن جريان الشط يُهدِّم من الجرف العراقي للنهر مما يجعله يفقد مئات الأمتار سنوياً من الأراضي العراقية بسبب عوامل سرعة المياه وعدم تكتيف ضفة النهر العراقية،

(1) مقال ((لماذا هذه الملوحة في شط العرب)) للسيد رجب بركات مجلة التاجر العدد 30 حزيران سنة 1970 : ص 39 .

بالحجر وهذه الأرض المفقودة توازيها إضافة جديدة على الضفَّة الإيرانية ممَّا يَترَسَّب هناك: ما يُؤدِّي إلى إضافة أرض هناك بسبب الترسب وفقدان أرض هنا بسبب المياه، لذلك يقول: ((إنَّ الظاهرة الطبيعية المميَّزة لهذا الجزء من العالم هي أنَّ البحر ينحسر دوماً عند جنوب العراق ويخلق بانحساره الأرض الجديدة من الطُمى العالق بمياه الرافدين المُتدفِّقة منذ الأزل ... أن الأرض الجديدة تَتكوَّن من انسحاب البحر وتراكم الطمى لتغطّي تلك الأجزاء التي انسحب البحر عنها ... وبهذا يمتدُّ السهل الرسوبي عبر الـتأريخ دون أن يَتوقَّف.. إنَّ شط العرب عليه أن يخلق الأرض الجديدة تنفيذاً لنواميس الطبيعة التي تَتَحكَّم هذه المنطقة من العالم ولا يصح أن نخلق الأرض على حساب الأرض وبفعل أصحاب الحق لتُقدَّم للغير الذي يطمع في الحصول على شبرٍ من الأرض مع تَقدُّم خط الماء الواطئ .. إشارة إلى نمو الشاطئ الشرقي (الإيراني) على حساب تيارات الماء والحفر الدائم لقناة الشط)) [1]

هذه الحقائق التي ذكرها السيد رجب بركات في بداية السبعينيات من القرن العشرين عرفها بحسِّه البصري المُحِبِّ لمدينة البصرة ولبلده لِمَ لا وهو منذ شبابه كان يتمتَّع بحسٍّ مُرهَف مُستَشرِف للمستقبل فعن هذا يقول الأستاذ معن العجلي الذي زار البصرة وكتب مشاهداته عنها في نهاية الأربعينيات وفي عقد الخمسينيات من القرن العشرين ونشرها في كتاب عنوانه(في البصرة)، يقول عن الشاب رجب بركات عندما إلتقاه: ((السيد رجب بركات شابٌ وثَّاب الروح توَّاق النَفس إلى الأدب الدقيق والمعاني العالية وعميق الشعور مرهف الحسِّ في إدراك كلِّ ما يقرأ ويُفكِّر وواسع الذهن في تلقيّ كلّ ما يَرد إليه من عالم الثقافة و الأدب ويقظ العقل نافذ البصيرة في فهم الصور المتعارضة في دماغه من دراساته الأدبية التي تكاد تنحصر أو تتوجَّه إلى فلسفة (شوبنهور) ومَنْ يجري على منواله في النظر

(1) مقال((شط العرب عليه أن يَخلُقَ الأرضَ الجديدة للعرب))للسيد رجب بركات مجلة التاجر العدد 33 سنة 1970: ص 44 .

الدقيق والإدراك القوي .. عَرَفتُ هذا الشاب أوَّل مرَّة _ في فرع حزب الاستقلال بالعشَّار _ ومن أوَّل نظرة اهتديتُ إلى أنَّه شقيق لصديقي المهذَّب الفاضل السيد عزيز بركات ...))[1] ويتَحدَّث معن العجلي عن تشاؤم رجب بركات القارئ لفلسفة (شوبنهور) المُتشائِمة فيقول لرجب: ((أجل يا عزيزي رجب إنَّ تشاؤمك هذا ليس تشاؤماً - في رأيي - وإنَّما هو وثباتٌ روحيةٌ ينطلق فيها عقلكَ وتنداح بها مدارككَ فيضيق هذا الجسد عن احتمالها والإستقلال بهاَ وعند ذاك ولضيق الجسم المادي عن تمثيل أغراض الروح تَتَخيَّل أنَّك مُخفقٌ ومُندِحر في الحياةَ أقول لك إنَّك لستَ متشائماً تشاؤماً طبيعياً وإنَّما عندك وثباتٌ روحيةٌ يصحبها منك إحساس دقيق بالعوائق العارضة لك والعراقيل المنصوبة دُون غايتك، وعندئذ يصخب شُعورك ويَتوَهَّج قلبك وتضطرم عواطفك ثُمَّ تَتَخيَّل أنَّك مُتشائم.

نعم يا أخي رجب إنَّك لست مُتشائِماً إنَّك ذو إحساسٍ وشعور دقيقينَ وذو خيال واسع يُجسِّم لك أبسط الآلام فتراها مُكبَّرة واسعة وهي بنظر الحقيقة لا شيء، هكذا كُنتُ أجيب الأديب رجب بركات))[2]

والمقالات التي جمعناها للأستاذ رجب بركات هي:

١ - لماذا هذه الملوحة في شط العرب ، مجلة التاجر ، تصدِّرها غرفة تجارة البصرة العدد ٣٠ حزيران سنة ١٩٧٠.

٢ - شط العرب عليه أن يَخلُقَ الأرضَ الجديدة للعرب ، مجلة التاجر ، العدد ٣٣ سنة ١٩٧٠.

٣ - البصرة مدينة سياحية ذات تأريخ مجيد ، مجلة التاجر ، العددان ٢٨ - ٢٩ نيسان - آيار سنة ١٩٧٠.

---

(1) في البصرة معن العجليَ مطبعة الإستقلال : ص 43 .(د.ت).

(2) في البصرة معن العجليَ مطبعة الإستقلال ص 45_ 46 .

٤ – المرور والسير وعلاقته بتصميم المدينة الأساسي ، مجلة التاجر العدد ٣٢ سنة ١٩٧٠.

٥ – تصميم المدينة وما سَتكون عليه البصرة حالياً ومستقبلاً ، مجلة التاجر العدد ٣٤ أيلول سنة ١٩٧٠.

٦– طالب النقيب – من تأريخ العراق المعاصر – مجلة الخليج العربي ، الصادرة عن مركز دراسات الخليج العربي في جامعة البصرة مجلد ١٦ عدد ١ سنة ١٩٨٤.

٧– نهر العشار أصل نشوء مدينة البصرة الحديثة وله حق بذمتها ، مجلة الخليج العربي العدد٣–٤ سنة ١٩٨٥.

٨ – المُشيَّدات التُراثية في مدينة المدن (البصرة) وما آلت إليه عند التخطيط الحديث، مجلة الخليج العربي مجلد ٢١ سنة ١٩٨٩.

٩ – مقال (صحافة البصرة) في صحيفة الإتحاد البغدادية العدد ١٣٢ في 24/ 7/ 1989.

١٠– مقال (كشَّاف الصحافة البصرية) منذ العهد العثماني وحتى الوقت الحاضر ، في صحيفة الإتحاد العدد ١٥٧ في 15/ 1/ 1990.

١١ – مقال (الزوراء الجريدة الرسمية لولاية العراق) صحيفة الإتحاد العدد ١٧٩ في 18/ 6/ 1990.

١٢– مقال (لا يا زميلنا معاذ) صحيفة الإتحاد العدد ١٨٠ في 25/ 6/ 1990.

١٣ – مقال (محررو الصحف البغدادية والموصلية يعملون في صحافة البصرة) صحيفة القادسية العدد ٣٩٣٦ في ١٥ / ٦/ ١٩٩٢.

١٤– مقال (١٨٦٩ و ١٨٧٥ و ١٨٨٩ أعوام لأعياد صحافة العراق) في صحيفة البصرة يوم ١٥ / ٦ / ١٩٩٤.

والمقالات الست الأخيرة كان قد كتبها في الأعياد السنوية لتأسيس الصحافة العراقية كما هو واضح من تأريخ نشرها ومادتها .

المقالة الأولى

لماذا هذه الملوحة في شط العرب؟

بعد أن انحسر البحر عن جنوب وادي الرافدين، وتكوَّن السهل الرسوبي من طمى النهرين دجلة والفرات أصبح انحدار المياه المُحَمَّلة بالطُمى سدَّاً مانعاً من طغيان مياه البحر المالحة على هذا السهل .. وامتد الفرات متمكِّناً من أن يجعل من المنخفض المتبقِّي من البحر مُنخَفَض هور الحمَّار جزءاً متمِّماً لواديه، ومنه نَفَذَ وكوَّن نهر معقل الذي اتصل بنهر الأبلَّة غرب البصرة آخذاً بالإنحدار حتى لقاءه بدجلة عند مدينة – الأبلَّة – التي يذكرها التأريخ ..وقد كوَّن الرافدان دلتيهما في هذا السهل الرسوبي، وأنَّ الدلتا هذه عبارة عن مسارب للفرات تُغذِّيها من منخفض الحمَّار كما وأنَّ أنهر البصرة الحالية كانتْ متَّصلة بنهري معقل والأبلَّة ومتَّصلة -أيضاً- بدجلة العوراء أي شط العرب مُتمِّمة لتلك الدلتا .. فمن تلك المسارب وشبكة الأنهر هذه ومياه المدِّ والجزر تمَّ غسل التربة من – الملوحة التي خلَّفها البحر بعد أن غطَّاها الطمى.. إلَّا أنَّ مياه الخليج المالحة أخذتْ في الآونة الأخيرة تطغى على مياه شط العرب حتى وصلتْ الملوحة إلى أبعادٍ كبيرة في مداخل الشط ... وقد أرجع بعضُهم السبب[1] إلى السدود التي تمَّ تشيِّدها في أعالي الفرات ودجلة بزعم أنَّها حَجزَتْ المياه العذبة عن شط العرب وبالتالي تَسلَّط البحر بمياهه ممَّا أدَّى إلى الملوحة فيه ! .. وهنا نقول أنَّ الذي اعتبروه سبباً لم يكن بالحقيقة كذلك لأنَّ السدود التي تمَّ تشييدها على دجلة والفرات تعدُّ عامل ريٍّ دائمٍ تحافظ على مناسيب النهر في أوقات شحَّة المياه أي عند الصيهود ولا ندري من أعطى هذا السبب غير المسبِّب، لماذا تركت الأسباب التي تتمثَّل بالأعمال التي أجرتها إيران عندما غيَّرتْ منابع لروافد دجلة – منابع نهر الوند –

(1) – إشارة إلى ما نشرته مجلة العربي في عددها 129 الصادر في جمادي الأول عام1389هـ الموافق آب 1969م في حقل (انت تسأل ونحن نجيب).

وحصرتْ المياه بسدود ومنعتها من أنَّ تجري باتجاه نهر ديالى ممَّا أدَّى إلى أن تضخَّ مياه دجلة في قناة لتصبّ في نهـر ديالى ثانيـة تعويضاً عمَّا خسره النهر عند تغيِّير منابعه الرئيسية.. وعملية نقل المياه هـذه تُنفِد نهر دجلة كميَّات كبيرة من مياهه فضلاً عن ما فقده عند تغيِّير منابع روافـده !.. كما ولم تَكتَفِ الجهة التي غَيَّرت منابـع الوند ، إلَّا أن تسعى محاولة تغيير مجـرى نهر كارون ليصبَّ في ترعة (بهمشير) وهذا التغـيِّير يمنع الملايين من الأمتـار المُكعَّبـة من المياه التي تُغذِّي النهر من الإنسياب إليه ! فضلاً عن هـذا فـإنَّ حفـر قَعـر النـهر المتواصل لزيادة عمق قناة شط العرب لتستوعب المغاطس الكبيرة جعل من مستوى سـطح مياه النهر العذبة أكثر انخفاضاً من مستوى سـطح البحـر ممَّا أدَّى إلى أن تحـلَّ ميـاه البـحر ليستوعبها حوض النـهرأ– بحسب قانـون موازنة السوائل– وهذا التدفق الهائـل من مياه الخليج أدَّى إلى ملوحة شط العـرب ..ومن المؤكد أنَّ توقف أعمال الحفر فترة ما يكفي لتراكم كميَّات من الطُمى في قعر قناة الشـط، وبالتالي فإنَّ مياه الرافـديـن يمكنها أن تملء حوضَ شط العرب ولا يبقى مجالٌ لتدفق مياه البحر فيه.

ومن المؤكد أن إنجاز مشروع ترعة البصرة –الذي باشرتْ الجهات المَعنية بتنفيذه– يُعدُّ انجازاً مهماً فهذا المشروع المُهم يأخذ مياه الفرات لتصبَّ في خور عبد الله أي يأخذ المياه التي هي الآن مُبدَّدة في جوانـب الهـور لتصبَّ بالترعة الجديدة ومنها تَتَغذّى شبكة الأنـهر القديمة وتعـود دلتا النهرين لتمثل عاملاً كبيـراً في الـري وغسـل الملوحة العالقـة بالتربة بعد أن طَغَتْ عليها .

المقالة الثانية

شـط العـرب عليه أن يَخلُقَ الأرضَ الجديدة للعـرب

إنَّ الظاهرة الطبيعية المميِّزة لهذا الجزء من العالم (جنوبي العراق) هي أنَّ البحر ينحسر دوماً عنه، ويَخلُق بانحساره الأرضَ الجديدة من الطُمى العالق بمياه الرافدين المتدفقة منذ الأزل؛ إذ تَتكوَّن هذه الأرض الجديدة من انسحاب البحر وتراكم الطمى الذي يُغطِّي تلك الأجزاء التي انسحب البحر عنها .. وبهذا يمتدُّ السهلُ الرسوبي عبر التأريخ دون أن يتوقف. ولو تركنا لقوانين الطبيعة أن تعمل دون أن يَتَدخَّل البشر في تَغيِّير مسارها.

ولقد أخذ الإنسان بالبذل – بإصرار – في تَغيِّير تلك الظاهرة الطبيعية، بعد أن عَمَدَ إلى منع امتداد السهل الرسوبي الذي كان لابدَّ أن يمتدَّ ليتَّصل بالأجزاء التي انحسرتْ من البحر[1].

إلَّا أن الرَّاغب في التَغيِّير لم يتمكَّن من أن يُوقف تدفّق الرافدين وما يحملانه من طمى، الذي شلَّ عملية التَغيِّير المُخالِفة لنواميس الطبيعة، أي أنَّ الإنسان استطاع أن يُوقف تولّد الأرض ونموَّها. ولقد اعتمد التَغيِّير وسائله في تعميق قناة الشط الذي هو مجمع النهرين حتى مداخله عند الخليج العربي؛ لتكون تلك القناة أخفض من مستوى قاع البحر، وجعل مياه البحر تطغى على مياه الرافدين لملء حوض النهر ليستوعب المغاطس العميقة، فأصبح هذا السدُّ من الماء مانعاً للطَمى من أن يجد منفذاً نحو البحر ليغطِّي الأرض المنسحب عنها، وليكون امتداداً للسهل الرسوبي.

إنَّ الطُمى المُتدفِّق مع مياه الفرات، وَجَدَ له مستقرَّاً في منخفض الحمَّار، وتَرسَّب ما في مياه دجلة من طمى في قاعها، ولكن لَمَّا لم يستوعب الحمَّار ودجلة تلك الكميَّات الهائلة

(1) بوبيان وورية وغيرهما من الجزر التي ظهرتْ بمداخل الخليج نتيجة لإنحسار البحر عن ثلث الأصقاع .

من الطمى اندفعتْ لتستقرَّ في شط العرب ابتداء من ملتقى النهرين [1] عند گرمة علي حتى البحر . إلَّا أنَّ الإنسان والضرورات المُحتَّمة التي لازمته، ساعدا على مواصلة الحفر الدائم لقناة شط العرب ومداخلها ورفع الطمى المُستَقرِّ في القعر ورميه على الضفاف، وهكذا تَمكَّنَ عناد الراغب في التغيير أن يمنع امتداد السهل، ولكن جابهته الطبيعة بتحدِّيها تنفيذاً لقوانينها في هذه المنطقة لتخلق الأرض ولكن على حساب الأرض، فقد دفع حفر قناة شط العرب تيَّارات المياه لتجرف الأرض فضلاً عن ما تَجرُفه الوسائل الحديثة المُستَعمَلة بالحفر، وأخذ الطمى يترسَّب في الجانب الآخر فأصبحتْ الأرض الجديدة تُخلق على حساب الأرض القديمة[2]، وأخذ خطُّ الماء الواطئ يَتَقدَّم مع تَولُّد الأرض، وبالتالي يزحف الشطُّ إلى الجانب الآخر المتآكل، وأصبح النهر عاجزاً عن ملاحقة انسحاب البحر بل أضحى السهل يتآكل ليخلق أرضاً بدلاً من الأرض المتآكلة، أي أنَّ السهل أخذ ينمو على حساب تآكله دون أن يمتدَّ لخلق الأرض الجديدة، ونعتقد أنَّ الحفر الدائم لقناة الشط هو المُسبِّب والمُوجِّه لتيارات الماء كي تأكل الأرض، وأنَّ عُمق الحفر يمنع الطمى من أن يصل إلى البحر، وبالنتيجة أخذ جانبٌ آخر من الشطِّ يَتَقدَّم باستمرار إلى حدِّ منتصف الشطِّ، وهذا يزحف مع خطِّ الماء العميق.

---

(1) ملتقى نهر الفرات بنهر دجلة عند گرمة علي وكان مُلتقى النهرين فيما مضى جنوب البصرة الأبلَّة هناك إذ كان الفرات يمتدُّ بامتداد نهر معقل متصلاً بنهر الأبلَّة غرب البصرة، وكانتْ نقطة الملتقى هي مصبٌّ لدجلة ودجيل والفرات، وإنَّ دُجيل هو النهر الذي يروي الأرض العربية في الضفَّة الشرقية وينبع من الجبال الفاصلة بين الأرض العربية وفارس ويُسمّى اليوم كارون، وكانتْ تسمية نهر دجلة قبل مُلتقاه بالفرات (بدجلة العوراء) وإنما يُسمّى اليوم بملتقى النهرين – قورنه– فإنَّ هذه التسمية لم تكن بالمعنى الصحيح لأنَّ الفرات هناك ليس إلَّا مَسْرَباً يلتقي بدجلة كما كانتْ مساربه قديماً جميع أنهر البصرة الحالية التي كانتْ تتصل شرقاً بدجلة وغرباً بنهري الأبلَّة ومعقل .

(2) إشارة إلى نمو الشاطئ الشرقي – جزيرة الحاج صلبوخ مثلاً – على حساب تيارات الماء والحفر الدائم لقناة الشط.

ومن نافلة القول: يُمكن أن نترك الطبيعة على سجيَّتها لملاحقة البحر المُنسَحِب كي يخلق الأرض الجديدة، وهذا الأمر لا يُمكن أن يَحدث إلَّا عندما يكون قعر قناة شط العرب في مستوى أعلى من مستوى قعر مداخل البحر كي يكون سطح الماء في شطِّ العرب أعلى من مستوى سطح ماء البحر، ويمكن أن يكون هذا بعد أن أصبحتْ الملاحة ذات المغاطس الكبيرة تستطيع أن تسلك بوجهتها إلى الموانئ العميقة.

إنَّ المياه التي تَتَدَفَّق مُنحَدِرة، لا يمكن أن تُرسِّب ما تحمله من طمى في قعر مجراها، وهذا الذي نعنيه هو المفهوم المخالف لنظريَّة الحفر التي تجعل من قعر القنال بامتدادها أدنى من مستوى قعر البحر في مداخله، وهو المسبِّب للترسّبات داخل قعر القنال بدلاً من أن ينطلق الطمى ملاحقاً البحر المُنحَسِر لخلق الأرض الجديدة تنفيذاً لنواميس الطبيعة التي تحكم هذه المنطقة من العالم، ولا يصحُّ أن نخلق الأرض على حساب الأرض وبفعل أصحاب الحق، للتَقدُّم للغير الذي يطمع في الحصول على شبرٍ من الأرض مع تَقدُّم خطِّ الماء الواطئ.

المقالة الثالثة

البصرة مدينة سياحية ذات تأريخ مجيد

البصرة .. ذات التأريخ الحافلٍ والموقع المهم الذي يُوصِل الغربَ بالشرقٍ والطبيعة الخلَّابة التي من مظاهرها نظام الري المُعتَمِد على المدِّ والجزر، وشبكة القنوات والأنهار المميِّزة لها .. كل ذلك جعل منها مدينةً سياحية بحق .

هذا وإنَّ الحرص الذي يُبذل في تحقيق ما تمنَّيناه لهذه المدينة لمفخرة من المفاخر التي يُحقِّقها الرجال، وإن عزم البُناة يخلق المستحيل، كيف لا وقد دُعِمَ ذلك العزم بقانون المحافظات، ودُعِمَ بقرارٍ وثيق الصِلة بالتنظيم والزراعة على حدٍّ سواء، حينما تَقَرَّر منع إفراز البساتين والعمل على الحفاظ عليهاٍ وكلُّ ذلك سيعكس آثاره على هذه المدينة كما عكس تعديل نظام الطرق والأبنية – المعمول به حالياً –عند تسهيله عملية الإنشاء والبناء في الأرض التي تدخل ضمن التصميم العام للمدينة ولم يلحقها التخطيط بعد.. ومن هذا الذي قَدَّمناه نعرض حقائقَ يمكن الأخذ بها من أجل مدينة سياحيةٍ نوجزها بما يلي:

1 – قُلنا إنَّ البصرة ذات تأريخٍ حافلٍ جعل منها مدينة سياحية ..ومازالتْ آثار ذلك الماضي ماثلة للعيان، وإنَّ ما قَدَّمته هذه المدينة من تراثٍ وأمجادٍ وفكرٍ، لا يمكن أن يمسحه الزمن إذا ألزمنا أنفسنا بالحفاظ عليه، وأوجدنا داراً لآثارها ومَتحَفاً لتراثها.

أليستْ هذه المدينة أولى الحواضر التي أمر ببنائها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب – واتخذها الخليفةُ الرابع علي بن أبي طالب (عليه السلام) مقرَّاً لخلافته يوماً ما. وكان مسجدها الجامع قد عُرِفَ باسمه الكريم وشهد منبره نهجاً من بلاغته؟ كما أنَّها موضعاً – لمعركة الجمل – وهي أولى معارك الإسلام، وقد استشهد بها خيرة صحابة رسول الله(ص)ٍ أليستْ هي مربد العلم والأدب ومدرسة اللغة؟ وأنجبتْ أفـذاذاً من الرجالٍ

فَشَعَّ الفكر على العالم منها، وكانتْ مدارسها الفكرية لإخوان الصفا والمُعتزلة وغير ذلك من الفِرق تنبضُ بالحياة..

كل هذا جعل البصرة حَريَّة أنَّ تجد لها تلك الدار الآثارية لتساعد السائح على أن يتزوَّد من تأريخها بما يطمع في معرفته.

ومن المُؤكد أنَّ الذي يروم الدراسة والتتبِّع يمكنه أن ينهل من تلك المعارف موقعياً أي أن يرجع بذلك إلى المتحف ليتثبَّتَ من معالم موقع، أو أثر مفكر ..لهذا فإنَّ الإهتمام الذي تَتَلقَّاه هذه المدينة اليوم جعلني أبحث في هذا الباب.

2-من أجل مدينة سياحية، أجد من الضروري إعادة النظر في تصميم المدينة العام ومن هذه الزاوية أرى أنَّ القرار الذي أُتخذ للإبقاء على المناطق الخضراء المزروعة. وتعديل النظام الذي أشرتُ إليه لتشجيع البناء في الداخلة في حدود التنظيم دُون أن يصلها التنظيم، وإنَّ من الضرورة – أيضا -إعادة النظر في التصميم الأساسي للمدينة، لأنَّ واضع التصميم لم يُدرك صعوبات تطبيقه، فضلاً عن أنَّ هذا التصميم يُفسِد على المدينة السياحية رونق قِدمِها، كما أنَّ وضع التصميم بمجموعه موضع التنفيذ في آن واحد أمرٌ من التعجيز بمكان؛ لهذا فإنَّنا حين نُجدِّد الدعوة للحفاظ على القديم، وإخراج مشروعات الإسكان إلى ظاهر المدينة، لخلق مدنٍ جديدة بتخطيطات جديدة، وبأبخس التكاليف كل هذا سيجعل إعادة النظر في التصميم أمراً واجباً ومُلِحاً ولا نقول أن يُترَك القديم مُهملاً بل يجب أن يُحافظ عليه ويُنظَّم ويُكسب هذا القديم إدامة، ويكون مُعدَّاً لإستقبال السُيّاح والوافدين فضلاً عن أنَّ في المدينة القديمة بعض الشوارع التي يجب أنَّ تُنظَّم تنظيماً حديثاً وبالأخص شارعي الجمهورية والمُوفَق- فإنَّ هذين الشارعين هما عَصَب المدينة وشريانها الحي ولوقعهما بمحاذاة نهر العشار يمكن أن يُجعَل منهما ومن النهر المذكور مَعلَماً سياحياً رائعاً لمدينة سياحية كالبصرة.

3 –ومن أجل مدينة سياحية يلزمنا – أيضاً – أن نحرص على مورد إنتاج هذه المدينة الرئيسي –النخيل – وأن نَعتني به عناية تكفل بقاء شجرة النخيل هذهٱ ومنها قرار منع فرز البساتين تأكيداً على هذا الحِرص الذي يجب أن نُبديه وتسخير ما يُصرف على وسائل البستنة في المؤسسات البلدية وغيرها إلى الإعتناء بالنخيل وزراعته وإنتاج الأنواع المُحَسَّنة منهٱ ويمكن أن يتمَّ هذا الزرع حتى على أرصفة الشوارع العامةٱ فبدلاً من أن نزرع شجرة جوز الهند مثلاً والتي لا تمتُّ بصلة إلى هذه المدينة ، يمكن أن نبذل هذه النفقات على شجر ة تدرُّ العطاء للمدينة وتُشكِّل جزءاً من تراثها، وبالتالي تُشكِّل مورداً اقتصادياً لهاٱ ومن المُؤكَّد أن السائح عند قدومه إلى هذه المدينة يُريد أن يعرف شيئاً عن هذه الشجرة التي وَرَدَ ذكرها في الكتب المُقدَّسة .. إنَّ البلد على أبواب انفتاح زراعي وقد أُجريتْ مشاريع مُهمَّة وحيوية ومن تلك المشاريع – ترعة البصرة – الموازية إلى شط العرب التي تنقل مياه الفرات إلى مناطق سَيتمُ اصلاحها زراعياً وسيحيط بالمدينة إطار من الرقعة الخضراء يكون عاملاً لتلطيف المناخ وعاملاً مُهمّاً من عوامل المدِّ السياحي لبلدنا .

4– ومن أجل مدينة سياحية كُرِّم شاعر البصرة الكبير المرحوم بدر شاكر السياب عندما أُطلق اسمه على أحد ميادين هذه المدينة كما وكُرِّمَ عندما عُقِدَ مؤتمر الشعر في مربد البصرة وجامعتها كما أُطلِقَ اسمه على أحد شوارع قصبة أبي الخصيب محل مولد الشاعر، ويمكن أن نرى يوماً ما دار مولد الشاعر قد أُعتني ببنائها لتُتَخذ مزاراً لرواد البصرة ... كما أنَّ الزبير – بلد المِربَد – أنجبتْ الشاعر المرحوم مُقبل الرَمّاح وكان شاعراً عربياً فذّاً أبيّاً صدَّاحاً طويل النَفَس في الشعر وربَّما أنصفته يوماً ما قصبة الزبير.. وبهذه المناسبة وبعد أن دعوتُ إلى إبقاء القديم على قِدمه للحفاظ على طابع المدينة السياحي أقول من الضرورة أن يُعاد النظر في تسميات شوارع المحافظة وميادينها وساحاتها ومدارسها وأقضيتها كي تتصدر أسماء الأعلام بدلاً ممَّا هي عليه الآنٱ وقد احتواها ظلام الأزقة. ورُبَ قائلٌ أن يقول أين شارع عمر بن الخطاب – مُؤسِّس البصرة وبانيها.. وأين شارع

علي بن أبي طالب – ع – وأين إنتهى عليه شارع المُهلَّب بن أبي صُفرة والجاحظ والخليل .. وأين إنزوى شارع إخوان الصَفا؟ إنّ تلك التسميات لها أثر سياحي على مدينةٍ سياحيةٍ ومنها يشعر القادم أنّه في مدينةٍ ذات تأريخٍ مجيدٍ عريقٍ.

5- ومن أجلِ مدينةٍ سياحيةٍ عربيةٍ لابُدَّ من الإهتمام بالفروسيَّة التي تُعَد من صميم الحياة العربية. لذلك فإنَّ إيجاد نادٍ لها يكون بمثابة تنمية لتلك الروح ورعايتها كما أنَّها تُمثّل تنمية للثروة الحيوانية، فضلاً عن أنَّها رياضية مُحَبَّبة ومُلائِمة لطبيعة ثقافة شعبنا، ولم تكن بدعة في الإسلام ! .. وإننا حين نقول هذا نُدلِّل عليه بما حدث في عهد عمر بن الخطاب – عند محاكمته لابن عمرو بن العاص والي مصر كانت تلك المُحاكَمة سببها سباق الخيل فلم يُورد الحد من المسابقات، بل أوردَ نصاً يُعزِّز الحرية الشخصية ويُنمِّيها حينما قال عمر: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ – إنّ هذا الذي حَدَثَ كان في صدر الإسلام ولضرورات حياتية تَتَعلَّق بطبيعة الإنسان العربي وحياته.. لهذا فإنّ الدعوة الى إيجاد هذا النادي دعوةٌ مباركة. فكم نرجو أن تلحقها خطواتٌ لتفتح البلد سياحياً .

6-إنَّ إيجاد مدينة للهو تضمُّ جميع ما يحتاجه طالب اللَّهو ونقل الملاهي بعيداً عن المدينة القديمة أمر واجب لأنَّ مدينة الملاهي ستنمو وتزدهر وتنتعش وتكون مَحَلاً سياحياً يرتاده مَنْ يطلب الراحة والاستجمام، كما وأنها تزيل عن المدينة القديمة ذات الماضي التأريخي والحضاري عبث اللهو لتنصرف الى أمجادها.. هذا ما نَتَمنَّاه لمدينة البصرة.. ثغر العراق ومركز خيراته.

المقالة الرابعة

المرور والسَير وعلاقته بتصميم المدينة الأساسي

تَعتَمِد حركة المرور والسير في أيَّة مدينة من مدن العالم على تنفيذ تصميم تلك المدينة الأساسي .. وهذا معناه أنَّ حركة السير والمرور تعتمد الشارع المُهيأ لإستقبال واسطة النقل وتنظيم انتقال الواسطة من جهةٍ الى جهةٍ أخرى دون تأثير على حركة المرور والسير بصورةٍ عامة عبر تصميم الممرَّات والتقاطعات والفلكاتْ وإيجاد المواقف المُلائِمة للوقوف والإنتظار.

ولوقوع مدينة البصرة موقعاً وسطاً بين الشرق والغرب، ولكونها مدينة منفتحة باقتصادها وميناءها وخيراتها أصبحتْ – والحالة هذه – موضِعاً لمرور وسائط النقل بطريق الترانزيت– ومقصداً إلى الكثير من السوَّاح العرب والأجانب، والمواطنين الذين يأتونها من محافظاتٍ عراقية مجاورةْ وَلَّد كلُّ ذلك ضغطاً هائلاً على شوارع المدينةْ ودَفَعَ العاملين على شؤون تنظيم المرور والسير أن يعملوا بجد ومثابرة لمجابهة هذا الفيض من الوافدين لتنظيم سيره وإعداد السبل لمرورهْ ومن التلازم بين التصميم الأساسي وحركة السير والمرور نستخلص ما يلي:

أولاً: يجب أن يُعتَمد وضع التصميم الأساسي للمدينة موضع التنفيذ دفعة واحدة على جهة أو شخصية حكيمة تحرص على المصلحة العامة، فإنَّ الإعتماد – في تنفيذ بعض جوانبه – على مَنْ يراعي المصلحة الشخصية في التنفيذ من الأشخاص والجهات الذي يُعرقل الإنجاز ومن ثَمَّ يُؤخِّر حركةَ تنظيم السير والمرورْ وهذا ما رأيناه في بعض شوارع المدينة وميادينها وأرصفتها، فقد تداخلتْ جوانبها دون أن يُراعى العرض المُقرَّر، وأنَّ سبب هذا التداخل هو التنفيذ من جهةٍ وما ينتظر التنفيذ من جهاتٍ أخرىْ وقد كان هذا التداخل سبباً رئيساً في اضطراب حركة السير والمرور .

إنّ وضع التصميم العام للمدينة موضع التنفيذ دفعةً واحدة يلزم أن لا تنتظر الجهة المعينة لتنفيذ التصميم قيام غيرها به ومَنْ ليس له مصلحة فيه خاصة إذا كان التنفيذ المطلوب بدون مقابل [1]

ولا يمكن التَغلُّب على هذه الصعوبات والمُعوِّقات في تنظيم شوارع المدينة وتحديد أبعادها المُقرَّرة، إلَّا إذا تمَّ تنفيذ التصميم الأساسي للمدينة على مراحل [2] ذلك مع تقديم الأهم على المهم وترك تنفيذ المهم التالي وإجرائه على ضوء ما معمول به أي على حساب مَنْ له مصلحة في إخراج التنظيم عن طريق الإفرازات أو الرجع بعد هدم أو انهدام بعض المنشأة الداخلة ضمن استقامة الشوارع بمقابل أو دون مقابل .

ثانياً:- إنَّ وجود الشارع المنفتح من أجل استقبال واسطة النقل، يقتضي رسم خط تلك الواسطة تأميناً لإنتظام حركة السير والمرور[3]. فإنَّ نقل السَير عند إنجاز التصميم للشارع يلزم تَغييِّر اتجاه السير في الشوارع المتصلة بتلك الشوارع المُنجَزَة [4] ثُمَّ إنَّ هناك

(1) أرصفة شارع دينار بين نادي الجنوب [سابقاً] وجسر الخندق وما يعترضها من منشآة هندسية تحجب معالم الرصيف ممَّا يؤثر على حركة السير والمرور كما ونعني الشوارع غير المُتَصِلة بعد تنفيذ الإفرازات ولم تُفرَز الأملاك المجاورة لها .

(2) إشارة إلى مدخل المدينة عند باب الزبير وشارع المُوفَق بامتداده بما فيها عمارة النقيب .

(3) عند تنفيذ التصميم الأساسي لشارعي الساحل الجنوبي والشمالي امتد خط السير إلى ميدان أسد بابل وإياباً منه باتجاه دار المحافظة بمحاذاة الشارع الشمالي.

(4) المقصود شارع الثورة يمكن أن يكون المرور فيه من مدخله عند ميدان أسد بابل كي تسهل الحركة في هذا الشارع ويؤمن السلامة من مخاطر اللقاء في ميدان أسد بابل وحيث إنَّ هذا الشارع من أهم الأحياء التجارية فلا يمكن أن يكون المرور فيه من مؤخرته وبالتالي يمكن أن ينظم حركة المرور في الشوارع الموازية أو الفرعية المُوصِّلة إليه بما فيها شارع المُظفَّر الذي يجب أن تكون الحركة به معاكسة لحركة السير عن شارع الساحل.

شوارع لا يمكن أن تكون مَسلَكاً لوسائط النقل ما دام تنفيذ التصميم الأساسي لذلك الشارع لم يتم بعد في تلك المناطق[1] .

ثالثاً – إنَّ مصلحة نقل الركَّاب تُشكِّل عصب حياة النقل الآمن لمدينة مثل البصرة، التي عرفتْ بأحيائها المتباعدة غير المُتصِلة فوجود باص في الشارع له تأثير على حياة المواطنين وتسهيل انتقالهم إلى محلّات سكناهم وأماكن عملهم وبالطبع أن الباص يجب أنْ يَتَّبع بحركته الشارع المنفتح[2]. بعد تنفيذ التصميم الأساسي للمدينة كي يُوصِل ركابه إلى الأماكن التي يقصدونها. فوجود باص المصلحة في الشارع له علاقة وثيقة بحركة المرور والسير، لهذا يلزم أن يكون سير الباص غير منقطع [3]. كي لا ينقطع أمل الرُّكَّاب في الوصول... ومن ثَمَّ تنظيم أوقات الذهاب إلى أماكن عملهم و الرجوع منه إلى مناطق سكناهم. كما ويجب أن تكون مواقف الباص في متناول الجميع. وأن يكون الوصول إليها

---

(1) شارع منطقة الأسواق في البصرة المُوصِّل بين شارع 14/ تموز وميدان عز الدين.

(2) لم يواصل الباص سيره باتجاه ساحة وميدان أسد بابل بعد أن انفتح طريق الساحل الجنوبي و الشمالي بمروره ... و نعتقد أنَّ استدارته ووقوفه عند عمارة النقيب أكثر صعوبة من اجتياز عمارة النقيب باتجاه ميدان أسد بابل المذكور ومنه يمكن أن يسلك الباص في سيره شارع الثورة ـ الحي التجاري ـ ليُوصِل ركابه إلى ذلك الحي و حملهم منه . كما و نجعل من ميدان عمارة النقيب موقفاً للسيارات المختلفة و يكون منفذاً لخروجها إلى الشوارع الفرعية بما فيها شارع المُظفَّر .

(3) يمكن أن يُعاد النظر في خطِّ سير باص المصلحة الصاعد إلى الجمهورية من ساحة أنس و تكون حركة الباص مسيرة دائرية باتجاه الأصمعي و البصرة ثم يكون موقفه الأخير عند ساحة أنس بالعشار ويقابله خط سير الباص الصاعد من البصرة إلى الأصمعي ومنه إلى الجمهورية ثم العشار نزولاً إلى البصرة عند موقفه الأخير . . وهذه الحركة الدائرية تشمل عدة خطوط تساعد على حركة الباص دون انقطاعها .

دون مخاطراً ولا يعرقل موقفها موقف حركة السير في تلك المنطقة[1]. ونعتقد أنَّ من ضروريات تنظيم المرور إعادة النظر في سير الباص على جميع خطوطه، مع تحديد مواقفه ومحطاته، وإبعادها عن المنعطفات ومداخل الجسور. كما أنَّه من الضروري مدُّ خطوط الباص إلى المحال السكنية [2]، لتنظيم انتقال المواطنين وتيسير ذلك الإنتقال، وهذا من صُلب واجبات مصلحة نقل الركاب في تنظيم السير والمرور في هذه المدينة، إذ عليها ملاحظة تنفيذ التصميم لتنظيم سير الباص ومروره في الشوارع والأحياء .

رابعا- وسائل الأمان من الضرورات اللَّازمة لتنظيم حركة السير والمرور وملازمته - أيضاً - لتنفيذ التصميم الأساسي للمدينة؛ لأنَّ نصب الإشارة الضوئية يكون في تقاطع الطرق وعند الممرَّات، وتكون تلك الإشارة وسيلة من وسائل الأمان للواسطة والسابلة معاً[3] .ونعتقد - أيضاً - أنَّ مِن وسائل الأمان تخفيف سرعة وسائط النقل أمام مدارس الأطفال ، بعوارض كونكريتية في قارعة الطريق لمنع السير السريع. وخاصة أنّ مدارسنا معظمها تطل على شوارع رئيسية مستمرة الحركة.... بعد وأنَّ الوصف الذي يعدُّ كل هذا من أجل ضمان السلامة كي نُنفِذ السابلة بتعليمات المرور والسيراً وبالطبع إنَّ وجود تلك الوسائل ملازمٌ للتنفيذ التصميم الأساسي لشوارع المدينة وميادينها وأرصفتهاً فإنَّ كلَّ إنجاز يصاحبه عمل لمدِّ وسائل الأمان إليه.

---

(1) الذى نقصده هنا هو موقف عمارة النقيب الذى يستلزم الوصول إليه عبور شارعين _ الساحل الجنوبي و الشمالي المزدحمينً و من المعلوم أنَّ غالبية ركَّاب الباص هم من النساء و الأطفال و الشيوخ ممَّن يصعب عليهم اجتياز الشوارع المُكتظَّة .

(2) المناطق السكنية المُكتَظَّة والمحرومة من خطوط باصات المَصلَحة هي محال السكن المُطِلَّة على شارعي فلسطين والجزائر ومحلّات بريهه و غيرها .

(3) مواضع عبور المشاة في مدخل شارع الصيادلة و عند تقاطع شارعي البصرة و الكويت تصلح لنصب إشارة تنظيم مرور السابلة .. كما وأن ميادين ساحة أنس و ميدان بدر السياب و ميدان محافظة البصرة و مداخل الجسور يمكن أن تُنظَّم لتستوعب الحركة أكثر.

إنَّ الذي استخلصناه من علاقة ما أوردنا بالتصميم العام الأساسي للمدينة يمكن أن تكون الجهة المَعنية بشؤون تنظيم المرور والسير قد لا تراه جوهريا مُسبِّباً، وخاصَّة لما وجدنا الحرص الذي يبذلونه في هذه المدينة السياحية وتنظيم حركة السير والمرور فيها يؤدي الغرض الذي يتَوخَّاه السالك القادم إليها..

المقالة الخامسة

تصميم المدينة وما سَتكون عليه البصرة. . حالياً ومُستَقبلاً

إنَّ التصميم الأساسي، لأيِّ مدينةٍ في مدن العالم يعني تخطيط متطلبات سكَّان تلك المدينة من إيجاد مناطق السكن الملائمة لهمْ و تثبيت مواقع المؤسَّسات و المرافق العامة و تحديد أبعاد الطرق والمبادئ الموصلة لتلك الأحياء و المُيسِّرة لحركة المرور و السير.

ومن المُؤكَّد أن يختلف التصميم الأساسي تَبعاً لمساحة الأرض المُراد تخطيطها، و نسبة كثافة السكَّان فيها حالياً و مستقبلاً. إذّ إنَّ المدن التي تكون مساحة أرضها ضيِّقة مع وجود ضغط هائل في عدد السكان يكون تخطيطها غير تخطيط مدينة تمتلك مساحاتٍ واسعة من الأرض، يقابلها قِلَّة بعدد السكان. . . . أي أنَّ واضع التصميم لمدينة ضيِّقة الرقعة و كثيفة السكَّان، لابد أن يراعي حاجة هذه المدينة و متطلَّبات سكَّانها الحالية و المستقبلية . . . أمَّا بالنسبة لتخطيط مدينة تمتلك الأرض الواسعة ، وتشكو قلَّة السكَّان ، فإنَّ تخطيطها يأخذ بنظر الاعتبار حاجة المدينة الآنيَّة، مادام باستطاعة هذه المدينة أن تمتدَّ مستقبلاً لكفاية الحاجة المستقبلية، لهذا نجد أنَّ من وضع التصميم الأساسي لمدينة البصرة، جعل نُصبَ عينيه الحاجة المستقبلية، أي ما ستكون عليه المدينة بعد ألف سنة، دون أن يُلاحَظ أنَّ التصميم للمدينة يجب أن يتوخَّى حاجة المواطنين الآنيَّة، ما دام بالإمكان تلافي الحاجة المستقبلية من المساحات التي يمكن أن تُضَم إلى المدينة وتدخل في ضمن تخطيطها دون عناء. ولهذا وجدنا بعض المعوِّقات في تنفيذ التصميم الأساسي لأنَّ واضع التصميم ربَّما كان لا يعرف حاجة المدينة المُلحَّة و متطلباتها عند و ضع التصميم ممَّا أدَّى إلى عرقلة أعمال الإنشاء و التعمير .

لقد لاحظ المُشرِّع العراقي تلك الجوانب المُهمَّة. و تطمينا لمقتضيات المصلحة العامة أصدر قانون رقم 10 لسنة 1970 التعديل الثالث لقانون إدارة البلديات رقم 165 لسنة

1964 وأصبح بالإمكان و لفترةٍ محدودةٍ مخالفة التصميم الأساسي في المناطق التي لم يصلها تنفيذ التصميم بعداً كما تقرَّر الحفاظ على الأرض الزراعية، بقرارٍ أصدرته الحكومة ، و منع فرز الأراضي المغروسة بالأشجار داخل المدن، و هذا القرار بمعناه الضمني يعد إيقاف للعمل بالتصميم الأساسي في المواضع التي تدخل في ضمنها تلك الأراضي [1].

ومن هذا القرار المهم، و القانون الذى أشرنا إليه يَتَحتَّم علينا أن نرجع إلى التصميم الأساسي للمدينة لإعادة النظر فيه و تعديله أو إلغائه كي يستقيم التصميم مع قرار من أخطر القرارات وأهمَّها، كما أنَّ البناء خِلافاً للتصميم في البصرة خفَّف من أعباء المواطنين وأطلق لهم حريَّة التصرف بما يملكون. وهذا يؤكِّد أنَّ حاجة المواطنين و كفايتهم المستقبلية تَتَحمَّلها الأرض الجديدة التي هي خارج حدود التخطيط و هي البديل عمَّا تُحدِثُه المخالفة .

إنَّ التصميم الأساسي لمدينة البصرة عند تنفيذه يَتَطلَّب منَّا هدم المدينة و قَلعِها من أساسها وإعادة بنائها وفقاً لما خطَّطه مهندسو المدن، لنجد المركز المدني مثلاً على انقاض مناطق السكن، و المناطق الصناعية على الأرض المزروعة . . لأنَّ واضعي التصميم لم يلاحظوا أنَّ لهذه المدينة في أبنيتها القديمة ريازة خاصة مميَّزة لها، ولا يتم الحفاظ على تلك الريازة إلَّا إذا أبقينا القديم على قدمه مع إدخال التحسينات على ذلك القديم و نفذَّناها على و جه الإستعجال[2].

كما لم يُلاحظ واضع التصميم أنَّ ما خطَّطه من أرض من الصعوبة إلزام أصحابها بالتخطيط الجديد و خاصة إذا كان ما يملكونه أقلَّ من الحد المُقرر في المناطق التي جدَّدها التخطيط. . إنَّ المدينة القديمة فنٌّ هندسيٌّ قائم بذاته ولو أنَّنا هدَّمنا شطراً كبيراً منها فإنها

(1) إشارة إلى التصميم الأساسي المدينة الذي قَسَّمها الى مناطقَ سكن ممتازة ورابعة و ثالثة وثانية وأولى ... لم يُحدِّد مستقبل الأرض التي توجد ضمن إحدى المناطق وهي أقل من النسبة المُقرَّرة للمساحة.

(2) هدَّمنا شارع بشار الذى كان يمتاز ببنائه القديم و كثرة الشناشيلات فيه وقد تناول الهدم ـ أيضاً ـ بناء دار الچلبي الذى هو بحق من أنضر الدور و أجملها رِيازة ويقع في بقعة من أجمل بقاع المدينة.

ما زالتْ تحتفظ بطابعها المُمُيَّز . . لهذا نطمع من التخطيط الأساسي الحفاظ على هذا الطابع الأصيل كما نطمع أن تكون الشوارع المُنَفَذَة تصاميمها منطقة عمرانية واحدة كي يتم انسجام الشارع عند امتداده[1] . . . و بالتالي يمكن أن نأخذ من التخطيط الأساسي بعضه إذ ليس من المعقول أن لا ينفذ مدخل المدينة ليكون مُتلائِماً مع عظم هذه المدينة وماضيها المُزهِراً كما و من المعقول أن نأخذ من التصميم ما يمكن أخذه دون أن نؤثر على القديم؛ لأنَّ تنفيذ المخطَّط الأساسي لشارعين مهمَّين يتصل مدخليها ببعض يعدُّ من الضرورات السياحة لانَّ شارعي الجمهورية و الموفق وربطهما بجسر معيني[2] لتعديل استقامتهما عند ميدان البلدية مع تنظيم حدائق ساحل نهر العشاراً وتطهيره من الترسبات والأقذار العالقة به مع إعادة النظر في عرض الشارع الشمالي المقرَّر وأخذ ما يمكن أخذه لحدائق الرصيف من ذلك العرض مادام الشارع ممرَّاً واحداً ثُمَّ إعادة غرس حدائق الميادين في وسط الشوارعاً وإتمام ما يُسرَّع بتنفيذهاً ولم ينجز بعد هذه هو غاية ما يُؤخذ من التصميم القديم وعند ذلك سيكون مُربِكاً للتنظيم ومعجزاً لإتمامه. إنَّ التصميم الأساسي للمدينة ما هو إلَّا حفاظ على تراثها و تأريخها الحافل بالمآثر والأمجاداً كما أنَّه ذوق مُرهَف يبرز مفاتن هذه المدينة التأريخية و محاسنها، مدينة الشعراء و الكُتّاب، و يظهرها

(1) الشارع الرئيسي إذا تعدَّدتْ مناطقه ـ شارع 14 تموز والجمهورية والموفق. فإنَّ تنظيم جوانب الطريق يتبع المنطقة العمرانيَّة التي يخترقهاً فمثلاً في حالات بيع فضاء الطريق في منطقة يصح وآخر لا يجوز.

(2) إنَّ مدخل المدينة و شارعي الجمهورية والمُوفَق وربطهما بجسر معيني لتعديل استقامة الشارع الشمالي أمل يُراود الجميعاً و نرجو أن يَتَحقَّق هذا الأمل.

بالمظهر الذى يليق بها[1] . أخيراً نقول إنَّ تخطيط أيَّة مدينة يجب أن يُحقِّق مكانتها ويبرز تراثها و مفاتنها و يضفي عليه لمسات من الذوق و الفن و الإبداع .

المقالة السادسة

طالب النقيب.... من تأريخ العراق المعاصر

لا يمكن لباحثٍ أو مؤرِّخٍ، أن يكتب في تأريخ العراق المعاصر، دون أن يذكر السيِّد طالب النقيب ودوره في الأحداث، لأنَّه أوَّل مَن وَضَعَ بصماته عليها وفي بدأ مسيرتها،

(1) إنَّ ماضي هذه المدينة حافلٌ لأنَّها أولى المدن العربية التي شُيِّدتْ في الإسلام وفيها موضع معركة الجمل وفيها المسجد الجامع الكبير. والمدينة بحق مدينة الخلفاء ومثوى خيرة صحابة الرسول وأنَّها بلد الخليل والجاحظ وأبي الأسود الدؤلي والمُوفَق والفرزدق و غيرهم من الأعلام إنَّها مدرسة العلم و الأدب.

إذا ما حدَّدنا فترة البدء بإعلان الدستور العثماني للمرَّة الثانية 1908م، وما تلاه من نشاطٍ قومي عربي، فبدأ فيه السيد طالب مركز الصدارة للتوصّل إلى تحرير البلاد العربية من نير التبعيَّة والاستبداد المتمثل في جمعية الإتحاد والتَرَقِّي التي هَيمَنَتْ على واقع الدولة العثمانية وكانتْ مُقرَّرات مؤتمر باريس عام 1913م نهجاً لتطلعات أحرار العرب في شتّى أقطارهم، من هنا اعتمد السيِّد طالب ورفاقه تلك المقرَّرات عندما عُقد مؤتمر (الفيلية) [أي منطقة أبي الخصيب] في آيار من العام نفسه، وبه أيَّد المؤتمرون ما تمَّ الإجماع عليه في مؤتمر باريس، والمناداة لتحرير البلاد العربية والدعوة للَّامركزيَّة، وعند عدم تحقيق ذلك الهدف أجمعوا على أن يَستقلَّ العراق عن الدولة العثمانية لمواجهة التحدِّيات التي تحيط بالمنطقة بعد أن أخذ التغلغل الإنكليزي يتزايد في الخليج العربي، وإسقاط معاهدة أرضروم الثانية عند الإعتراف باستقلال العراق من قبل المجتمع الدولي الذي يعدُّ إقليم عربستان جزءاً من العراق، وأرجأ البحث في موضوع (الإتحاد)[1] الذي يشمل البصرة والكويت وإمارة عربستان ...

إنَّ هذه الأحداث وما سبقها، ابتداءً من إعلان الدستور الذي أشرنا إليه يمكن أن تُحدِّد نقاط البدء التي نَتلمَّس فيها بصمات السيد طالب النقيب فضلاً عن علاقته الحميمة التي لم تنقطع من أجل وحدة النضال العربي بين ولاية البصرة التي هي أولى المُدن التي عَرفتْ الجمعيات السياسيَّة، ومنها امتدَّتْ لتشمل القطر العراقي ملتحمة مع الجمعيات العربية الأخرى، كلُّ ذلك معناه وحدة الفكر والهدف اللَّذين يتوخَّاهما السيِّد طالب في مسيرة التأريخ .

إنَّ كتابة التأريخ الذي نعنيه مَرَّ بثلاثةِ عهود هي:

(1) يُلاحظ كتاب (التأريخ السياسي لأمارة عربستان العربية بين عامي 1897م ـ 1925م) للأستاذ الدكتور مصطفى القادر النجار .ص41 حاشية 4.

أوَّلاً: العهد العثماني الأخير عند سيطرة جمعية الإتحاد والترقِّي على الحكم وجنوحها إلى سياسية التتريك .

ثانياً: عهد الإحتلال البريطاني للعراق من الحرب العالميَّة الأولى.

ثالثاً: عهد تأسيس الحكومة العراقيَّة المؤقَّتة وبداية الحكم الوطني. هذه العهود الثلاثة هي التي ترسم المدخل الأساسي في دراسة تأريخ العراق المعاصر، لهذا يلزمنا التَجرُّد في كتابة تأريخها لاستخلاص الرأي ولتثبيت الوقائع....

فإذا ما أوردنا مثلاً حادث اغتيال فريد بيك قائد الفرقة الثالثة، العثماني ومصطفى نوري مُتصرِّف لواء المنتفك في شريعة نهر العشار في مركز ولاية البصرة ، التي كانتْ ذات أبعاد ومغزىً سياسي يمثِّل الصراع بين الجانبين العربي والتركي، فهناك مَنْ يجتهد في تفسير هذه الحوادث إلى أنَّها حوادث عابرة[1] وقطع طريق .. والحقيقة إنَّ هذا الإجتهاد ربَّما يُضيِّع على الأجيال القادمة مُسَبِّبات هذه الحادث وبواعثها، ويختلط عليهم الأمر.. كما نجد أنَّ بعض من كَتَبَ في تأريخ الأحزاب والجمعيات السياسيَّة في العراق والتي تمَّ تشكيلها[2] في العهد العثماني، منهم من نسبها إليه....في مذكَّراته الشخصيَّة ، وعنه كُتِبَ تأريخ تلك الأحزاب. وبالرغم من أنَّ المذكَّرات الشخصيَّة لا يمكن أن تُنزَل مَنزِلةَ الوثيقة. بل إنَّ بعض الوثائق لا يمكن الركون إليها إذا ما خالفها ما وَقَعَ فِعلاً. ومن المعلوم أنَّ الأحزاب العربيَّة التي تَشَكَّلتْ في أواخر العهد العثماني كانتْ ولاية البصرة السبَّاقة في تأسيسها. وكان لها دورها المُميَّز في توجيه الفكر القومي والدعوة إلى الوحدة العربية ..

---

(1) آفاق عربية عدد (5) في كانون الثاني سنة 1979م (أضواء... من أوراق طالب فقره 4).

(2) يلاحظ كتاب (غمرة النضال) للأستاذ سليمان فيضي المحامي وكذلك ما وَرَدَ في (أوراق طالب مشتاق) التي نشرها الدكتور حازم مشتاق وعلَّق عليها ـ آفاق عربية عدد (5) في كانون الثاني سنة 1979م فقرة 4من المذكرات.. وكذلك الأستاذ عبد الرزاق الحسني في ملفَّة الأحزاب العراقية في العهد العثماني .

ثُمَّ نجد مَنْ اجتهد[1] خلافاً لما ذهب إليه السيِّد طالب النقيب وتشدِّده ضدَّ الرغبات الإنكليزيَّة ما قبل الحرب العالميَّة الأولى وعند مفاوضته على الثورة ضدَّ (الإتحاديين) وما أبداه من رأي. لأنَّ ذلك من التأريخ وليس(تشكيكاً) بذات السيد طالب، وهذه الوثائق تطابق وقائع الأحداث وما جرى من تفاوضٍ مع عزيز علي المصري حول الموضوع نفسه، وهكذا وجدنا بعض من كَتبَ مُجتَهداً عن فترة أواخر العهد العثماني عند تَسلُّط الإتحاديين وكذلك فترة الإحتلال البريطاني بالحرب العالميَّة الأول، وعند تأليف الحكومة المؤقَّتة وبداية تأسيس الحكم الوطني.

إنَّنا نعتقد إنه من الضرورة بمكان أن يُحاكَم الخبر وتُناقَش الوثائق ثُمَّ نأتي على كتابة التأريخ، ولو أن هناك مَنْ انبرى لتفسير بعض الوثائق عند كتابة تأريخ العراق المعاصر، لأنَّ الكثير منها يحمل متناقضاتها، إضافة الى ما وقع من أحداثٍ تخالف ما وَرَدَ بتلك الوثيقة أو الوثائق وتطعن صحتها وبخاصة الوثائق البريطانية .

لقد تناولتْ الوثائق البريطانية مسيرة الرجل (السيد طالب النقيب) بالمنطق الذي يريده الإستعمار وصانعو تلك الوثائق، ومن غير المُستَغرب ألَّا يُكيل الإنكليز الإتهامات بالكيفيَّة التي يُريدون لِمَنْ لم يُذعن لمشيئتهم قبل إنهيار الدولة العثمانيَّة، وعند احتلال مدينة البصرة وسقوطها بأيديهم، وموقعه حِيال مخطَّطاتهم أثناء ما تبوأ المسؤولية كوزير للداخلية[2] في وزارة السيد عبد الرحمن النقيب الأولى.

---

(1) يراجع: كتاب (البصرة في عهد الإحتلال البريطاني 1914-1921م) لمؤلفة الأستاذ حميد حمدان التميمي وهامش 54 من الصفحة 116).

(2) لم يكن طالب النقيب في مركز المسؤولية عند بدء ثورة العشرين أو عند انتهائها إذ أنَّ آخر بلاغ صدر يشير إلى إنتهاء الثورة في 26 تشرين الثاني سنة 1920م ـ وأنَّ وزارة عبد الرحمن النقيب أُلِّفتْ في الحادي عشر من تشرين الثاني 1920م ـ يُلاحظ: الثورة العراقية الكبرى ـ للأستاذ عبد الرزاق الحسني) .

ومن المصادفات أن ألتقي بالدكتور فاروق العمر قبل أن ينشر بحثة[1] عن (السيد طالب النقيب .. وثورة العشرين على ضوء الوثائق البريطانية) وكان حديثنا قد تناول الوثائق البريطانية عموماً، وكانتْ وجهة نظره أنَّ تلك الوثائق لم تُوضَع إلَّا لمشيئة الإستعمار وخدمة لرغباته، وتَمَنَّيتُ عليه أن يكتب عن السيد طالب النقيب وتُفنَّد تلك الوثائق لأنَّ الاستعمار البريطاني مدعي بوثائقه ولا يصح لمدَّعي أن يصنع الدليل لنفسه، وبخاصّةٍ أنَّ ما يُكتَب من قبل الدكتور العمر إضافة إلى كونه قد حَصَلَ على وثائقَ تُؤيِّد موقفه بالدفاع عن السيد طالب النقيب وتأريخه الفذ، فإنَّه ابن منطقة أنجبتْ السيد طالب النقيب وعايش معاصريه .. ثُمَّ تناولنا الحديث عن (كتاب غمرة النضال) وهو مذكَّرات المحامي سليمان فيضي وقد اعتبرها الأخ الدكتور من عداد الوثائق لأنَّها لم تُخطَّئ بالردِ عليها .. لقد استوقفني ما قرأته من بحثٍ، وما تذكَّرته من حديثٍ بيني وبين الأخ الباحث قبل نشر بحثه، وقبل أن تكون الوقائع المحرَّفة وثائقاً، وبعد أن مرَّ أكثر من نصف قرن على وفاة من عناه البحث وسينطوي هذا القرن، ومعه ينطوي معاصرو تلك الحقبة، أو الذين تفتَّحتْ أعينهم على معاصريها، وعرفوا عنهم أحداثها ووقائعها ومن ثَمَّ ينقطع حبل التواتر ويبقى للأجيال القادمة قراءات في التأريخ بعضها مذكَّرات أملتها (الأنا) إذ كيف يَتَوصَّل الجيل القادم إلى الحقيقة وسط هذا الركام ... أجد أنَّ الأمانة تقضي أن نُوصِل الخبر إلى أجيالنا القادمة خالياً من الغرض، وبخاصة إذا ما علمنا أنَّ الوثيقة البريطانيَّة لم تُحرَّر إلَّا لمصلحة كاتبيها، كما أنَّ ما أُرِّخ إذا لم يُمحَّص لا يمكن اعتماده والركون إليه، إذ يلزم أن تحاكم الرواية ويُحاجَّج بالبرهان والإجتهاد، وعند سلامة ما وَرَدَ يعتمد ليكون دليلاً للأجيال القادمة .

(1) نُشِرَ بحث الدكتور فاروق العمر في مجلة آفاق عربية عدد 3 السنة الثالثة الصادر في تشرين الثاني سنة 1982.

إنَّ ما هَدَفَتْ إليه الوثائق البريطانيَّة، في موقف طالب النقيب من ثورة العشرين وقياداتها، مثَّل أمراً مردوداً ... إذ لو لم يكن للسيد طالب سوى مذكَّرته[1] التي رفعها إلى مجلس الوزراء في 29/ تشرين الثاني / 1920 وطلبه إعادة جميع (المَنفِيّين) وإعلان العفو العام عن رجالات ثورة العشرين لكفاه فخراً أن تلك المذكَّرة تُسجِّل موقفاً مهماً، وبإباء، إذ أنها من المُبرِّرات التي حَدَتْ بمخطِّطي مؤتمر القاهرة المُنعَقِد في شباط سنة 1921م إبعاد ونفي الرجل الذي وَقَفَ موقفاً واضحاً من الاستعمار .. لأنَّه رجلٌ من تأريخ العراق المعاصر ..

المقالة السابعة

نهر العشار* أصل نشوء مدينة البصرة الحديثة، وله حق بذمتها

يتزامن نشوء (مدينة البصرة الحديثة)، مع شق نهر العشار وحفره، أو أن كليهما وجِدَ بعد خراب (البصرة القديمة) على أيدي المغول إثر اجتياحهم لها، والذي استمرَّ زهاء

(1) يُراجع: تأريخ الوزارات العراقية لمؤلفه الأستاذ عبد الرزاق الحسني الوزارة الأولى.

* أورد الدكتور محمد طارق الكاتب بكتابه (شط العرب وشط البصرة والتأريخ) بحثاً قيّماً عن أنهار البصرة، وذهب إلى أنَّ نهر العشار هو نهر الأبلَّه، مُعتَمِداً على ما قام به المؤرِّخون من حساب المسافات، وتوصَّل إلى رأيه في أنَّ نهر العشار هو نهر الأبلَّه. غير أنَّنا نجد أنَّ المصادر التي اعتمدها المؤلف ابتداءً من ابن حوقل في كتابه (صورة الأرض) وياقوت الحموي (معجم البلدان) وأبو داود في(سُننِه) وناصر خسرو في (سفر نامة) ولسترنج(بلدان الخلافة الشرقية) والمَقدِسي وسرا بيون وابن بطوطه في رحلته (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وغيرهم، كلُّها تناقض رأي الدكتور الكاتب في اجتهاده، بغض النظر عن حساب المسافات، وإنَّ ما أورده المؤرِّخون شهادات مُلزمة عند كتابة التأريخ. و لا يمكن أن نورد هنا تلك التناقضات وبهذه العجالة، غير أنَّنا نقول إنَّ نهر العشَّار

تسع وثلاثين سنة 756هـ - 795هـ، 1355-1395م وعلى الرغم من الفتك والدمار وما لحقها من بطش تيمور لنك ، وتَفشِّي الأوبئة فيها ، أبى المهاجرون من أهلها، إلّا أن يحفروا نهراً [1] يتخذونه مَورِداً يَستَقون منه، ويغرسون ما يَأكلونه وهم على مَقربةٍ من مصرهم الأول الذي هاجروا منه، مُعلِّلين عودتهم إليه بعد أن تنقشع الغُمَّة بإنحسار الموجة المغوليَّة ... ولم يُعلَّل سبب إطلاق تسمية (العشار) على هذا الجدول الذي تَمَّ حفره .

وفي بداية القرن التاسع من الهجرة النبوية الشريفة، وفي مطلع القرن الخامس عشر للميلاد (سنة 800هـ ـ 1397م أو 810هـ -1407م) نَزَحَ مَنْ بَقيَ على قَيد الحياة من الناجين من هول التَعسُّف من أهالي البصرة القديمة، إلى موقع النهر الجديد، وأنشأوا مساكنهم[2] هناك إيذاناً منهم بإنشاء مدينة البصرة الحديثة.

ليس نهر الأبله ولا يمكن أن يكون هو، كما إنَّ العشار تسمية أطلقتْ على ما حُفِرَ من نهر نسبة إلى (العشار) وهو جمع (عشراء) وهي من الأبل ما مضى لحَملِها عشرة أشهر فإذا وَضَعتْ لتمام سنة فهي عشراء وهي أحسن الإبل وأنفسها، ويمكن أن تكون تسمية النهر نِسبة إليها لا إلى ما يُجبى من ضرائب (العشر) التي فُرضتْ بالإستيفاء عند نفاد القوانين لأنَّ الموقع هذا كما ذهبتْ إليه سنن أبي داود، الذي كتب بالقرن الثالث الهجري، عند إشارته إلى مسجد العشار في قرية الأبلَّه وما يلي النهر ليس معناه أنَّ نهر الأبلَّه هو نهر العشار، بل نعتقد أنَّ العشار موقع لمرعى لتلك الإبل نُسب إليها

(1) جريدة الزوراء عدد 566في21/ شعبان / 1292هـ .

(2) تأريخ البصرة العُظمى (مخطوطة) للمرحوم الشيخ عبد القادر باش أعيان العباسي / الجزء الأول الباب الثالث ــ الفصل الخامس في ذكر محلَّات المركز بين نهري الخورة والخندق أورد المؤلف عشر مَحلَّات منها محلة المشراق وهي من المَحلَّات القديمة في البصرة الحالية عند أول تأسيسها بعد خراب البصرة الأولى .. في أوائل القرن التاسع الهجري سنة 800/ 810هـ/ 1397 / 1407م .

إنَّ هذا التزامن بين شقِّ النهر ونشوء المدينة معناه أنَّ النهر كان بداية لتأريخها الجديد ولو أنَّها بقيتْ تعيش امتداداً لفترة البصرة القديمة المظلمة[1] التي بدأ ضمورها في القرن الثاني لتأسيسها.

لا نريد هنا أن نكتب قصة التأريخ وأحداثها إلَّا بالقدر الذي نكتبه عن نهر العشار وأصل نشوء مدينة البصرة الحديثة، والذي له حَقٌّ بذمتها ... بعد أن خَلَقَ أرضاً جديدة لتُشيَّد عليها مدينة جديدة، وأصبح النهر شريان حياتها ولم يبخل أبناء المدينة الجديدة في إدامة النهر والعناية به، لأنَّه موردٌ لمعاشهم، عُرفتْ المدينة به وعُرف بها، وامتدَّتْ شبكة الإرواء للأرض المُستَصلَحة بعد أن رُبِطَ هذا النهر بالأنهر الرئيسيَّة الموازية له بأنهر فرعيَّة تتغذَّى بمياه المدِّ الصاعد ويُغذِّي هو الآخر النهر الموازي له الذي يليه، وعند عملية الجزر، وتبعا لإنحدار السهل وانحدار المجرى الرئيسي باتجاه شط العرب، فإنَّ الأنهر الفرعية شمال النهر تنحدر مياهها إليه، وتنحدر مياه النهر بالأنهر الفرعيَّة الجنوبيَّة باتجاه النهر الموازي الآخر، فَضلاً عمَّا يُفرغه المَذَبُ الرئيسي في شط العرب فإنَّ عملية المدِّ والجزر تجريان مَرَّتين كلَّ أربع وعشرين ساعة يومياً .

ويَتجدَّد الماء إثناء المد والجزر بدقة فرضتها الطبيعة، ومهارة صانعي شبكة الإرواء وخبرتهم، ويُضاف إليها ما أولوه من عنايةٍ تاليةٍ للتطهير ورفع الطمي وتعديل أكتاف تلك الشبكة المُمتدَّة من النهر.

إنَّ الفترة المحصُورة بين تأريخي 796هـ ـ1286هـ / 1396م ـ 1869م، اعتباراً من انحسار المدِّ المغولي ولغاية نفاذ القوانين التي حملها مدحت باشا والي بغداد إلى سنجق البصرة ، لم تمتد يد حاكم خلالها لتطهير نهر العشار، وإنْ وجِدَتْ هناك أعمال تطهير فإنَّها لا تتعدَّى جهد مَنْ يعنيهم ذلك النهر لتأمين عملية الإرواء للبساتين أو للشرب. وبَقيَ حال النهر على ما كان عليه مدَّة تزيد على أربعمائة وإحدى وتسعين سنة منها مئة وستون

(1) الفترة المُظلمة التي مرَّتْ على البصرة استمرتْ أكثر من أحد عشر قرناً وإنتهتْ عندما وضعتْ القوانين موضع التنفيذ في ولاية البصرة في 4 / شوال / 1286هـ / 1869م. يُلاحظ ما كتبناه في مجلة الخليج العربي الصادر عن مركز دراسات الخليج العربي في البصرة / العدد الخاص بالبصرة.

سنة كانت البصرة خلالها بحوزة حُكَّام لا يَمتُّون لها بصِلة مروراً بحكم قره قوينلو والإحتلال الصفوي .أمَّا فترة بداية الحكم العثماني (945هـ / 1538م) ، فكان الإقطاع والضمان وفقدان الأمن والاستقرار ، وعدم وجود المؤسسات، كل هذا أبقى أمر تطهير نهر العشار وصيانته وحفره لِمَنْ لهم مصلحة فيه[1] وكان أمد هذه الفترة يبلغ ثلاثمائة وإحدى وثلاثين سنة . غير أنَّ الحال قد تَغيَّرتْ، عندما وُضِعَتْ القوانين موضع التنفيذ، بعد زيارة مدحت باشا إلى البصرة حاملاً القوانين إليها في 4/ شوال / 1286هـ / 1869م فاضطلعتْ البلدية بواجباتها، وكان على رأسها تأمين سلامة مياه الشرب، والإعتناء بالمواصلات، وتَحقِيقاً لتلك الواجبات وتنفيذها اقتضى الحال إلى الإعتناء بمصدرهما وهو نهر العشار .. إذ شَرَع بعملية تطهيره وكريه [2] وأنجز ذلك في ولاية عبد الله باشا 1295هـ / 1878م وهذه أُولى عمليات التطهير والكري والحفر للنهر بعد أن مضى أكثر من خمسة قرون على شقِّه وحفره .

ومن البديهي أن تعتني المؤسَّسة البلديَّة بهذا النهر وهي في بدء تشكيلها لأنه عصب حياة المدينة ومعاشها، وإنَّ أيَّ انسداد للمجرى معناه قطع مياه الشرب، وانقطاع المواصلات التي تربط شطَّ العرب حيث رسو السُفن المُحمَّلة بالبضائع لتسهيل ايصالها عن طريق النهر إلى دائرة الكمرك داخل المدينة، وغيرها من المنافع في الإرواء الزراعي .

إنَّ أعمال التطهير تجري عن طريق (الحشر) السخرة لمصلحة المسخّرين وليس امتهاناً لبشرية أولئك العاملين.. لأنَّ السخرة هنا معناها تنظيم البلدية للقوى العاملة من أصحاب المصلحة في تطهير النهر. لذلك نَظَّمتْ البلدية تلك القوى العاملة كمجموعةٍ

(1) جريدة بصرة عدد(138) و 140 الصادرة في 9/ ربيع الأول / و23/ ربيع الآخر / سنة 1310هـ.

(2) المصدر السابق عدد 519 في 15 / رمضان / سنة 1327هـ .

واحدةٍ تحت إشرافها، مع تهيئتها لكلِّ الوسائل من طعامٍ وأدوات حفر متاحة لديها مع وسائط النقل الحيوانيَّة المُتيسِّرة لهم آنذاك.

لقد كانتْ عملية تطهير نهر العشار وحفره أول المشاريع التي باشرتها البلدية في عهد تأسيسها الأول .. أمَّا التطهير الثاني للنهر فقد تمَّ بعد مضي ما يقارب خمس عشرة سنة من التطهير الأول للنهر ، إذ قامتْ المؤسسة البلدية مع المعنيين من أصحاب المصلحة بالتطهير والحفر وذلك في 1310هـ 1892م[1] كما جرى التطهير الثالث بعد سبعة عشر عاماً من التطهير والحفر الثاني، إذ قامتْ بلدية البصرة بإجراء عملية التطهير وكري حوض النهر تطهيراً شاملاً بعهد ولاية راقم أفندي وذلك في 1327هـ ـ 1909م وقد أُلِّفتْ لهذا الغرض لجنةٌ عُرِفتْ بلجنة تطهير [2] نهر العشار، تم تشكيلها على أعلى مستوى لأهمية العمليَّة .. وقد حرص وكيل الوالي والبلدية على أن لا يكون التطهير ماسّاً بالملاحة والشرب، إذ أُرتُئِيَ أن يُقسَّم النهر على أربع مراحل لأغراض عملية التطهير ، ومُنح العمل بـ(اللَّزمة)، وقد أُنجز خلال السنة من الاضطلاع به وافتتح [3] لإستقبال المواصلات النهرية ولأغراض الإرواء والشرب يوم السبت الموافق منتصف ذي الحجة سنة 1327هـ باحتفالٍ رسمي كبير .. ويمكن أن يكون دور ملتزم عملية التطهير تهيئة عُمَّال إضافيين ووسائط لنقل الطمي وتهيئة الأكل للعاملين من المُسخَّرين من فلاحي المُلّاك المُستَفيدين من عملية التطهير .

لقد كان نهر العشار قيد اهتمامات الحكومة المحلِّية لولاية البصرة، حتى أنَّها لم تألُ جهداً عندما وجدتْ الضرورة في فتح (جادة الرشاديَّة)المحاذية لضفَّة النهر الجنوبيَّة ،

(1) المصدر السابق عدد 140 في ربيع الآخر سنة هـ .

(2) كتاب بلدية البصرة الصادر عن مركز دراسات الخليج العربي ص 120 .

(3) المصدر السابق ص.

وأن تُنشئ إثني عشرَ جسراً وقنطرة [1] على مداخل الأنهر الفرعيَّة تسهيلاً لمدِّ الجادة المذكورة، وعدم قطع الماء عن الأنهر الفرعية التي توصل نهر العشار بنهر الخورة، وشيَّدتْ أكتاف الجسور بالصورة التي تسمح بمرور الزوارق وحمولاتها من تلك النافذ.. وما زالت تلك القناطر والجسور باقية في مواقعها على الرغم من اندثار الأنهر المُتفرِّعة على النهر .

لم تنقطع أهميَّة نهر العشار بالنسبة للمدينة، سواء بمواصلاتها بين قصبة العشار أم مدينة البصرة ، رغم تكاثر استعمال وسائط النقل البرية، وكذلك لم يُستَغنَ عنه كمورد من موارد الشرب بعد مد أنابيب إسالة الماء للاستعاضة عن مياهه بها .. كما بَقيَ مورد بساتين النخيل والمزارع التي كانتْ تُحيط به وبالمدخل، ولو أنَّ الأنهر الفرعيَّة أخذتْ بالإندثار نتيجة لعمليَّات الردم والإفرازات غير المدروسة التي أتتْ على الأراضي الزراعيَّة، دون إدراك لأهميَّة تلك الأنهر وتأثيرها على حياة المدينة .. لم تنقطع أهميَّة النهر للمدينة من الناحية التأريخ التي أشرنا إليها، أو من الناحية الصحيَّة التي يجب أن يبقى النهر محلاًّ لتصريف المياه الجوفيَّة عند تجديد مائه بدورةٍ كاملة أثناء المدِّ والجزر دون انقطاع.. وعلى الرغم من هذ الأهميَّة نجد الإحتلال البريطاني سنة 1914م قد أهمل هذا النهر كليَّاً، وتركهُ دُون تطهيرٍ أو تنظيف، مع أنَّ هناك مقترحات قد ناشدتْ بإحياء النهر وتنظيمه كان قد أوردها مجلس الأشراف دون أن تجد سبيلاً للتنفيذ .. غير أنَّ إعادة تشكيل بلدية البصرة للمرَّة الثانية، بعد تأليف الحكومة العراقيَّة المؤقَّتة في 11/ ت2/ 1920م، أسهم في إلتفات البلدية إلى نهر العشار في السنوات الأولى من دورة مجلسها، عندما عُرِضَ على المجلس اقتراح [2] يُطالِب به أصحابه ردم النهر أو تطهيره. نُوقِشَ هذا

(1) المصدر السابق جادة الرشادية ص 127 .

(2) قَرارَي المجلس البلدي المُرقَّمين 14 جلسه 58 في 4 جنوري سنة 1923 ، و 12 جلسة 70 في 17 نوفمبر 1923.

الموضوع من قبل المجلس البلدي وتقرَّر بالأغلبيَّة رفض مبدأ (الردم) والعمل على تطهير وحفر النهر ، ونَسَّبَ أن تكون أعمال التطهير بواسطة (الحَشْر) وأن تتحمَّل البلدية المصاريف مناصَفةً بينها وبين الواردات العامة .. ومن فحوى ما دار في اجتماع المجلس البلدي وجدنا أن هناك رأياً مخالفاً لتطهير النهر، أي أنَّ الإقتراح لو كان مع الردم للأكثريَّة، وقِلَّته مع التطهير، لَما بقي وجود لهذا النهر.. فكم جابهتْ المدينة من المشاكل عندما رُدِمتْ الأنهر الفرعيَّة، فكيف بها وهي تواجه ردماً للنهر الرئيس! وتعزيزاً لموقف الأكثريَّة للمجلس البلدي التي وقفتْ ضدَّ ردم النهر، تقدَّم أصحاب المصلحة من المواطنين في مدينة البصرة، طالبين الإسراع بتطهير النهر وكريهاً وأبدوا استعدادهم لتَحمُّل نفقات التطهير بالقدر الذي يَتحدَّد.. وقد ثبَّتتْ البلدية والمجلس البلدي الرأي بضرورة تطهير عموم النهر وكريه

وأنَّ ما تَجمَّع في صندوق البلدية من مبالغَ مُستوفاة كرسوم رصيف (أجور) مُهيئَة للدفع لأغراض تلك العملية، وأن مقدار المبلغ هو (15600روبية) ، مضافاً إليه ما يَتجَمَّع من رسمٍ إضافي يتراوح بين خمس عشرة روبيَّة وعشرين روبيَّة عن كل جريب يُسقى بماء النهر يُستوفى من المالكين على أن تَتَحمَّل الواردات العامة بقيَّة المصاريف .

إنَّ ما تستوفيه البلدية من رسوم وضرائب تُصرف للغرض الذي استُوفِيتْ من أجله، أي متراكمات أجور الرصيف لنهر العشار ، وما تَجَمَّع من موارد في الميزانيات السابقة كانتْ كلُّها مُهيأة للصرف على عملية التطهير، لهذا فإنَّ موارد سنتي الميزانية (1922 / 1923و1923/ 1924) وضِعتا لهذا الغرض، وإنَّ اجراءات البلدية كانتْ جادَّة ابتداء من موقفها من التمسُّك بالإبقاء على النهر ورفض مبدأ الردم، وما اتخذته من خطواتٍ[1]

(1) قرار المجلس البلدي المُرقَّم (5) جلسة 72 في 11 ديسمبر 1923. وكذلك القرارات المُرقَّمة و11و21 المُتخَذَة بجلسات المجلس 80و82و95 في 12/ جون/ 1924و24/ آب/ 1924و20/ حزيران/ 1925على التوالي .

سواء بتهيئة ما تَمَّ جمعه لأغراض الصرف على عمليَّة التطهير والحفر وما تطلَّبته من معلومات من المختارين حول أسماء المالكين وما يملكونه من (أجربة) لغرض فرض رسم أو أجور لإطفاء ما ينقص من كلفةٍ مُتحقِّقة عن الأعمال التي سيباشر بها .. لقد فاتحتْ المهندس الاجرائي للأشغال لتَتبيِّن ما سيُكلِّف من مبالغ .. وبعد ورود المعلومات الإحصائيَّة التي تُبيِّن المساحة التي تُروى من نهر العشار وأنها تبلغ 691 جريباً من النخيل وإنَّما قدَّره المهندس الاجرائي لأعمال الحفر والتطهير بـ(ـ/ 218448روبية) ، وأنَّ ما تقرَّر استيفائه عن كل جريب خمس عشرة روبيَّة، فإنَّ المُتجمِّع من جباية الرسم المفروض والمبلغ المُتحقِّق بالصندوق هو مبلغ ـ/ 25965 روبية ، وهذا ينقص عمَّا قدَّره المهندس الإجرائي بكثير؛ فطالبتْ البلدية أن تأخذ الحكومة على عاتقها دفع المتبقي .. وقد أجابتْ المتصرفية برفع ما يصيب سعر الجريب من تكاليف إلى مبلغ (خمسين روبية) وأن يُعطى الأمر بـ(اللَّزمة) وعلى الرغم من كل هذه الجديَّة لم تحظ من الواردات العامة بتخصيص أي مبلغ لأغراض التطهير والحَفر مما اضطَّرت البلدية الى أن تُرجئ الموضوع إلى حين تَيسُّر المال اللَّازم .. وأصرَّتْ بكلِّ قراراتها ودونَ تراجع على أنَّ حفر جزء من النهر يُؤدِّي إلى تجمع المياه وركودها بالموقع المَحفُور ومن ثَمَّ يُؤدِّي إلى أن يكون آسناً في منطقة الحفر، ثُم إنَّ تعليق أمر تطهير النهر على ما تدفعه مديريَّة الواردات العامة أمرٌ هو الآخر فيه نظر لأنَّ كثيراً من واردات البلدية ذهبتْ إلى تلك المديريَّة كضريبة الأملاك التي استُقطعتْ من الموارد البلدية عند نفاذ قانون ضريبة الأملاك لسنة 1923م، وبموجبه شحَّتْ مواردها بعد أن توسَّعتْ واجباتها وإلتزاماتها .. وبالتالي فإنَّ الواردات العامة التي رفضتْ التخصيص لأغراض التطهير والحفر- فضلاً عن رفض مبدأ السخرة لتغطية النقص- يمكن أن يكون رفضها جهلاً منها لأهميَّة النهر بالنسبة إلى مدينة البصرة وبقي الأمر في تطهير النهر وحفره مسكوتاً عنه، حتى بعد أن أُثير موضوعه أمام المجلس البلدي من قبل أحد أعضائه آنذاك وهو السيد عبد أفندي النشوان بتأريخ

2/ت2/ 1929م، وقد أُيِّد من قبل جميع الأعضاء وأُرجئتْ المبادرة إلى حين توفر الإمكانيات إلى تطهير عموم النهر وكريه في أوائل سنة 1932م.

لقد تم الحفر والتطهير بالوسائل المُتاحة والمُتعارف عليها آنذاك، إذ استُعمِلَتْ (المِسحاة) اليدويَّة في الحفر و(الدواب) في نقل ما تَخلَّفَ من أطيان حتى وصل الحفر إلى أعماق النهر المبلَّطة بالقار.. ولملافاة الحاجة المُلحِّة إلى مياه الشرب تمَّ نصب عدد من حنفيات المياه [1] للإرواء في كل من محلّات البصرة والعشار تسهيلاً للشرب والغسل عند انقطاع المياه من النهر حين المباشر بعمليَّة الحفر والتطهير .

لقد بُوشر بالعمليَّة وبنجاحٍ، وقد أعطتْ [2] البلدية نقل الأطيان المُتخلِّفة على جوانب النهر بالإلتزام لردم العرصات الأميريَّة المُنخَفِضة المُحاذية للنهر لغرض رفع مستواها .. ولم يُطهَّر نهر العشار بعد ذلك التأريخ ، وانقطعتْ العناية به، ورُدِمتْ الأنهر [3] الفرعية المُوصِلة له. بالأنهر الرئيسية الأخرى، وكان آخر ما رُدِم منه هو فرع مهم من فروعه عند

---

(1) قرار المجلس البلدي المُرقَّم 84 جلسة 8في 14اب / 1932.

(2) مُنِحَ تعهد نقل الأطيان بكتاب بلدية البصرة 3102في 11/ نيسان / 1932المُوجَّه إلى قائمقامية شط العرب بعهدة متعهد تنظيفات البلدية صيوان الياهو بملغ ـ/ 1954ديناراً وأُعطي إلتزام حفر النهر إلى المقاول أحمد جلعود.

(3) من حيثيات قرارات ردم الأنهر الفرعية، هو ما ينجم عنها من ضررٍ صحي ، بعد ما تَسلَّط البناء على مقتربات تلك الأنهر، وأصبحتْ محلَّات لتصريف المياه القذرة، أو لأن البلدية تروم اتخاذ النهر طريقاً لتخفيف الأعباء الماليَّة عند الاستملاك أو لبيعه كفضلاتٍ متروكة للمجاورين. وأن الأنهار التي رُدمتْ خلال الفترة بين 6/ 1/ 1934م لغاية 28/ 9/ 1954م هي كل من نهر المجَصَّة ، ونهر كري مكنزي ، ونهر المهدي في التحسينية، ونهر جسر الملح، ونهر المالية، ونهر بريهه، ونهر الگزاره، والأنهر المُتفرِّعة عن نهر العشار (الضفة الشمالية)، ونهر العروة، ونهر المناوي .. تُراجع ـ قرارات المجلس البلدي المؤشرات بجلسة (1) في 8/ كانون الثاني / 34 والجلسة 59 في 4/ 11/ 44 والجلسة 19 في 27/ 3/ 45 والجلسة 21 في 7/ 5/ 46والجلسة 28في11/ 7/ 950، وتقرير المهندس البلدي 1784 في 28/ 9/ 39/ و1340 في25/ 6/ 53.

فتح شارع (التنانير)، كما تَمَّ سابقاً ردم فرع مهم والذي مازالت آثاره باقية غير مُندَرِسة وهي ممتدَّة من محلَّة الباشا(قرب المجرية) حتى محلَّة القبلة وإلى غاية إلتقائه بنهر الخورة، وكان هذا الفرع من السِعة بمكانٍ وشُيِّدَ عليه جسر أُطلق عليه (جسر الزبير) لتنظيم حركة المرور بشارع مدخل المدينة .. ولقد رَدَمَتْ البلديةُ أكثرَ من واحد وعشرين فرعاً تُوصِل النهر بنهر الخندق عند فتحها الشارع الشمالي المحاذي لنهر العشار ، وكان قد تَمَّ قبل ذلك أن ردم إثني عشر فرعاً كانتْ البلدية في العهد العثماني قد نَظَّمتْ مداخلها عند فتحها جادَّة الرشاديَّة (شارع الفردوس) بمجموعةٍ من القناطر والجسور وهي بالجانب الجنوبي من النهر.

لقد مضى أكثر من إثنتين وخمسين سنة من التطهير الرابع لنهر العشار وما زالتْ المدينة تختنق من المياه الجوفية غارقة فيها؛ لعدم جريان[1] المياه في النهر بصورةٍ طبيعية، فضلاً عن التهالك، وما حَدَثَ فعلاً، من ردم لشبكة النهر وفروعه واتصالاته بالأنهر الأخرى نتيجة لعمليات فرز غير مدروسة .. وسيبقى نهر العشار له حق بذمة المدينة لأنَّه أصل نشوئها الحديث!.

المقالة الثامنة

المُشيَّدات التراثية في مدينة المدن ((البصرة)) وما آلتْ إليه عند التخطيط الحديث

لم تُرصد الجوانب التراثيَّة في مدينة البصرة الحديثَّة ، إلَّا في سنة 1980م، عند ما تمَّ تأليف لجنة من المَعنيِّين بالتراث، لحصر المُشيَّدات التراثيَّة والحِفاظ عليها[2]، لأنَّ تلك المُشيَّدات (التراث) لم تدخل بالتحديد الزمني المثبت للآثار، كما أشار إلى ذلك بيان القائد

(1) إنَّ (قواعد)بعض الجسور منها جسر فلسطين والجزائر و(السَدّ)الذي أُقيم على نهر العشار مثل موانع جريان المياه في النهر مداً أو جزراً وإنَّ السد الذي كان الحاجز الأساسي في انعدام حركة المياه، ثُمَّ التخلص منه برفعه في 18/ 8/ 1985م بعد أن بَقيَ طوال سنوات مانعاً طبيعياً للمد والجزر.

(2) بلدية البصرة 1869 ـ 1981 / من منشورات مركز دراسات الخليج العربي في جامعة البصرة ص 840.

العام لقوات الإحتلال البريطانية في العراق بتأريخ 22/ مايس/ 1917م، أو ما حُدِدَ بقانون الآثار القديمة الصادر في 26/ حزيران/ 1924م، وكذلك قانون الآثار رقم 59 لسنة 1936م [1].

إنَّ مديريَّة الآثار العامة، اهتمَّتْ بآثار مدينة البصرة القديمة، الشاخصة منها، ولم تُحرِّك ساكناً بالنسبة للتجاوزات التي تمَّتْ على أراضٍ تضم بباطن تربتها ما بَقيَ من أطلال تلك المدينة بعد خرابها .

إنَّ اهتمام مديرية الآثار العامة على ما هو ظاهر من المعالم الأثرية ولغاية تحديد موقع البصرة القديمة، وواكب المُهتمُّون بالتراث الإهتمام المؤيَّد بقانونٍ غير أنَّ (التراث) الذي لم يحمه قانون يكون عِرضه للضياع حتى بعد وضع اليد عليه بعمليات استملاك أُجريتْ لتخليصه والحفاظ عليه .

لم يتناول الرصيد الآثاري لمدينة البصرة، لأنَّ كل ما شُيِّدَ جاء تالياً لما حُدِّد من عُمر زمني للآثار لأنَّ الفقرة (أ) من المادة الثانية من قانون الآثار القديمة لسنة 1924م أشارتْ إلى أنَّ عام 1700م ـ 1118هـ هو الحدُّ الفاصل بين الذي يلزم الحفاظ عليهٍ أما ما تَلى هذا التأريخ أو ما حُدِّدَ من مُدَد في قانون 59 لسنة 1936 فلا حماية لما شُيِّد خارج حدود ذلك التحديد .. وبالرغم من هذا فإنَّ مديرية الآثار العامة لم تغفل المدينة الحديثة ، وأهميَّة النشر والتَعرُّف على آثار وادي الرافدين وحضارته، لهذا فاتحتْ بكتابها

---

(1) مجموعة البيانات والإعلانات الصادرة من القائد العام في 11اذار سنة 1917م وقد ورد (بالفقرة2) (كلمة قديم في ما يخص هذا البلاغ يعني كل ما هو سابق لسنة ألف وخمسمائة ميلادية) وقد أُلغي هذا البيان بقانون الآثار القديمة لسنة 1924وكذلك صدر قانون الآثار القديمة رقم 59لسنة1936وإنَّ تحديد الفترة الزمنية لما يعتبر من الآثار حدَّد سنة 1118هـ أو1700ميلادية (م2ف2) .

المُرقَّم1147والمؤرَّخ في 16/ 6/ 1938م كل من متصرفيَّة لواء بلدية البصرة، حول نصب نسخة من تمثال (أسد بابل)، رمز الحضارة العراق القديمة وعظمة آثارها، ووجدتْ هذه الدعوة قبولاً لدى المجلس البلدي بقراره المرقم (241) جلسة (25) في 2/ حزيران/ 1938م، محدداً ((أحسن بقعة لنصب تمثال (أسد بابل) عليها هي المساحة الواقعة أمام نادي الموظَّفين بالنظر لكونها مَحطَّ أنظار العموم وتمر فيها الطريق المُؤدِّية إلى قناصل الدول والشركات الأجنبيَّة))[1].

فمن مدلول الأحكام القانونيَّة المُحدِّدة لتأريخ ما يُسمَّى بالآثار، ومن اهتمامات المديريَّة العامة للآثار لنصب نسخة التمثال المعني، معناه أنَّ البصرة الحديثة لم تكن موضعاً آثارياً يسمح لتلك المديرية العامة بالتدخل، والحفاظ على المشيَّدات التأريخيَّة التي تمَّ تَشييِّدها لما بعد سنوات التحديد، والتي يمكن أن تكون قد سُلِّمتْ إلى المؤسَّسات غير الآثارية بموجب أحكام قانون محافظة الأبدات العثماني الصادر بتأريخ 18كانون الأول/ 1330هـ السلطان محمد رشاد، حيث وَرَدَ بالمادة الأولى منه (أنَّ ماجرتْ المساعدة بهدمه في نظام الآثار القديمة (الأبدات) من قلاعٍ وأسوار يُترك إلى البلديات المحليَّة في الأماكن المشكَّلة فيها بلديات أمَّا غير المُشَكَّل فيها بلديات، أو هي خارج حدود البلديات فتُترك مع عرصاتها إلى الولايات على أن تُراعى في ذلك أحكام النظام المذكور) [2] فضلاً عن أنَّ في مدينة البصرة مُشيَّدات تراثيَّة تعود إلى جهاتٍ غير التي عناها قانون الأبدات المُتقدِّم، هي الأخرى من الناحية الزمنية لم تُشمَل بتدخل السلطات للحفاظ عليها.

لقد وجدنا مع بدايات تخطيط شوارع المدينة الحديثة، وتحديد عرضها، أو فتح ما يقتضي فتحه من الشوارع، أنَّ ذلك التخطيط الجديد أتى على تلك المشيَّدات وأزال

(1) بلدية البصرة المصدر نفسه ص 584.

(2) جريدة بصرة العثمانية عدد 679 في مُحرَّم سنة 1332هـ وكذلك عددها 621 في جمادي الآخر سنة 1330هـ نشرتْ نص القانون .

معالمها، ولم يُحسَب حساباً لأهمِّيتها التأريخيةٍ ومن أبرز تلك المشيَّدات التراثيَّة والتي تمَّ هدمها:

(1) بناية الطوبخانه:

كانتْ موقعاً للمدفعيَّة العثمانية ، وبعدها مقراً لمتصرفيَّة البصرة في عهد أشرف باشا (1291هـ ـ 1874م) ثُمَّ لولاية البصرة بعهد ناصر باشا السعدون 1296هـ ـ 1879م[1]، وأخيراً أصبحتْ مُلكاً لدائرة الأملاك، واتخذتْ بالإيجار من قبل بلدية البصرة لتكون دائرة للصحة المركزية التابعة لها لغاية 2/ تشرين ثاني / 1929م ثُمَّ أُلحِقتْ أرض البناية بعد هدمها بحديقة الگزارة وحديقة النساء اللَّتين استحدثتهما البلدية عند صدر نهر العشار، هذا وإنَّ بنائها كان سنة 1286هـ بعهد مدحت باشا والي بغداد عند زيارته لسنجق البصرة .

(2) دائرة البحرية العثمانية.

المُطلَّة على شط العرب ونهر المناوي، أُشغل موقعها من قبل مديريَّة الأشغال بالعهد الوطني، وتمَّ هدمها تدريجياً بعد أن رُدِمَ نهر المناوي بامتداده لفتح شارعٍ موازٍ لشارع الموفق حتى مستشفى (دويد) بعد أن اتخذ المجلس البلدي قراره المُرقّم (1) جلسة 28في / 7/ 7/ 1942 .

(3) الثَكَنة العسكرية العثمانية (الخيَّالة).

عُرفتْ بالقشلة، وكان تشييدها في مطلع القرن العشرين، وكانتْ مقرَّاً للقيادة العثمانيَّة في ولاية البصرة . اتخذها معاون الحاكم العسكري البريطاني عند احتلال الإنكليز لمدينة البصرة في 22/ تشرين الثاني / 1914م مقراً له فيها ، وأصبحتْ مقرَّاً

(1) البصرة في أدوارها التأريخية للشيخ عبد القادر باش أعيان ص72.

لدائرة بلدية العشار المُلحَقة بتلك المعاونيَّة وعند تأسيس الحكم الوطني اتخذتها الحكومة العراقية موقعاً لشرطة الخيَّالة وكانتْ البناية من السعة وحسن الريازة ومتانة البناء يمكن أن تقاوم الزمن، إلَّا أنَّ المحاولات ابتداءً من كتاب متصرفية لواء البصرة 14142في 3/ 12/ 944 وما اتخذ من قرارات لإفراز ساحة الثكنة (قرار المجلس البلدي 72 في 19/ 12/ 1944) و(قرار فوق العادة في 19/ 8/ 1945) ومن ثَمَّ تقرَّر هدم البناية بعمومها عام 1957م وأُلحِقَتْ بمجموعةٍ الأسواق العصرية وتمَّ تشييد علاوٍ للخضراوات مُلحَقَة بتلك السوق .

(4) قره غول خانه الضبطية في سوق الدجاج .

أقدم تَشيِّيداً من الثكنة العسكرية أو مخفر الرشاديَّة. فلم تنقطع استعمالاته في شتَّى العهود، واتُّخِذَ في 8/ مايس / 1941م مقرَّاً للحكومة الوطنيَّة بعد احتلال الإنكليز الثاني لمدينة البصرة (العشار) وسيطرتهم على مقرِّ المتصرفيَّة واستلمتها البلدية مبادلة بأرضٍ من الجهة المالكة لها ، وفي عام 1979م تمَّ هدمها .

(5) سوق كاظم آغا ..

نهجتْ بعض المؤسسات نهج البلدية في التخلص من المُشيَّدات القديمة، فقد كانتْ مؤسَّسة البلدية تتَّبع التنظيم للتخلص من تلك المؤسَّسات وإنما أرادت بذلك أن تخلص من تكاليف صيانتها، أو أنها كانتْ تحسب حسابات للمردود المالي عند بيع عرصات هذه المنشآت بعد هدمها.

وسوق كاظم آغا ممَّا ينطبق عليه ما أوردناه، فقد أورد كتاب التحفة النبهانية [1] تأريخاً شيِّقاً لهذا السوق الذي كان بالإمكان الحفاظ عليه وقد حاولتْ البلدية أن تحيي هذا

(1) التحفة النبهانية في تأريخ الجزيرة العربية / تأليف الشيخ محمد بن خليفة بن حمد موسى النبهاني الطائي / ص 308 من منشورات مركز دراسات الخليج العربي .. هذا مع العلم أن الشيخ النبهاني كان عضواً في بلدية البصرة.

السوق بإلزام أصحاب الأصناف لإشغاله كما هو موضح بقرار (43) جلسة (5) في 19/ نيسان/ 1933م استناداً إلى كتاب متصرفية لواء البصرة رقم 3429 في 30/ أذار / 1933م وبَذَلَتْ مديرية أوقاف بغداد سنة على المدينة أثراً تُراثياً عند جذوره مع استلام محمد كاظم آغا مُتَسلِّم البصرة المسؤولية إذ تمَّ تشييده بتأريخ 1236هـ .

كما كان هناك بعض المُشيَّدات التراثية العثمانيَّة هُدِّمتْ لأغراض التنظيم منها مخفر الرشادية ومخفر باب الزبير فضلاً عن مجموعات من الدور التراثية منها ما وَرَدَ بقرار لمجلس البلدي 698 في 17/ 12/ 61 ، وكذلك مجاميع أخرى في مدخل مدينة البصرة كما مُؤشَّر بالخارطة 304 في 18/ 12/ 63 ... أن رصد المشيَّدات والدور التراثيَّة يمكن أن يكون على عموم المحلَّات التراثيَّة وبكاملها واختيار المحلَّة النموذج للتراث، وإنَّ محلَّة السيف وضفَّتي نهر العشار بامتداده وما عليهما من تشييدات هي بحق موقعٌ تُراثي... هذا وإنَّ بالإمكان إدخال ما تمَّ هدمه في حسابات الرصد لإعادة تشيِّيده لما فيه من فائدة .

المحتويات

مقدّمة 5
المُربي البصريّ الأستاذ محمّد جواد جلال محاضراته القرآنية ومقالاته..... 7
حياته وتراثه..... 9
آثاره: 14
أدب القران 17
لغة القرآن:..... 20
اسلوب القرآن 24
إعجاز القرآن 36
(2) علومُ القرآن 41
المُقدِّمة: 41
علوم القرآن..... 42
أثر القرآن في اللغة العربية: 46
أثر القرآن في حياة العرب العقلية والسلوكية 49
أسباب تدوين علوم القرآن 49
العلوم اللغوية:..... 50
النحو: 50
التصريف 51
اللغة 51
البلاغة..... 52
علم القراءات 59
علم رسم حروف القرآن 60
الأدب 60

العلوم الدّينية 60
علم التفسير 60
علم الفرائض 61
علم الحديث 62
علم الشريعة 62
علم البحث والمناظرة 62
علم التأريخ 63
علم الكلام 63
المُحاكاة واثرها في الحياة 65
حاجتنا الى منطقٍ مُجَرَّد 68
لغة الدين ولغة العلم –1– 72
لغة الدين ولغة العلم –2– 76
الغاية والواسطة 80
التجارة بنظرة دينية 85
السّيّد عباس شُبَّر وتُراثُه مع جمع ما تَبقّى من شعره المنشور في المجلات 89
السيد عباس شُبَّر وتُراثُه مع جمع ما تَبقّى من شعره المنشور في المجلات 91
ومن الكتابات القديمة عن السيد عبدالله شبر: 91
ومما كُتِبَ عن فهارس مخطوطات السيد عبدالله شُبَّر أو عن خِزانته: 92
الخزانة الشبّرية: 93
السيد محمد شبّر ونسبه: 94
مؤلفاته: 95
له من المؤلفات أكثر من مئة كتاب ورسالة منها: 96
وللسيد محمد من الأولاد: 97
له من المؤلفات: 98

من مؤلفاته: 98
أما السيد عباس شبّر بن السيد محمد شُبّر: 99
ومن مؤلفاته: 99
دراساتٌ أدبية لشعرائِنا وكُتَّابِنا السّيّد عباس شبر -1- 101
تصدير: 101
أما دراسته: 101
شاعريته: 102
شعره: 103
التشاؤم في شعره: 105
دراساتٌ أدبية لشعرائِنا وكتابِنا السيد عباس شبر -2- 108
سوانح 114
خطرات 115
خواطر وسوانح 116
موطني 117
أولم يكفِ شاهداً ودليلا 118
نظرات 119
رباعيات 120
تحية الربيع 121
الحياة وأحلام الطفولة 122
أنغام 123
لمحـــات 124
مزدوجات 125
مزدوجات 126
سوانح وخواطر 126

رباعيات 127
سوانح 128
الأنـفـاس المحترقـة 129
رباعيات 131
رباعيات 132
رباعيات 133
جواهر وصور 135
سوانح وخواطر 136
سوانح وخواطر 137
سوانح وخواطر 139
خوالج النفس 139
خوالج النفس 140
خوالج النفس 144
خوالج النفس 145
(البيان) 145
خوالج النفس 148
خوالج النفس 150
خوالج النفس 151
خوالج النفس 152
خوالج النفس 154
خوالج النفس 155
من وحي العزلة 156
الحياة آلام 171
المثاني والمثالث 173

شهيد الحق والمبدأ 174
بُنيَّ نعيمُ الدين 178
الأستاذ رجب بركات مؤرخاً و صحفياً 183
المقالة الأولى : لماذا هذه الملوحة في شط العرب؟ 197
المقالة الثانية : شـط العـرب عليه أن يَخلُقَ الأرضَ الجديدة للعـرب 199
المقالة الثالثة: البصرة مدينة سياحية ذات تأريخٍ مجيد..... 202
المقالة الرابعة: المرور والسَير وعلاقته بتصميم المدينة الأساسي 206
المقالة الخامسة: تصميم المدينة وما سَتكون عليه البصرة. . حالياً ومُستَقبلاً..... 211
المقالة السادسة : طالب النقيب.... من تأريخ العراق المعاصر 215
المقالة السابعة : نهر العشار أصل نشوء مدينة البصرة الحديثة، وله حق بذمتها 220
المقالة الثامنة: المُشيَّدات التراثية في مدينة المدن وما آلتْ إليه عند التخطيط الحديث 228
(1) بناية الطوبخانه: 231
(2) دائرة البحرية العثمانية. 231
(3) الثَكَنة العسكرية العثمانية (الخيَّالة). 231
(4) قره غول خانه الضبطية في سوق الدجاج 232
(5) سوق كاظم آغا 232